رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الدكتور
محمد بركات حمدي أبو علي
الجامعة الأردنية - كلية الآداب

# في الأدب والبيان

الناشر
دار الفكر للنشر والتوزيع
عمان - ص.ب : ١٨٣٥٢٠

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الدكتور
محمد بركات حمدي أبو علي
الجامعة الأردنية - كلية الآداب

# في الأدب والبيان

١٩٨٤

الناشر
دار الفكر للنشر والتوزيع
عمان - ص.ب : ١٨٣٥٢٠

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمـــة

نظر القدماء الى العمل الادبي بوصفه وحدة لغويـــة تتشكل فيها المضامين الانسانية ، ويتبدى من خلالها التجارب المتنوعة للحياة والانسان ، ونظرة الانسان الى الانسان والى المجتمع والى الكون والى الخالق .

وكان من نتيجة ذلك ان وحدوا بين علوم العربية التي تصور ما يريدون من أمور ، وما يرفضون من قضايا . وشاع بينهم « الاخذ من كل فن بطرف » وفهم هذا لا يعني الخلط بين فروع العربية ، وغيرها من العلوم الانسانية ، انما الانتفاع بكل علم بما يعين على تجلية مفردات العلم الآخر ، من غير اقحام أو تجاهل لركائز فن دون فن .

هذا ما تعارف عليه المحدثون باسم النظرة الكلية او الشاملة ، وهو ما دعت اليه المدرسة الالمانية باسم «الجشطالت» وتابعها في ذلك الادباء والنقاد واللغويون من عرب وغـــيرهم .

هذه النظرة لا تفصل بين النظر والتطبيق في فهم أي قضية من قضايا اللغـــة وأدبها ، وانما يتسع الادراك الى الشمول والضم ، لا الى الانفصال والتجزئة وان كانت هذه النظرة لا تغفل المفردات ، انما قيمة المفردات في اطار علاقات ، وفي ضوء الاطار الشامل ، اذ المفردة تحمل قيمة في نفسها وتحمل قيمـــة في الاطار التركيبي الشامل ، والقيمتان تتحدان في مفهوم التشكيل الجديد لفن القول وتنوعه .

واللغة العربية في مصطلحها وقيمتها ـــ قديما وحديثا ـــ نظرت الى المفردات والتراكيب ، والى قيمة ذلك في العمل الادبي رابطة ذلك بين المتفنن صاحب الاثر الادبي ، والمتلقي الذي يشارك في فهم النص والاستماع اليه والانتفاع به أو نقـــده أو رفضه ، أو قبوله أو التعليق عليه ، أو الدعاء اليه ، والانتماء لما يحمل ، أو الانكار والهجوم على ما فيه من علم وعاطفة وفكـــر .

حتى يتسنى هذا العمل في اللغة العربية وآدابها ، لا بد من توحد النظرة لعلـــوم العربية ، والاخذ من كل علم بما يعين على تجلية جزئيات العلم الآخر ، وبما يوضح الغاية من الدرس والتوجيه والشرح .

والادب صورة لتفاعل فروع العربية ، والنحو ركيزة لتلك الفروع في الوصـــل والتواصل من حيث التركيب وترتيب المعنى ، والبلاغة فكـــرة واضحة ترتبط بالادب والنقد وفن القول العربي ، وتنتفع بنظرات العلوم العربيـــة ، وبشتى الاتجاهات الانســـانية .

ولهذا فان الفصول الواردة في هذه الدراسة في قضايـــا وبحوث تمثل النظرة الشمولية لمفهوم وحدة علوم العربية ، وتبرز صلة النحو بالبلاغة العربية ، والادب بالبيان العربي ، واللغة العربية بالبيان القرآني .

وتبدى ذلك من خلال دراسة قضية ، او عرض لراي ، او شرح لفكرة من خلال كتاب ، و في فكر علم من اعلام الادب او النقد او البلاغة .

وغايتنا أن نعلن عن قيمة النظرة الكلية والاهتمامـــات اللغوية ، والنظرات البلاغية ، والاتجاهات الادبية في درس العربية بين القديم وضوء النظر الحديث .

والحمد لله تعالى في الاولى وفي الآخرة .

**المؤلف**

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

- ١ -

# سر البيان

في

كتاب «ابن سنان» ( ٤٦٦هـ)

يجمع المشتغلون بالبيان العربي ، على أن كتاب «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي (ـ٤٦٦هـ) ، صورة من صور التفكير البياني في القرن الخامس الهجري(١) . ويجعلونه من أنفس الاثار التي خلفها القرن لانه خلاصة مركزة لكثير من وجوه النظر في العربية واصولها ، وفقه لغتها ، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الادبي ، مع آراء سديدة في النقد والبلاغة وفنون الادب ، تدل على تبحر وسعة اطلاع ورأي منظم وعمق في التفكير الادبي(٢) .

والمتتبع لكتاب «سر الفصاحة» يلاحظ أن «الفصاحة» فيه بمعنى الادب والبلاغة والنقد ، وما يلزم لهذه العلوم من نظرات في النحو واللغة ، من حديث عن الاصوات ، والالفاظ ، والمستعمل والمهمل ، والمهموس ، والرخو ، وغير ذلك مما يعين على تجلية البيان العربي واسراره ، وهذا يعني ان الخفاجي سار بالبلاغة والنقد الادبي سيرا مزدوجا ، فيه التحديد والتعريف ، والى جانبه النص والمثال ، والى جانبهما الراي السديد في الحكم بالاصابة او سوء الاستعمال(٣) .

هذا التنوع في الموضوعات ، والدقة في ضوء الاستيعاب ، جعلت بعض الباحثين ، يؤكدون أن كتاب «سر الفصاحة» بحث بياني يدل به على أول كتابة منظمة في البيان العربي ، وليعرف الباحثون ان اساطين البلاغة المعروفين لهم لم يكونوا مخترعيه وانما نقلوه نقلا من هذا الاثر(٤) .

ثم ان التأثير والتأثر بين ابن سنان ومن تقدمه ، مثل الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ،

---

(١) ينظر : البيان العربي ، د. بدوي طبانة ، ص١٨٣ـ٢١٥ ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، وينظر : البلاغة تطور وتاريخ ، د. شوقي ضيف ، ص١٥٢ـ١٥٩ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٥م ، وينظر في : تاريخ البلاغة العربية ، د. عبدالعزيز عتيق ، ص٢٣٦ـ٢٤٤ ، وينظر تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، احمد المراغي ص٩٨ ، طبع ـ مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٥٠م . وغيرهم ممن ألف في تاريخ البلاغة العربية او التعريف برجالها ، أو الحديث عن قضية من قضاياها .

(٢) البيان العربي ، ص ١٨٩ .

(٣) السابق : ص١٩٠ .

(٤) نفسه : ص١٩٥ .

والحسن بن سهل العسكري (ـ٣٩٥هـ) ، ومن تلاه ، مثل ، ابن الاثير (ـ٦٣٧هـ)(١) ، وغيرهم ، قد أولى ابن سنان ميزة في البيان واسراره ، وموضوعاته ، واغراضه ، ونماذجه وشواهده ، اذ عرض ابن سنان لتلك الفنون التي يعرفها البيانيون وعلماء البديع ، ولكنه لم يعرضها عرضا قاعديا ، وانما عرضها عرضا ادبيا نقديا ، يبين أثرها في صناعة الادب مع نماذج جيدة منها ، واخرى رديئة ، وبيان العلة في استحسانها او استهجانها ، بما يدل على العلم الصحيح ، والذوق الادبي المستقيم(٢).

وهذا يعتمد على النظرة السليمة ، فالقرن الرابع قرن الاختصاصيين الذين هجروا التعميم غير العلمي ، واهتموا بمعالجة التفاصيل ونقد النصوص ، وبذلك هيأوا السبيل لاصحاب العقول العظيمة الذين وقفوا على آثارهم ، ومن بين أصحاب العقول هؤلاء عبدالقاهر الجرجاني (ـ٤٧١هـ او ٤٧٣هـ) ، وابن سنان الخفاجي (ـ٤٦٦هـ) ، وقد عاشا في القرن الخامس الهجري(٥) .

ويمتاز ابن سنان عمن جاء بعده في النظرة العلمية للبيان العربي ، مثل (السكاكي ـ ٦٢٦هـ) ، والخطيب القزويني (ـ٧٣٩هـ) ، في انه كان يفضلهم لانه لم يسلك في دراسة البيان ذلك المنهج القاعدي الجاف الذي ينفر من البلاغة(٦) .

ولهذا فان العلاقة في ضوء هذا الفهم بين البلاغة والنقد والادب ، تكون واضحة المعالم ، اذ البلاغة في نشأتها وتطورها نقد ، والنقد بلاغة في اعتماده على معالم الحسن وجهات الاصابة التي تمثلت في اذهان النقاد ، باحساسهم الفني وذوقهم الادبي ، او وجودها مكتوبة فيما ورثوا من كتب البلاغة وموضوعاتها الكثيرة ، وبذلك يكون من المستطاع ان تقدم البلاغة لكل من الاديب والناقد ثقافة مستنيرة في الفن

---

(١) البيان العربي : ص١٩٤ .
(٢) السابق : ص١٩٥ .
(٣) نفسه : ص١٩٢ .
(٤) نفسه : ص٢١٥ .
(٥) البيان العربي ، ص٢١٥ .
(٦) السابق : ١٨٩ ، ١٩٠ .

الذي اعدته الطبيعة له ، ليصل به الى اقصى ما يستطيع من درجات التفوق والاتقان .. ولهذا حكم للدراسات البلاغية بأنها تتمثل فيها خلاصة الافكار الادبية ، وتتجمع فيها ثمرات الاذهان المستنيرة ، وتنصب فيها روافد الاذواق الرفيعة بما أحصته من تجاربها الكثيرة وخبرتها الطويلة في ممارسة الادب وادامة النظر فيه(١).

ولابن سنان في البلاغة كتاب «سر الفصاحة» وهو من احسن ما الف فيها(٢) . فيه عن «الفصاحة» من وجهة نظره ، وكذلك عما تضمنته من فنون البيان والبديع(٣). ولذا فان الخفاجي قد عالج فنون البديع وأساليب البيان والبلاغة في ثنايا كلامه عن «سر الفصاحة» الذي يتمثل عنده في حسن اللفظ وحسن المعنى(٤) .

ومضى ابن سنان الخفاجي يدرس فصاحة الكلام في كتابه «سر الفصاحة» درسا منهجيا دقيقا(٥) . وقد عني فيه بتفسير الفصاحة وما يطوى فيها من الصور البيانية والبديعية(٦) .

ثم الكاتب عالج فنون البلاغة والبديع في ثنايا حديثه عن سر الفصاحة ، اذ هي عند ابن سنان تشمل : حسن اللفظ وحسن المعنى بالضبط كما أطلقها من قبله أبو هاشم الجبائي ... وقد جمع فيه كل محاسن الكلام في رأيه مع تحليلات لبعض الابيات ومناقشات دقيقة لمن سبقوه في عرض بعض وجوه البديع(٧) .

ولذلك فقد كان غرض ابن سنان من تأليف كتابه ، هو معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها(٨) وهذا ما دعاه الى ان يتأثر بالفحول من النحاة والبلاغيين(٩) . وتأثر به البلاغيون المتأخرون(١٠) وابن سنان الخفاجي (ـ٤٦٦هـ) ، وابن رشيق القيرواني

---

(١) البيان العربي ، ص٤٣٧ .
(٢) تاريخ علوم البلاغة ـ ص٩٨ .
(٣) في تاريخ البلاغة العربية . د. عبدالعزيز عتيق ، ص٦٣٦ .
(٤) السابق : ص٢٤٤ .
(٦) السابق : ص١٥٢ .
(٥) البلاغة . د. شوقي ضيف . ص١٤٠ .
(٧) نفسه : ص١٥٨ .
(٨) كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي «دراسة وتحليل» د. عبدالرازق ابو زيد زايد ، ص١٩٥، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .
(٩) السابق : ص٦٢ .
(١٠) نفسه : ص٥٠ .

(—٤٧١هـ او ٤٧٣هـ) ، يعتبرون وجها متكاملا للبلاغة في القرن الخامس الهجري ، ولونا للبلاغة العربية من خلال اربعة كتب ، هي : العمدة لابن رشيق ، وسر الفصاحة لابن سنان ، والدلائل والاسرار لعبدالقاهر الجرجاني ، او البلاغة عند ثلاثة اعلام .

وهذا التصور البلاغي لاسرار البيان العربي ، والذي ورد عند ابن سنان باسم «سر الفصاحة» هو المنهج نفسه الذي سعى اليه المحدثون من المشتغلين في الادب والنقد والبلاغة ، اذ قال بعضهم : اننا حينما ندعو الى تنحية المنهج القائم على القوالب المنطقية الجافة عن البلاغة والنقد ، وعندما نهاجم هذا التيار بكل ما لدينا من قوة انما نقصد بهذا ان نرد للبلاغة والنقد اعتبارهما ، وأن نحمي الدارسين من كل ما من شأنه ان يحول بينهم وبين رؤية الحقائق وادراك الخفايا والاسرار . ان وسيلتنا هي المنهج القائم على الذوق ، وعلى النظرة الموحدة للغة(١) .

ويهتف سر الفصاحة عند ابن سنان الخفاجي ، بأن الفن ليس مجرد محاكاة للحياة وللطبيعة او اظهار لبراعة الفنان في هذه السبيل ، بل انما له غاية جليلة أخرى مما يبثه في الاشياء التي يحاكيها من دلالات جديدة لم تكن لها او لم نكن نلتفت اليها في الواقع الخارجي(٢) .

ومع ذلك فان كتاب «سر الفصاحة» من الكتب التي خدمت البلاغة من طريق الادب ، ونحت نحو الفن من ناحية الاسلوب . ولم تجر على السنن المألوف في عرض القضايا العلمية عرضا خشنا غليظا ، يبعث في النفس الملل والسآمة ، ويحملها على الزهد والانصراف ...(٣) .

وبهذا يكون سر البيان في كتاب ابن سنان «سر الفصاحة» من الحديث في الاسلوب وخصائصه ، والاسلوب في بعض وجوهه فن من الكلام يكون قصصا او

---

(١) قضايا النقد الادبي والبلاغة د. محمد زكي العشماوي ، ص٣٥٥ ، ٣٥٦ ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

(٢) النقد والبلاغة . د. مهدي علام ، و د. عبدالقادر القط ، و د. مصطفى ناصف ، ج٢ : ص٢٦٠ ، مكتبة مصر ، القاهرة ، (؟) .

(٣) الادب والبلاغة ، د. ابراهيم ابو الخشب ، ص ٢٣٤ ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

حوارا ، تشبيها او مجازا او كناية ، تقريرا او حكما وامثالا ، فاذا صح هذا الاستنباط كان للاسلوب معنى اوسع اذ يتجاوز هذا العنصر اللفظي فيشمل الفن الادبي الذي يتخذه الاديب وسيلة للاقناع او التأثير(١) .

وهناك اهداف راعاها ابن سنان ، وادركها نقاد العرف وبلاغيوهم ، كما يراها بعض المعاصرين ، اذ ادركوا ان الاساس هو اثارة النفس وتحريك الطباع ، وقد يقف عند هذا الحد كأدب الرثاء ، والوصف والعتاب ، وقد يتعدى ذلك الى الاقناع بفكرة او الى التهذيب الخلقي ، والاصلاح الاجتماعي ، او الى الاستفادة من تجارب الغير ، او الى اقامة الحجة . وكل هذه الاهداف يصل اليها الادب بلغته الخاصة وطريقته الخاصة . بالمنهج العلمي لا بالاسلوب المنطقي(٢) .

مما تقدم نلاحظ الصورة المؤتلفة في معنى سر الفصاحة ، بما يضم هذا المصطلح من معنى الادب والنقد والبلاغة وذلك كله في اطار الاسلوب ، بما يحمل من مذاهب واتجاهات . وكما كانت الحياة الادبية بمذاهبها المختلفة ترجع في اتجاهاتها الى البيئة الطبيعية والظروف الاجتماعية والاقتصادية والحالات السياسية والعقلية ، فكذلك ينبغي ان يكون الامر في النقد الادبي ، اذ هو مظهر من مظاهر هذه الحياة وصورة من صور نشاطها ، وهذه الحياة مرتبطة اوثق ارتباط بهذه الاعتبارات .

ثم ان النقد الادبي في حقيقته هو تصور الاثر الادبي والحكم عليه ، وهذا الحكم الادبي ان اعتمد على الذوق ، فمرجع الامر في هذا الذوق الى هذه الاسباب والملابسات ، منها ما تجتمع عناصره ، وبها تتكيف اتجاهاته ، وان كان يعتمد على العقل وصنوف المعرفة فالامر كذلك ايضا(٣) .

---

(١) الاسلوب . احمد الشايب ، ص٤١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

(٢) اسس النقد الادبي عند العرب ، د. احمد احمد بدوي ، ص٧٦ ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

(٣) في تاريخ النقد والمذاهب الادبية العصر الجاهلي والقرن الاول الاسلامي ، د. محمد طه الحاجري ، ص١٥٤ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢م .

وقيمة البيان في كتاب «سر الفصاحة» في انه من انفس كتب البلاغة والنقد التي خلفها القرن الخامس الهجري ، لانه جمع بين التعليل والتحليل والعلم والذوق ...(١) .

ولذا فان ابن سنان في نهجه في سر الفصاحة ، قد نحا نحوا سليما في اطار فهم الفصاحة والبلاغة من خلال نظرات الادباء والنقاد ، وليت المتأخرين استفادوا من «سر الفصاحة» في بحث البلاغة ، ورتبوها على هذا الاساس ولكنهم اسرفوا في التقسيمات وادخال الدلالات الوضعية والعقلية في مباحثها(٢) .

وقد رأى الاستاذ عبد المتعال الصعيدي ان في كتاب ابن سنان عيبا كبيرا في الاساس الذي قام عليه وخللا ظاهرا في ترتيب ابوابه وخطأ ملموسا في توزيع موضوعاته .

وقد يكون هذا صحيحا اذا طبقنا عليه منهج السكاكي (ـ٦٢٦هـ) ، والقزويني فلقد سبق مؤلفه عصر الشروح والتلخيصات وكان ذا ذوق رفيع وحسن مرهف ، (ـ٧٣٩هـ) ، اما اذا نظرنا اليه نظرة اخرى فيكون الكتاب ذا قيمة علمية ومنهجية ، وكانت له طريقته ومنهجه ، وليس من الانصاف ان نطالبه بما لم يكن في عصره(٣) .

ومع ذلك فقد ظهرت روح ابن سنان النقدية في كتابه وناقش النقاد والبلاغيين وابدى رأيه ، ولم يكتف بعرض آرائه وانما عقد فصلا في ذكر الاقوال الفاسدة في نقد الكلام(٤) . وناقش الآراء التي قيلت في تفضيل كلام على كلام(٥) .

ولهذا رأى محقق كتاب «سر الفصاحة» الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي ، ان يرجع الطلاب الى دراسته ، لانهم ينتفعون به اكثر من عبدالقاهر ، ولا سيما في تربية ملكة النقد ، ولا يؤثر في هذا ما اخذناه ـ اي ما اخذه الاستاذ الصعيدي عليه فيما

---

(١) مناهج بلاغية . د. احمد مطلوب ، ص ١٣٧ ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣م .

(٢) السابق : ص١٤١ .

(٣) مناهج بلاغية ، ص١٤٢ ، ١٤٣ .

(٤) سر الفصاحة ، عبدالله بن سنان الخفاجي (ـ٤٦٦هـ) ، ص ٢٢٧ تحقيق ـ عبدالمتعال الصعيدي، طبع ـ محمد علي صبيح واولاده ، مصر ، ١٩٦٩م .

(٥) مناهج بلاغية . ص١٤٣ .

سبق ، لانه يتعلق بتقسيم الكتاب ، ويرجع الى تبويب الابواب . فلا يؤثر في قيمة الكتاب في ذاته ، ولا يقلل من حسن ذوقه واسلوب(١) .

ومن حسن الذوق الذي شاع في كتاب «سر الفصاحة» ما جاء في الحديث عن صحة الاوصاف في الاغراض ، وهو ان يمدح الانسان بما يليق به ولا ينفر عنه ، فيمدح الخليفة بتأييد الدين وتقوية امره ، ومحبة الناس وطاعتهم ، والتقى والورع ، والرحمة ، والرأفة ، واقامة العدل ، وشرف الحسب وحسن السياسة والتدبير والاضطلاع بالامور ، والحلم والعفو ، والعلم وحفظ الشرع ...(٢) .

ومن الصحة في الاوصاف تمام المعنى وكماله ، وذلك ان تستوفي الاحوال التي تتم بها صحته وتكمل جودته ، وذلك مثل قول نافع بن خليفة الغنوي :

رجال اذا لم يقبل الحق منـــــهم ويعطوه عاذوا بالسيوف القواضب(٣)

ويتصل بما تقدم ، معنى المبالغة والغلو في المعاني ، ويورد ابن سنان رأي من يحمد الغلو والمبالغة ، وهذا المذهب اقرب الى مذاهب اليونانيين في شعرهم ، وهذه نظرة مقارنة بين مذاهب العرب واليونان(٤) ، وقد نبه اليها ابن منقذ (ـــ٥٣٨هـ) ، في كتابه البديع في نقد الشعر باسم «المناقلة»(٥) ، ثم التفت ابن سنان الى رأي من يكره الغلو والمبالغة التي تخرج الى الاحالة ، ويختار ما قارب الحقيقة ودانى الصحـــة(١) .

---

(١) من مقدمة المحقق لكتاب «سر الفصاحة» الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي ، رقم ى .

(٢) سر الفصاحة ، ص٢٤٧ .

(٣) سر الفصاحة ، ص٢٦٢ .

(٤) ينظـر : ملامح يونانية في الادب العربي ، د. احسان عباس ، المؤسســة العربية ، بيروت ، ١٩٧٧م .

(٥) ص ١٨٣ وما بعدها ، تحقيق ـ د. احمد احمد بدوي ، و د. حامد عبدالمجيد ، وزارة الثقافــة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

(١) سر الفصاحة ، ص ٢٦٣ .

مع ذلك ترى شخصية ابن سنان في التوجيه الادبي ، والحس النقدي ، اذ يقول معلقا على مذهب الغلو والمبالغة وقبولها او انكارها : والذي اذهب اليه المذهب الاول في حمد المبالغة والغلو ، لان الشعر مبني على الجواز والتسمح ، لكن ارى ان يستعمل في ذلك — كاد — وما جرى في معناها ، ليكون الكلام اقرب الى حيز الصحة (١) .

وراى ابن سنان في هذه القضية مبني على تجربة شعرية ، اذ انه مارس الشعر، وقرضه ، وكذلك يتحدث عن هذه القضية من خلال التطبيق الممارس ، لا الناظر المؤطر من خارج الفن او الدعي فيه . ولهذا جاءت احكامه واقعية من فكر الناظم في الشعر ، مع المقارنة بما يوجد في الاشعار عند غير العرب مثل يونان .

وكأن ابن سنان وهو يتحدث عن سر البيان في اصول الفصاحة ، يعتبر نفوس المتلقين في قدرتهم على الحفظ ، وشيوع الطرب بينهم ، ويراعي امكان التلحين والغناء في الاثر الشعري ، لما في ذلك من اللذة والرونق ، وهذا كله باسلوب علمي منظم ، من غير جفاف في العبارة ، او غلظة في المعنى ، انما بعبارة واضحة ، وكلمة مستقيمة غير غريبة ، ولذلك يعقد حديثا بين النظم والنثر ، فيقول : واما التفضيل بين النظم والنثر ، فالذي يصلح ان يقوله من يفضل النظم ان الوزن يحسن الشعر، ويحصل للكلام به من الرونق ما لا يكون للكلام المنثور ، ويحدث عليه من الطرب في امكان التلحين والغناء به ما لا يكون للكلام المنثور ، ولهذه العلة ساغ حفظه اكثر من حفظ المنثور ، حتى لو اعتبرت اكثر الناس لم تجد فيهم من يحفظ فصلا من رسالة غير القليل ولا تجد فيهم من لا يحفظ البيت او القطعة الا اليسير ، ولولا ما انفرد به من الوزن الذي تميل اليه النفوس بالطبع لم يكن لذلك وجه ولا سبب(٢) .

وهذا خلاصة تجربة شعرية لابن سنان ، ولذلك يقول : وسمي الشعر شعرا من قولهم — شعرت — بمعنى فطنت ، والشعر الفطنة ، كأن الشاعر عندهم قد فطن لتأليف الكلام (٣) .

---

(١) السابق : ص٢٦٣ .

(٢) سر الفصاحة . ص٢٧٩ .

(٣) السابق : ص٢٧٨ .

وابن سنان في هذا الفهم لطبيعة الشعر ومفهومه ، يسير مع ما يحسه في عملية نظم الشعر ، ومثل هذا التعريف تبناه في العصر الحاضر ، عباس محمود العقاد ، اذ ربط مفهوم الشعر بالشعور ، ومثله ، في هذا ، الدكتور محمد زكي مبارك.

ولذلك فان الكلام الجيد ، هو الذي يدل بعضه على بعض ، ويأخذ بعضه برقاب بعض ، واذا انشدت صدر البيت علمت ما يأتي من عجزه ، فالشعر الجيد او اكثره على هذا مبني(١) .

ولذلك يقرر ابن سنان ، ان من سر البيان في الكلام الحسن ما جاء على اسهل الطرق واقرب السبل(٢) ، ويؤيد ابن سنان ما ذهب اليه بقول الجاحظ ، اذ يقول : وحكى أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عن بعض من وصف البلاغة ، فقال : ينبغي ان يكون الاسم للمعنى طبقا ، وتلك الحال له وفقا ، ولا يكون الاسم لا فاضلا ولا مقصرا ولا مشتركا ولا متضمنا(٣) .

ويرسم ابن سنان من سر البيان ان يقتدى المتعلم بما تقدم في اصول الاغراض في الاوصاف والمعاني مما لا تتبدل ولا تتغير ، فليكن الائتمام بها واقعا والجري على قانون السداد والصواب حاصلا(٤) .

لا يعني ابن سنان ، ان يقلد المنشيء غيره ، محاكاة القذة للقذة ، اي تقليد من غير تفكير ، او اعمال روية ، او ارهاف احساس ، او اختبار ذوق ، انما ان يسير في الاغراض المعروفة من حيث العنوان العام ، وله ان يتصرف في تشكيل الجزئيات، بحسب ثقافته ، وقدرته ، وادواته ، وذوقه ، وطبعه واستعداده ، وميولـــه ، وحاجاته ، ولهذا فان التجديد في العملية الادبية ، لا يكون في المخالفة ، بل احيانا كما ورد عند ابن سنان يكون في الهيكل العام ، والمعنى الشائع ، واصول الغرض المتعارف عليه بين الناس ، مع الاختلاف في التأليف الداخلي ، وهذا ما حصل في شعر

---

(١) سر الفصاحة . ص١٥١ .
(٢) السابـــق : ص١٧٣ .
(٣) نفســـه : ص٢٢٠ .
(٤) سر الفصاحة ، ص٢٤٨ .

ابي نواس اذ التجديد عنده اخذ وجها في وصف الحياة الـ ي عاشها ، مع عدم الخروج على عمود الشعر القديم في أغلب شعره .

وهذا يوميء الى المعاصرين من المشتغلين بالادب والنقد والبلاغة ، والبيان العربي ، في ان الجديد والتجديد ، يكون في موافقة القدامى في اصول اغراضهم، وعموم معانيهم ، مع التوجيه الداخلي لما يخدم الحياة الماثلة ، ويصور هموم الفرد ، وآهات الجماعة ، وغير ذلك مما يشغل المتفنن من قضايا نفسية واجتماعية وحضارية وفكرية ، الى ما يتصل بمناشط الحياة ، وتنوع مطالبها في الاطار الخارجي، من المطالب وفي الهاتف الداخلي من الميول والنوازع .

ولهذا فان الجاهلي وفق حينا الى الارتقاء عن مستوى الكناية الحسية المباشرة التفصيلية الى نوع من المجاز . وفي تلك الحالة فانه كان يهتضم الواقع الخارجي ويطويه طي نفسه ويخرجه منها في حالة من التخطف وشبه الرؤيا ، فيدرك من الابعاد ما يقصر عنه التقدير الحسي او الغلو الواقعي(١) .

ومهما يكن من امر ، فان الخفاجي ، قد وضح امورا تخدم هدفين : الاول : يتصل بفن القول العربي ، والاخر ، يتصل بكتاب الله تعالى .

أما الاول ، فحديثه عن البلاغة والادب والنقد ، وما يدور حول هذه المواضيع من دراسات ومسائل ومفردات ، في اطار نظرة توحد علوم العربية ، ثم ما ينفسح هذه العلوم من المنطق والاستدلال ، من غير تجميد او تعقيد ، انما بما يعين على ربط السبب بالنتيجة ، وانسجام الاجزاء مع النظرة الكلية الشاملة في النص نفسه.

والثاني : بما تؤول اليه علوم العربية من تفسير لمعنى الاعجاز القرآني ، بعد ان تتضح تلك العلوم بالشرح والتوجيه والتفسير من خلال الشاهد والدليل والحجة ، في اطار جماليات فن القول العربي ، الذي هو دليل على كشف وجوه اعجاز القرآن الكريم .

---

(١) في النقد والادب . ايليا حاوي ، جـ٥ : ص١١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٠م .

هذا التصور لسر البيان عند ابن سنان ، يرد عنه ما اتهم به في انه يخلط في المنهج ، ولا يحرر المسائل ، وان كانت هذه التهمة من عالم جليل هو ابن الاثير (ـ٦٣٧هـ)(١) ، وتابعه فيها بعض المحدثين من اساتذتنا وغيرهم ممن اشتغلوا بالادب والنقد والبلاغة(٢) ، لم يهدف ابن سنان الى كتابة مسائل البلاغة على النهج الذي ارتسمه ابو هلال العسكري (ـ٣٩٥هـ) في كتابه «الصناعتين» وان انتفع ببعض مسائله ، ولا ان يكتب في دراسات الاعجاز القرآني ، كما فعل الرماني (ـ٣٨٦هـ) ، في رسالته «النكت في اعجاز القرآن» ، انما غايته ان يتحدث عن اسرار البيان في الكشف عن وجوه اعجاز القرآن ، وهذا المقصد جعل ابن سنان يلتمس الاصول التي تبرز ما يريد ان يعرضه ، من حديث عن الكلمة والجملة والعبارة ، والنص النثري ، والنظم الشعري ، واقوال الادباء والنقاد والنحاة ، ثم الرد عليهم وتوضيح ما اوجزه ، او شرح ما لم يفسروه ، ولذلك كثر حديثه عن الفصاحة وضم تحتها الحديث عن البيان العربي بعلومه البلاغية الثلاث ، بما فيها من بعض مصطلحات في المعاني والبيان والبديع ، وان لم تتضح معالم علوم البلاغة الثلاثة آنذاك ، انما عرض الى مسائلها من غير فصل او تحديد .

وحديث ابن سنان عن سر البيان ، حديث المجرب ، اذ انه شاعر ، اديب ، كاتب ، يطيل الحديث عن قضايا الصوت والكلمة وما يتصل بذلك من عيوب النطق والتأليف ، ويعرف سر الكلمة وسحرها في رصفها ونظمها وفي صو ها حال انشادها .

وليس ابن سنان في هذا التوجيه فردا ، انما سبقه في مثل ذلك ابن طباطبا العلوي (ـ٣٢٢هـ) ، في كتابه «عيار الشعر» اذ بسط ما رآه مناسبا في الحديث عن الشعر ووسائله من وجهة البيان ، بينما اتجه غيره الى زاوية اخرى . ومثل ذلك ما قام به في العصر الحديث د. محمد زكي مبارك في كتابه «الموازنة» وغيره من الشعرا النقاد والادباء .

وذلك في ميادين الادب والنقد والبلاغة ، وهم كثر ـ والحمد لله تعالى ـ اذ

---

(١) المثل السائر ، جا : ٢٢٢ ـ ٢٢٧ . تحقيق ـ د. احمد الحوفي و د. بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

(٢) من مقدمة الاستاذ عبدالمتعال الصعيدي لكتاب «سر الفصاحة» ، ص ز ، ج .

المؤلف فيهم يجلي ما يراه ضروريا ونافعا للفن الذي يتقنه ويحسنه ، ويضيف بعد ذلك من الجزئيات ما يراه متمما لما هو بصدده .

ولهذا فان ابن سنان لم يضطرب في المنهج ولم ينسب الى كتابه الخلل ، لانه لم يعلن انه سيخصص الكتابة في فن دون آخر ، او في غرض دون غيره ، وانما صرح بغايته ومقصده اذيقول : اعلم ان الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة ، والعلم بسرها ، فمن الواجب ان نبين ثمرة ذلك وفائدته لتقع الرغبة فيه ، فنقول :

اما العلوم الادبية فالامر في تأثير هذا العلم فيها واضح ، لان الزبدة منها والنكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه ، ونقده ومعرفة ما يختار منه مما يكره ، وكلا الامرين متعلق بالفصاحة ، بل هو مقصور على المعرفة بها ، فلا غنى للمتحل الادب عما نوضحه ونشرحه(١) .

وهذا يعني ان المتصدي لحل معاني القرآن يحتاج الى كثرة الدرس ، فانه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل(٢) .

ومن هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «هذا هو البلاغة» عندما سمع بعض الاعراب يقول في دعائه : اللهم هب لي حقك ، وارض عني خلقك»(٣) .

ومهما قيل ، فان طريقة المؤلف في تأليفه ، والناقد في نقده ، صورة من نفسه ، ولمعة من هواتف ثقافته ، ونبيء عن علاقات تفكيره . وما يؤمن به من قضايا ، وما يعتريه من محاورات وغير ذلك مما يعتلج في النفس الانسانية .

والمنهج الصوتي الذي استخدمه الخفاجي في دراسته عن سر الفصاحة ، نظرة شمولية في فهم الاتجاه اللغوي ، في تركيب الادب ، وتشكيل النظرات النقدية ، وبناء العمل الادبي ، الذي ينم عن صاحبه ، ولذا فالاصول لسر البيان تعتمد اللسان

---

(١) سر الفصاحة . ص٣ .

(٢) المثل السائر ، ابن الاثير (ـ٦٣٧هـ) ، ١ : ١٧١.

(٣) السابق : ٢ : ٣٤٩ .

واللغة والنظرة الاجتماعية وما يتوافق معها من ميول المتلقي ، ومستوى ما تعارف عليه القوم ـ آنذاك ـ وذلك ان المصطلحات البلاغية التي استعان بها ابن سنان ، والاطار الادبي والنقدي الذي من خلاله اعلن فيه عن هدفه ـ كما تقدم ـ لم يكن ليفصل بين هذه الفروع ، او لم يفكر في عزل التذوق الجمالي في جزيئاته عن النظرة الشمولية ، اذ الاحساس بالحسن البلاغي ، والتذوق الادبي ، يحتاج الى اكثر من معرفة والى غير دلالة ، ولهذا نجد تنوعا في المعلومات ، وتفردا في بعض الموضوعات في كتاب «سر الفصاحة» مما يؤيد نظرة ابن سنان في مفهوم البيان العربي وهي انه لا يقف عند معرفة المصطلح واسمه ، ولا ينتهي الامر باستخدام فرع من فروع العربية دون آخر ، ولا يكون الاثر الادبي مجرد تطابق بين سمات المؤلف وعمله الادبي ، بل الامر يتعدى ذلك الى ابراز الصلة بين العمل الادبي والادوات التي تشكل منها ذلك العمل ، وبين المتفنن وقدرته على استخدام ثقافته ومعارفه ، لان المعرفة لدى الانسان من غير اقتدار على توظيفها واستخدامها ، لا تجدي في مفهوم البيان العربي ، كما ان التشكيل لاي غرض من اغراض الحياة لا ينفعه اي تأطير ، بل لا بد من تفكير في اختيار الكلمة مع المعنى الذي تؤديه ، ثم الكلمة في معناها مع معنى جاراتها ، ثم المعنى مع الموضوع ، وما يقابل ذلك من انسجام بين نفسية المرسل وثقافته وهمومه وغاياته ومقاصده ، وما يأتلف مع المتلقي في الهدف والغاية والمستوى .

هذه قضايا شغلت ابن سنان في كتابه «سر الفصاحة» وهذا ما لحظناه سرا من أسرار البيان فيه .

ولذا تجد الحديث عن الاداة ، والمعنى ، في الافراد والتركيب ، وعن الغرض والمقصد وصلة ذلك بالمجتمع والفرد ، ولكنه يلح على قضية هي في لونين ، لون ادبي وآخر ديني ، وهو لم يرم الى ان يكون كتابه «سر الفصاحة» وجها من وجوه التأليف في الفصاحة او البيان العربي ، لان الشق الاول من عنوانه وهو «سر» ينم عن الاصول الاولى لما هو مشغول به ، والشغل الذي يحوطه هو امر الفصاحة التي زادت في مفهومها على ما شاعت في كتب البلاغيين المتأخرين ، من انها تتصل بالكلمة والكلام والمتكلم ، بل تعدت ذلك الى قسم «الفصاحة» بمعنى البيان والادب والنقد ، والوحدة بينهما في الفهم والتذوق والتطبيق ، واستخدام ما يلزم ذلك من النظرات اللغوية والصرفية والصوتية .

وتنبه ابن سنان الى ان تعدية هذا البيان الى الاخرين يحتاج الى دربة ومران ، وامثلة موضحة ، وشواهد كاشفة ، ولذلك قال : فان الامثلة توضح وتكشف ، وتخرج من اللبس الى البيان ، ومن جانب الابهام الى الافصاح(١) .

ولذلك ربط بين حاجة المؤلف في التفريق بين الكلام المختار وغيره ، الى كتاب «سر الفصاحة» بمنزلة صاحب الذوق والطبع المحتاج الى العروض والنحو(٢) .

فالاصل في المدح والايجاز والاختصار في الكلام ان الالفاظ غير مقصودة في انفسها ، وانما المقصود هو المعاني والاغراض التي احتيج الى العبارة عنها بالكلام ، فصار اللفظ بمنزلة الطريق الى المعاني التي هي مقصودة ، واذا كان طريقان يوصل واحد منهما الى المقصود على سواء في السهولة الا ان احدهما اخصر واقرب من الاخر ، فلا بد ان يكون المحمود منهما هو اخصرهما واقربهما سلوكا الى المقصد (٣) .

وهذا يعني ان بداية الحديث في الالفاظ والمعاني عند ابن سنان لا فصل بينهما ، وانما احدهما ينبيء عن الاخر ، ويعني بالالفاظ ، الالفاظ الفصيحة التي تعارف العرب على صحة اساليبها واستقامتها ، وذلك لان الالفاظ غير الفصيحة تبقى حاملة معاني غير شائعة ، بل محلية في بيئتها ، ولذلك يأتي ابن سنان في مثال من فصيح العرب للتدليل على ما يقول ، اذ يقول : فان تقارب اللفظان في الايجاز وكان احدهما اشد ايضاحا للمعنى كان بمنزلة تساوي الطريقين في القرب وزيادة احدهما بالسهولة ، ومثل هذا قول ابي عبادة :

ولم انس ليلتنا في العناق ولف الصبا بقضيب قضيبا(٤)

والمعاني التي يتحدث عنها ابن سنان ، ليست المعاني القائمة في النفس ، التي تبقى في نفس صاحبها ، انما يقصد ابن سنان المعاني التي تخرج من نفس صاحبها على الفاظ حاملة متمثلة في الاثر الادبي بوجوهه المتنوعة في الوان من القول العربي . والبيان الراقي .

---

(١) سر الفصاحة ، ص٤ .
(٢) سر الفصاحة . ص٨٦ .
(٣) السابق : ٢٠٦ .
(٤) السابق : ص ٢٠٦ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

# المصـــــادر والمراجـــــع


ـ الادب والبلاغـــة .

د. ابراهيم علي أبو الخشب ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

ـ اسس النقد الادبي عند العرب .

د. احمد احمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

ـ الاسلـــوب .

احمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

ـ البديع في نقد الشـعر .

اسامه بن منقذ (ـ٥٣٨هـ) ، تحقيق د. احمد احمد بدوي ، ود. حامد عبـد المجيد ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

ـ البلاغـــة تطور وتاريخ .

د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٥م .

ـ البـــيان العـــربي .

د. بدوي طبانة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

في تاريخ البلاغة العربية .

د. عبدالعزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٠م .

ـ تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها .

احمد مصطفى المراغي ، طبع ـ مصطفى البابي الحلبي واولاده ، مصر ، ١٩٥٠م .

ـ في تاريخ النقد والمذاهب الادبية .

د. محمد طه الحاجري ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢م .

ـ سر الفصاحة .

عبدالله بن سنان الخفاجي (ـ٤٦٦هـ) ، تحقيق ـ عبدالمتعال الصعيدي ، طبع ـ محمد علي صبيح واولاده ، مصر ، ١٩٦٩م .

ـ قضايا النقد الادبي والبلاغة .

د. محمد زكي العشماوي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

ـ كتاب سر الفصاحة لابن سنان ـ دراسة وتحليل .

د. عبدالرازق ابو زيد زايد ، مكتبة الانلجو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

ـ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر .

ضياءالدين بن الاثير (ـ٦٣٧هـ) ، تحقيق : احمد الحوفي ود. بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

ـ ملامح يونانية في الادب العربي .

د. احسان عباس ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ١٩٧٧م .

ـ مناهج بلاغية .

د. احمد مطلوب ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣م .

ـ في النقد والادب .

ايليا حاوي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٠م .

ـ النقد والبلاغة .

د. مهدي علام ، ود. عبدالقادر القط ، ود. مصطفى ناصف ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ( ؟ ) .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

— ٢ —

# الفكرة البيانية

## بين المصطلح والقيمة

تتنامى الفكرة البيانية في ذهن قائلها ، ثم يتفنن صاحبها في وسيلة اعلانها الى الناس ، وبقدر ما يوافق بين مدلول الفكرة ومستوى المتلقي ، تكون الفكرة واضحة ومقبولة ، وبخلاف ذلك تكون غامضة وغير مفيدة .

ولكل فن من فنون القول مصطلحات تتعاون في التوصيل والتواصل بين افراد تلك الفئة التي تشيع بينها .

والمصطلح من غير فكرة ، يكون جهدا من غير نفع ، او يكون نفعه قليلا ، والفكرة من غير مصطلح يعبر عنها ، تبقى حبيسة في الذهن .

والفكرة البيانية ، صورة لاتحاد المصطلح مع قيمته ، ووجهة من وجهات التفكير بين المصطلح ودلالته ، وهذا يرمي الى توحد صورة الكلام ، وشمولية التأثير ، ويفسر معنى التكيف والالتزام .

ليس مفهوم الالتزام ، ان يرتبط في ناحية دون اخرى من مهام الحياة الانسانية، انما يندرج تحت الامور التي تتصل بالفرد الانساني متكيفا مع نفسه ومع ما يحيط به من كائنات اجتماعية وبيئة جامدة ومتحركة ، اتقاء لشرها حتى تطمئن النفس الانسانية وتستقر الحياة الاجتماعية .

ولا يكون هذا التكيف كافيا لجلب الطمأنينة النفسية ، والامن الاجتـــماعي للانسان ، بل لا بد من تكيف اخر هو الصلة السليمة بين العبد وربه .

والنظر المستمر في قضية فكرية او سياسية او اجتماعية او في اي لون من الوان مناشط الحياة المتعددة ، امر ملتزم .

ومفهوم الفكر البلاغي بين المصطلح والقيمة يعتمد دراسة البلاغة عند القدماء ، واستقراء المستوى الثقافي والاتجاه المعرفي عند ابناء العصر ، ثم ابراز الوسيلة التي يتم بها تعدية الفكر البلاغي الى ابناء الجيل الحاضر ، ووصل المعاصرين بتراثـــهم .

وهذا أمر شائع في الدراسات الانسانية ـ قديمها وحديثها ـ ومتعارف عليه في الدرس البلاغي وهذا ما تضمنته الشروح والتقريرات والحواشي ، وكتب التهذيب ، والاختصار ، والايجاز ، والايضاح ، والتلخيص . وكلها تمثل وجها من وجوه التجديد في البلاغة العربية ، وتلك الجهود مرتبطة بمعارف اصحابها ومستوياتهم الثقافية وسلاسل تفكيرهم ، ولذلك كان يسمى بالاتجاه الادبي في التأليف البلاغي ، والاتجاه الفلسفي ، وغير ذلك من تداخل تلك الاتجاهات البلاغية التي تنم عن فكر تجديدي للبلاغة العربية في روافد متنوعة .

والجديد والتجديد لا يكونان في قطع الصلة بالقديم ، والاحتفال بالحديث ، بل من وجوه التجديد في الفكر البلاغي ، عرض الاصول البلاغية من خلال طريقة غير طرائق السابقين ، من تطويل او اختصار ، او استشهاد ، او غير ذلك ، كما ان ذلك يكون في جمع اسس ظاهرة من الظواهر متناثرة في مصادر ومظان متفرقة في الزمان والمكان مثل دراسة القاضي الجرجاني (ـ٣٦٦هـ) الاديب الناقد في كتابه الوساطة ، اذ الكتاب رسالة واحدة مترابطة الافكار ، وان خفي هذا الترابط حينا(١) .

كما ان بث المشاعر النفسية والوجدانية حول اي موقف من مواقف الفكر ، تجديد ، بهذا يكون الاهتمام بظاهرة من الظواهر البلاغية والالحاح على الاخذ بها ، لونا من الوان التجديد . والذي يصف القمر والشمس يتماثل مع ثقافته العصرية ، هو مجدد لان وسيلة الجاهلي في وصفها واداء اللغوي وتشكيلاته البلاغية ، تتنوع عن استخدام الحديث للغة في تراكيبها وتقديمها وتأخيرها وايجازها واطنابها . وان كان القديم والحديث لا يخرجان على التركيب النحوي السليم(٢) .

ومن معاني «البلاغة» التبليغ(٣) ، والتناهي فيه ، أي لا يكفي التبليغ ، بل لا بد له من الانتهاء الى المتلقي والتأثير فيه ، والانجاز لما هو فيه ، ووصف الرجل

---

(١) القاضي الجرجاني الاديب الناقد ، د. محمود السمرة ، ١١٣ ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٦٦م .

(٢) اقصد بذلك القواعد النحوية والبنى الصرفية . اي ان علمي النحو والصرف في وحدة واحدة .

(٣) اساس البلاغة ، الزمخشري (ـ٥٣٨) ، مادة «بلغ» .

بأنه بليغ ، والقول بأنه بليغ والحقيقة ان القول هو البليغ ، وعلى المجاز ارسال كلمة بليغ على «الرجل» ، باعتباره صاحب القول البليغ .

وهذا يوضح ان صفة البلاغة تلحق الرجل اذا تعاطى القول البليـــغ ، ومن هنا تبدأ البلاغة في مفهوم فن القول ،ثم تتمثل في المتفنن المستخدم لهذا القـــول البليـــغ او ذاك .

والتناهي في التبليغ لا يتسنى لاي متكلم ، ولو كان ذلك لكان كلام الطفل مع الرجل الحصيف بلاغة ، وكلام العيـــي مع الفصيح ، بليغا ، وكلام الغبي مع الذكي بليغا ، ولكن هذا لم يكن من البلاغة في شيء .

انما البلاغة التي تلحق الكلام وتحمل معنى التبليغ والتأثير في الاستجابة من المتلقي ، ومن هنا تكون البلاغة قد اقامت التواصل بين المتحدثين ، افرادا وجماعات.

وهذا يفضي الى ان البلاغة لا تكون في الدرس البلاغي ، بل تتمثل في مناشط الحياة المختلفة من حيث التوصيل والتأثير والتأثر .

وينبني على ذلك فهم مقاصد البلاغة في خدمة فروع العربية ، والمعرفـــة الانسانية في نقلها وايصالها ، والحفاظ عليها ، وتقريبها الى اذهان ابناء العصر .

ويقتضي ذلك الاستشهاد بطرائق الادباء والنحويين والمفكرين في نظرية المعرفة على اختلاف فنونها الفلسفية والمنطقية والتاريخية والاجتماعية والتربوية ، وذلك حتى يتحقق مفهوم التواصل والتناهي والتأثير في ساحة التبليغ السليم ، والبلاغة الجديـــدة .

ولا بد لما تقدم من ركائز واصول يقوم عليها ، وهذا يوضح قيمة ما يأتي من تعزيز وتأسيس لمفهوم التجديد في البلاغة العربية ، فان التفكير البلاغي منذ قديـــم الى عصرنا الماثل متواصل الحلقات مترابطها ، حتى يتماثل للمتفنن والمتلقي معنى «البلاغة» في ثوبها الجديد ، ومفهوم التركيب البليغ ، من خلال فروع العربية ، وكتابها الاكبر ، القرآن الكريم ، الذي فيه الاصول البلاغية والاستشهادات التي تربي الذوق ، وتنمي القدرات . غير مغفلة العاطفة او العقل او الوجدان .

وكان البيان القرآني في عرضه للاحكام والتشريع الذي ورد في القرآن الكريم، وما تبعه من تفسير او اقرار في السنة النبوية ، وما شاع بين التابعين وتابعيهم والفقهاء من اصول التجديد في البلاغة ، في العرض او التوضيح او تنزيل الاحكام ومستوى تفكير الافراد والجماعات من خلال المصطلح والقيمة . ولهذا فان الاسلام عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام كامل يتناول الحياة الدنيا كلها ، وما يلزم الانسان مما يتعلق بشؤون الآخرة ، فهو ينظم علاقة الانسان بخالقه ببيان العبادات التي فرضها الله عليه ، والتي ندبها له ليقوم بالفرائض(١)

ما تقدم بحاجة الى وسيلة يعرض من خلالها ، والوسيلة هي العربية ببيانها ونحوها وصرفها ، ومن هنا كان الحفاظ على العربية مطلبا دينيا بالاضافة الى كونه مطلبا قوميا ، وذلك لانها لغة القرآن والحديث وبرعايتها تحفظ الملة وتفهم اسرارها(١) ومن هنا جاء اهتمام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، في قوله : «تعلموا العربية فانها تثبت العقل وتزيد في المروءة»(٢) .

وهذا التعلم لا يكون كيفما اتفق ، وانما بما يدعو المتكلم الى التمكن من صناعة الكلام ، حتى يختار ما يصلح مثالا يحقق به غرضه في ثوب البلاغة(٣) . من غير اغفال للفكر البلاغي في اطار المصطلح والقيمة .

ولما كانت العلوم تعلو وتتضع ، بحسب المعلوم ، فقد تعلقت الهمم بالعلوم الشريفة العالية ، التي اذا اتصف بها الانسان ، زكت نفسه وعظمت مرتبته ، فأعلاها مرتبة العلم بالله(٤) .

وبهذا كان معنى قوله تعالى في ضوء التجديد في البلاغة : (وقل رب زدني علما)، أي : زدني من كلامك ما نزيد علما بك ، فانه قد زاد هنا من العلم(٥) . وكذلك القول

---

(١) الموجز في نشأة النحو ، د. محمد الشاطر احمد ، ص ٧.
(٢) السابق : ص٩ .
(٣) ابن ابي الاصبع المصري بين علماء البلاغة ، د. حفني محمد شرف ، ص١٩٧ .
(٤) الفتوحات المكية : محيى الدين بن عربي ، ٣ : ٧٩ ، تحقيق ـ د. عثمان يحيى .
(٥) الفتوحات المكية : ٣ : ٨٠ .

المشهور : «كأن على رؤوسهم الطير» ، فهي عبارة عن سكونهم وانصاتهم ، لان الطير انما تقع على الساكن ، قال الهذلي :

اذا حلت بنو ليث عكاظـا رأيت على رؤوسهم الغرابـا(١)

ولذلك افتن البلاغيون في الاشباع والايجاز(٢) ، والاشباع بمعنى الاطالة . وتوضيحا لذلك جاء في وصف عمر رضي الله عنه زهيرا : وكان لا يمدح الرجل الا بما فيـه»(٣) .

وهذا ما حدا بالمشتغلين بالعربية الى ان يذكروا ان من سنن العرب ان يسموا المتضادين باسم واحد ، نحو «الجون» للاسود ، و «الجون» للابيض(٤) وهذا ليس عبثا باللغة وافسادا لها ، انما هو تشقيق بياني ، وجهد بلاغي . وهو لون من الوان التجديد في التشكيل البلاغي . ومن خلال ذلك نفهم قوله تعالى : «قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكـم وريشا(٥) ، وهو جل ثناؤه انما انزل الماء ، لكـن اللباس من القطن ، والقطن لا يكون الا بالماء(٦) . ومنه قوله تعالى : (وانزل لكـم من الانعام ثمانية ازواج)(٧) يعني : خلق ، وانما جاز ان يقول انزل ، لان الانعام لا تقوم الا بالنبات ، والنبات لا يقوم الا بالماء ، والله جل ثناؤه ينزل الماء من السماء(٨).

ومن صور الفكر في البلاغة العربية ، ان العرب كانت تسمي الشيء باسم الشيء اذا كان مجاورا له او كان منه بسبب ، ... ومن ذلك تسميتهم السحاب «سماء» والمطر «سماء» وتجاوزوا ذلك الى ان سموا النبت «سماء» ، قال شاعرهم:

---

(١) الفائق في غريـب الحديث ، محمود بن عمر الزمخشري (ـ٥٣٨هـ) ، ١ : ١٣ .
(٢) السابـق : ١ : ١١ .
(٣) السابـق : ١ : ١٤ .
(٤) الصاحبي ، ابن فارس (ـ٣٩٥هـ) ص ١١٧ .
(٥) الآية ٢٦ من سورة الاعراف .
(٦) الصاحبي ، ص١١١ .
(٧) الآيـة ٤ من سورة الزمـر .
(٨) الصاحبـي ، ص١١١ .

اذا نزل السماء بأرض قـــوم رعيناه وان كانوا غضابا(١)

ويتصل الفكر البلاغي ، بالشهادات الاجتماعية ، والتقاليد التي درج عليها العـــرب .

ولذلك فان سبب تسمية العرب اولادها بكلب وقرد ونمر واسد ، هو ان ذهب علماؤنا الى ان العرب كانت اذا ولد لاحدهم ابن ذكر سماه بما يراه ويسمعه مما يتفاءل ، فان راى حجرا اوسمعه تأول فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر(٢) .

وارتبط بما تقدم «باب اجناس الاسماء» وكل ما كان من الاوصاف ابعد من بنية الفعل فهو ابلغ ، لان «الرحمن» ابلغ من «الرحيم» ، لانا نقول : رحم فهو راحـــم ورحيم ، ونقول : قدر فهو قادر وقدير ، واذا قلنا : الرحمن ، فليس هو من «رحم» انما هو من «الرحمة»(٣) .

وتنبه العرب الى ان الامم تشترك في الاصول البلاغية ، وهذه الاصول لا تختلط ، ولكل لغة بلاغة واسس ترتكز عليها ، ولذلك قالوا في باب الاحتجـــاج باللغة العربية : فأما الذي سبيله الاستنباط ، او ما فيه لدلائل العقل مجال ، فان العرب وغيرهم فيه سواء ، لان سائلا لو سأل عن دلالة من دلائل التوحيد او حجة في أصل فقه او فرعه ، لم يكن الاحتجاج فيه بشيء من لغة العرب ، ان كان موضوع ذلك على غير اللغات(٤) . (٩)

ومن هنا اجيز النظر في الحديث عن الفكر في البلاغة العربية ، وذلك لان النحارير ربما ادخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب ، ارادة اللبس والتعنيت(٥) .

---

(١) السابق : ١١٠ بيت الشعر لمعاوية بن مالك .

(٢) السابق : ص١٠٩ .

(٣) الصاحبـــي : ص٩٧ .

(٤) السابـــق : ص٤٩ .

(٥) الصاحبي : ص٤٨ .

ولهذا فان لكل زمان علما (١). ومعنى هذا ان وسائل عرض الفنون بحاجة الى معرفة المستويات الثقافية المعاصرة ، حتى تتعدى من خلالها معارف القدماء وخبراتهم وتقريبهم التراث الى أبناء العصر ، والفكر البلاغي في عرضه بوسيلة ميسورة لابناء الجيل المائل تجديد في البلاغة العربية . ولذلك كان للغريب من الكلام قوم يعرفونه ، ويدركون مدى استغرابنا اليوم من يعرفونه ، قولنا : «عبور» في الناقة ، والعبور من النوق السريعة ، وقال الازهري ، الصلبة (٢) .

والشعر بعض ما اختصت به البلاغة العربية ، اذ الشعر شعر العرب ، وديوانهم ، وحافظ مآثرهم ، ومقيد احسابهم . وللعرب حفظ انساب ، وما يعلم احد من الامم عني بحفظ النسب عناية العرب ، قال الله جل ثناؤه : (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) (٣) ، فهي آية ما عمل بمضمونها غيرهم (٤) .

ومن هنا كان للكلام مراتب في الوضوح والاشكال ، اما واضح الكلام : فالذي يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب . كقول القائل : شربت ماء ، ولقيت اسدا ، وكما جاء في كتاب الله جل ثناؤه من قوله : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) (٥) وكقول النبي صلى الله عليه وسلم : (اذا استيقظ احدكم من نومه فلا يغمس يده الاناء حتى يغسلها ثلاثا» . وكقول الشاعر :

ان يحسدوني فاني غير لائمهم  قبلي من الناس ، اهل الفضل قد حسدوا

وهذا اكثر الكلام واعمه (٦) .

---

(١) السابق : ص٦٦ .

(٢) السابق : ٦٥ .

(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٤) الصاحبي : ص٧٧ .

(٥) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٦) الصاحبي : ص٦٩ .

والذي يشكل في البلاغة انه لا يحد في نفس المخاطب(١) . وربما يعود ذلك في بعض وجوهه الى عدم اقتدار المتفنن على رسم مستوى المتلقي ، او ان العمل الادبي غير مكتمل الاداء اللغوي ، او ان التراكيب غير واضحة او منتظمة بطريقة تنقل المعنى ، كما هو في نفس صاحبه ، او تقريبه من ذهن المتلقي في فكرة واضحة .

وكثرة المشتغلين بالبلاغة العربية في العصر الراهن ، نظروا الى اكثر من ناحية في الفكرة البلاغية فمن ذلك ان المصطلحات أساس للدراسات العلمية ، لانها ترسم معالمها ، وتوضح مبادئها ، والبلاغة العربية من الفنون التي استقرت اصولها وتحددت قواعدها ، واخذت مصطلحاتها معانيها بعد ان عبرت اجيالا كثيرة وشهدت جهودا عظيمة .

والدراسات العامة التي ظهرت لا تمنع من الوقوف على القرن الرابع للهجرة وبحث التيارات النقدية التي وجهت الحياة الادبية ، وهو قرن جدير بالعناية والاهتما م، لانه يمثل ازهى عصور النقد الادبي عند العرب ، ففيه استقرت اصوله وظهرت الدراسات التي قام بها الادباء ،وبلغ النقاد في احكامهم وآرائهم ذروة لم يصل اليها النقد من قبل . بل لم تتجاوزها القرون التي اعقبته الا ما كان من عبد القاهر الجرجاني (ـ٤٧١هـ او ٤٧٣هـ) ، وضياء الدين بن الاثير (ـ٦٣٧هـ)(٢) .

وهذا يعني الوعي البصير لصلة البلاغة بالنقد ، وان التجديد يكون في التعاون بينهما . ولذلك تنبه بعض البلاغيين المحدثين الى ان موضوعات من «علم المعاني» اولى بها الدرس النحوي ، اما انضمامها الى الدرس البلاغي ، فلأن انصراف النحاة كان الى العناية بالاعراب والبناء والعوامل والتقديرات ، مما ابعد النحو عن هدفه وحاله قواعد لا روح فيها(٣) .

---

(١) السابق : ص٧٤ .

(٢) اتجاهات النقد في القرن الرابع للهجرة ، د. احمد مطلوب ص٦ .

(٣) اساليب بلاغية ، د. احمد مطلوب ، ص٦ .

وهذا ما جعل بعض الدراسات البلاغية في العصر الحديث في اطار تجديد البلاغة العربية تعرض الى الحديث عن «مناهج بلاغية» وترسم هذه المناهج صورة واضحة للفكرة البلاغية ، وتطور البحث فيها . وتعطي صورة شاملة للتيارات التي تضافرت على ارساء قواعدها واصولها . من ذلك :

١. النشأة والاهداف .
٢. الفروق والاصوليون .
٣. اللغويون والنحاة .
٤. الشعراء والكتاب .
٥. الفلاسفة والمتكلمون .
٦. الشراح والملخصون .
٧. البديعيات والبديعيون .
٨. المحدثون والمجددون .

واذا كانت لم توضع حدود فاصلة فلأن البلاغيين كانوا جميعا يرجعون الى أصول واحدة ، فتداخلت مناهجهم وتقاربت آراؤهم ، ولكنهم مع ذلك احتفظوا بالسمات العامة التي ميزتهم ، وظلت ثقافتهم تطبع مؤلفاتهم ، فكانت بلاغتهم ومناهجهم التي صورها هذا الكتاب(١) .

والحديث في الفكرة البلاغية يدعو الى ان ننظر في أساليب القرآن الكريم ، ذلك لان القرآن الكريم قد تعرض الى مختلف الشؤون وتوسع فيها احسن التوسع فبحث في الالهيات ومباحث النبوات ، ووضع الاصول في تعاليم الاحكام والسياسات المدنية ، والنظم الاجتماعية ، وقواعد الاخلاق ، وتعرض لامور اخرى تتعلق بالفلكيات والتاريخ ، وقوانين السلم والحرب ، ووصف الموجودات السماوية والارضية ... وتعرض لانواع الامثال .... فلا تجد في القرآن أقل تهافت وتدافع(٢) .

---

(١) مناهج بلاغية ، د. احمد مطلوب ، ص١٠ .
(٢) القرآن فضائله وآثاره في النشأتين . فخري الشيخ سلمان ، ص٩٣ .

وهذا يعني ان التشكيل البلاغي والفكرة فيه يرتبطان بالحياة ومناشطها المتنوعة بالطبيعة من جماد وحيوان ونبات .

وقد احست العرب بهذه الاستقامة في اساليب القرآن ، واستيقنت بذلك بلغاؤهم(١) .

ولذا فان مجمل ما حواه القرآن المجيد ، من تنوع في مضامين الحياة والانسان والكون ، رفد من روافد الفكرة في البلاغة العربية .

وبهذا كانت الدراسات والبحوث حول الصورة الادبية للقرآن(٢) ، لونا من الوان التجديد في البلاغة في العصر الماثل ، وقيل : ان سيطرتنا القاهرة على عبقرية اللغة الجاهلية ، لا تسمح لنا بأن نحكم — عن معرفة — على سمو الاسلوب في القرآن . ومع ذلك فان هناك آية تستحق انتباهنا ، وهي تمدنا في هذه النقطة بمعلومات تاريخية بالغة الاهمية . والحق ان القرآن يؤكد صراحة هذا السمو الذي يقصد به تعجيز العبقرية الادبية في عصره ، فهو يقذف في وجوه معاصريه بهذا التحدي المذهل(٣)

ولذلك كان للقرآن أثر عظيم في تجديد الفكر البلاغي ، ونرى من هذا الصور القرآنية التي احتذاها الشعراء والكتاب والخطباء ، واذا كان الشعراء قد تأثروا بالالفاظ القرآنية واوردوها في اشعارهم ، فان الصور القرآنية اكثر تأثيرا في مخيلتهم ، اذ اننا لا نكاد نجد صورة او تشبيها فنيا في القرآن الكريم الا وقد اخذها الشعراء واستفادوا منها فيتصويرافكارهم ، وآرائهم التي يذهبون اليها ويستوحون آيات من القرآن الكريم فيها تشبيها رائعا اشارة الى مثل او قصة قرآنية(٤) .

---

(١) السابق : ص٩٤ .

(٢) بحوث في القرآن العظيم أحمد مظهر العظمة ص٣ . وانظر : الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي ، ص١٧٥—١٨٠ .

(٣) بحوث في القرآن العظيم ص ٩٤ من مقال للاستاذ مالك بن نبي .

(٤) اثر القرآن في الادب العربي في القرن الاول الهجري ، د. ابتسام مرهون الصفار ، ص٥٤.

ثم ان الخطباء قد استعانوا بالآيات القرآنية في توشيح خطبهم واضفاء الجمال الفني ، وقوة التأثير عليها ، كما انهم استعانوا بالصور البيانية ، والاوصاف التي وردت في القرآن الكريم حين ارادوا التعبير عن معنى مشابه لها ، او التأكيد على معنى من المعاني(١) . ونرى من ذلك كثيرا مما ورد في كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ، وفي كتاب «نهج البلاغة» وغيرهما . قال الله تعالى : (فاعتبروا يا اولي الابصار(٢) وقال تعالى : ان في ذلك لعبرة لمن يخشى(٣) .

وقال بعض الصالحين : اني لاخرج من منزلي فما تقع عيني على شيء الا ولله علي فيه نعمة ، ولي في ذلك عبر(٤) ، ثم قرأ : (ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار(٥).

وهذا الاقتباس بهذه الصورة وجه من وجوه الفكرة في البلاغة العربية ، كما ان التكرار في القصص القرآني لون من الوان التجديد ، وذلك اننا نلاحظ ان القصص الذي تكرر كان تارة يتكرر بجملته ، وتارة اخرى يتكرر جانب او مقطع منه ، وتارة ثالثة يتكرر موضوعه وذلك بأن يذكر جانبا من القصة في سورة ، ويذكر جانبا آخر في سورة اخرى ، فاذا ضمت هذه الجوانب الى بعضها انتجت موضوعا او قصة حول الموضوع(٦) .

وينضاف الى ما تقدم الحوار في القرآن ، واسلوب الحوار معلم من معالم الفكرة في البلاغة ، واذا اردنا الامعان في الحديث عن هذا الجانب وجدنا في طبيعة المعجزات التي كان يقوم بها الانبياء ، دليلا على صحة ما نقول .. اذ اننا نلاحظ ان المعجزة تمثل مركز القمة في العلوم والمعارف التي تنتشر في تلك الازمنة . مما يجعلها المدخل الكبير الذي يدخله النبي الى قلوب الناس وحياتهم ، انطلاقا من شعورهم

---

(١) السابق : ص ٢١٨ .

(٢) الآية ٢ من سورة الحشر .

(٣) الآية ١٣ من سورة آل عمران .

(٤) الاقتباس من القرآن الكريم ، أبو منصور الثعالبي (ـ٤٢٩هـ) ، تحقيق د. ابتسام مرهون الصفار، ص.٢٤ .

(٥) الآية ٤٤ من سورة النور .

(٦) قضايا التكرار في القصص القرآني ، د. القصبي محمود زلط ، (و) .

بتفوقه عليهم فيما يدعونه لانفسهم من علم وخبرة يبلغون به الغاية ... فجاء القرآن قمة تهزم الفصحاء والبلغاء وتتحداهم في الاتيان بسورة من مثله فلم يستطيعوا(١) .

ومن هنا نفهم اسلوب القرآن وفصاحته ونظمه وتركيبه على انه تجديد في فكرة البلاغة العربية ، ولولا ان اسلوب القرآن الكريم جاء على هذا النمط من الاحكام والفصاحة لما انتهى امره الى اكثر ينتهي اليه امر كل كتاب في الارض ، ولما كان له اثره في اولئك العرب ولما احجموا عن معارضته وفيهم اللسن والمقاول(٢) .

وتحليل الظواهر الادبية للشعراء وغيرهم من مجالات التجديد في البلاغة ، ومن ذلك شعر الامام الشافعي (ـ٢٠٤هـ) ، الذي بقي بين ايدينا ، فهو يتميز بالجزالة وصفاء العبارة ، وقوة النسج والايجاز المحكم الذي يجعل بعض ابياته تجرى مجرى الامثال ، والمثل لا يشيع على السنة الناس الا بسبب جمال العبارة ، ورصانة المحتوى ، ودلالته على تجربة انسانية ، كل ذلك في ايجاز رائع وبساطة متناهية فمن ذلك قوله :

ما حك جلدك مثل ظفرك　　فتول أنت جميع امرك

وقوله :

ما طار طير وارتفع　　الا كما طار وقع

وقوله :

نعيب زماننا والعيب فينا　　وما لزماننا عيب سوانا

وقد كتب الشافعي اشعاره في الحكمة والزهد وتأمل احوال الناس في مجتمعه وفي التعبير عن تجاربه الذاتية في الغربة او الصداقة او الغزل(٣) .

---

(١) الحوار في القرآن ، قواعده ، اساليبه ، معطياته ، محمد حسين فضل الله. ص٣٢٢.

(٢) موجز البيان في مباحث القرآن ، كمال الدين الطائي ، ص١٦٢ .

(٣) دراسات في الشعر العربي ، تحليل لظواهر ادبية وشعراء ، د. محمد مصطفى هدارة ، ج٢ : ص٥٧

ويتبع ما تقدم في محيط الفكرة في البلاغة ، ما شاع في النقد العربي القديم من قضايا الشعر والنثر ، ولما كانت لغة الشعر تتسم بالايجاز في عرض المعنى ، والدلالة غير المباشرة في التعبير ، كان حظها من المجاز ، اوفر بكثير من حظ لغة النثر .

وهذا يوضح ، سر تسابق اسلافنا من الشعراء في استعمال صور المجاز وفنونه المختلفة في اشعارهم ، وتفننهم في ذلك(١) .

— ٦ —

لم يقتصر الحديث على الفكرة في البلاغة العربية في العصر الحديث عند الادباء والنقاد والمشتغلين بالبلاغة العربية ، وانما تعدى ذلك الى دراسات المشتغلين بالقرآن الكريم وتفسيره ورد الشبهات من حوله ، ودفع طعن الطاعنين عن حياضه، ونرى من ذلك الحديث الاتي : فتلك الكتب التي اقتصر مؤلفوها على سرد القواعد بعبارة فنية دقيقة بعيدة عن فصاحة اهل اللغة وبيان المتقدمين الواضعين لهذه الفنون ومن بعدهم الى القرن الخامس كالخليل وسيبويه وابي علي وابن جني وعبد القاهر الجرجاني ، حتى صار اوسع الناس علما بهذه الفنون اجهل قراء هذه اللغة بها واعجزهم عن فهم الكلام البليغ منها فضلا عن الاتيان بمثله(٢) .

فان معرفة مكانة القرآن الكريم من الفكرة البلاغية لا يحكمها من الجهة الفنية والذوقية الا من اوتي حظا عظيما من مختار كلام البلغاء : المنظوم منه والمنثور والمرسل والمسجوع ، حتى صار ملكة له وذوقا ، واستعان على فهم فلسفته بمثل كتاب عبدالقاهر والصناعتين لابي هلال العسكري ، والخصائص لابن جني ، واساس البلاغة للزمخشري ، ومغني اللبيب لابن هشام ، فهذه مقدمات الفكرة البلاغية ، ونتيجتها الملكة ، ولها غاية يمكن العلم بها من التاريخ ، وهي ما كان للقرآن الكريم من التأثير في الامة العربية ثم فيمن حذقها من الاعاجم أيضا(٣) .

---

(١) من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم ، د. عثمان موافي ، ص١١٨ .

(٢) شبهات مزعومة حول القرآن الكريم . وردها . محمد الصادق قمحاوي ، ص١٠٣ .

(٣) السابق : ص١٠٤ .

وفهم اسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم ، منحى من مناحي الفكرة في البلاغة ، ذلك لان دراسة هذا الفن والالمام بقواعده ودقائقه من اقوى الوسائل الموصلة الى معرفة سر الاعجاز في القرآن الكريم(١) . كما يتبع ذلك معرفة أسرار التكرار في لغة القرآن ، وذلك ان التكرار في قصص القرآن من اقوى الادلة والبراهين على ان القرآن من عند الله ، لان كلام المخلوقين مهما اوتي من قوة البلاغة وسحر البيان اذا تكرر حصل مع تكراره هجنة في اللفظ ، وملت الاذان سماعه ، واغلقت القلوب ابوابها دونه .

اما القرآن الكريم ، فكلما تكرر ازداد حلاوة في الاسماع ، وتأثيرا في القلوب ، فباين بذلك كلام المخلوقين(٢) .

ولهذا كانت غاية المجددين في فكرة البلاغة العربية في العصر الماثل بين الدراسات القرآنية والبيانية ، ان يقدموا امام الدارسين الضوابط والتعريفات ، ثم اتباع ذلك بالشواهد الادبية من المنظوم والمنثور ، والهدف من وراء ذلك تربية الذوق ، وتهذيب العاطفة والسمو بالبلاغة الى درجة تجعلها محببة الى نفوس الدارسين(٣) .

وهذا ينبىء عن معنى جماليات المضمون والشكل في الاعجاز القرآني ، في تجديد فكرة البلاغة العربية ، والجمال بهذا المعنى يعني المواءمة والتناسق بين المضمون القرآني للمثل الانسانية المرموقة وتناغم حقائق الكون العلمية(٤) التي تكشف للعقل الانساني ما اجمله المضمون القرآني العلمي في دقة وفي وضوح معجزين(٥) .

وشغل فكرة التجديد في البلاغة العربية اصحاب الدراسات الادبية ، فيرى بعضهم ان من الاصول في دراسة النص الادبي ان تلم بالمعاني الثانية له ، او ما

---

(١) اسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم ، د. محمود السيد شيخون ، ص١٢٥ .

(٢) اسرار التكرار في لغة القرآن ، د. محمود السيد شيخون ، ص٨٣ .

(٣) البلاغة الوافية ، د. محمود السيد شيخون . ص٣ .

(٤) ينظر : القرآن ينبوع العلوم والعرفان . علي فكري .

(٥) جماليات المضمون والشكل . د. مصطفى الصاوي الجويني ، ص٧ .

توحي به الالفاظ من دلالات تتجاوز حد التعرف المعجمي على معاني الكلمات ، اذ يجب ان يقف الدارس على كل جزئيات النص للتعرف على ما فيه من ابـــداع في داخله ثم يتبنى معالجة معالمه الخارجية من حيث صلته بصاحبه ومجتمعه ، كما ان عليه ان يستنتج منه ما يمكن ان يكشفه من هذه الدلالات المختلفة . واخيرا يتحول الفن بين ايدينا الى تعبير وجدل وتصوير وجمال يحتاج لاكثر من وقفة(١) .

ولهذا فهم بعض المشتغلين بالادب والنقد والبلاغة ، في العصر الحاضر ، ان الدراسة في لغة الشعر من الوجهة النقدية هو ما يجب ان تكون عليه الصورة الرامزة التي هي لون من الوان التجديد البلاغي ، من ايحاء . ومن وراء هذا الايحاء وعن طريق علاقات متداخلة تستطيع ان تدرك المقصود على شريطة ان يكون لدى القارىء قدرة اخرى تملك ارادة الخلق(٢) .

وبهذا تكون لغة الصورة هي الفن الذي يجسد الفكرة ، وعن طريق الانفعال الصادق يبرز مضمون الصورة وعلى ذلك فمن الممكن القول ان هناك تبادلا عضويا في بناء القصيدة بين شكلها ومضمونها بمعنى ان الانفعال يخلق الصور ، والصور بدورها تبين عن المضمون ، وعلى ذلك فان المضمون يخلق الشكل كما ان الشكل يخلق المضمون وكلاهما يصب في تيار السياق العام للعمل الفني(٣) .

ومن هنا اهتم علماء البيان بالنسق والانسجام ، ومعرفة الفصل والوصل ، وبراعة التخلص في الكلام العربي ، وانها اذا تمت فيه ببراعة ، وحذق فان الجمال الفني يسود التعبير(٤) .

وبهذا الفهم في تجديد الفكر في البلاغة العربية ، عظم علماء البلاغة امر التشبيه،

---

(١) القصيدة العباسية قضايا واتجاهات ، د. عبدالله التطاوي ، ص١٠ .

(٢) دراسة في لغة الشعر رؤيـــة نقدية ، د. رجاء عيد ، ص٤١ .

(٣) السابـــق : ص٤٢ .

(٤) الاعجاز الفني في القرآن ، عمر السلامي ، ص١٥٩ .

لكونه اعلق بالطبع ، والذ للنفس ، وله نفع عظيم في باب الخطابة في المدح والذم والافتخار وغيرها(١) .

ويتابع المشتغلون بالادب العربي الاهتمام بتفسير مفهوم التجديد في الفكر في البلاغة العربية وان لم يصرحوا بذلك ، ويبرز هذا في حديثهم عن الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ، اذ يقولون : لا يأخذ بالظاهر وهو يعرض لآيات الكتاب لتفسيرها ، ولا بمجرد المدلول المحدود للفظ ، يستبطن المعاني ، ويجول جولة من السياق ومع غاية التعبير القرآني وينشد أثره النفسي ، والعقلي ، ويكشف الجاحظ عن اقتدار في اكتشاف اسرار التعبير(٢) .

وهذا الراي في تجديد الفكرة في البلاغة العربية لا يقف عند ما تقدم فان ذلك خلاصة معاناة وممارسة لدرس البلاغة العربية عند قدامى العرب وتعقيباتهم وشروحهم وتلخيصاتهم وتقاريرهم وارشاداتهم وتهذيبهم وتلخيصهم ، مع الاهتمام بنظرات المعاصرين وتوجيهاتهم ونظراتهم ، ولا يكون الحديث حول تجديد فكرة البلاغة ، في اصول البلاغة ، بل يتعدى ذلك الى العلوم المساعدة والموضحة لفن البلاغة ، كما يعرض هذا الرأي الى الشواهد التي توضح التشكيل البلاغي والاهتمام بذلك .

وينبني على هذا الرأي توضيح غاية الفكرة البلاغية في تربية الذوق وتهذيبه ، وفي معرفة المصطلح البلاغي ، وصلة ذلك بالبيان القرآني ، الذي يعرف به الاعجاز البياني للقرآن الكريم .

ونخلص مما تقدم الى ان ما عرض اليه هذا الرأي في تجديد الفكرة في البلاغة العربية ، ينبه الى قيمة معاودة النظر الموضوعي في القضايا البلاغية واتجاهات البلاغيين ، من غير تنكر للقدماء ، او تجاهل للمحدثين ، بل الانصاف هو الرائد ، والحق هو الغاية والمقصد .

---

(١) الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، محمد علي الجرجاني (ـ٧٢٩هـ) ص ١٧١ ، تحقيق ـ د. عبدالقادر حسين .

(٢) دراسات في الادب العربي «العصر العباسي» د. محمد زغلول سلام ، ص٤٨٨ .

لا ينتهي الحديث عن الجديد والتجديد في اي فن من الفنون ، والبلاغة وجه من وجوه الفنون العالية ، ولها تاريخ ونشأة وتدرج ونضوج ، ولها شواهد وامثلة وشروح واهتمام من الدارسين قديما وحديثا من الناحية الادبية واللغوية والنقدية والدينية والفكرية .

وشاع بين الدارسين امر هو ان تكون البلاغة العصرية في اللغة المحكية ، او ما يسمى بالادب الشعبي ، اي ان تدرس البلاغة في نماذج العامية ، ودليل هذه الفئة من الباحثين ان فن القول عند العامة فيه من التعابير والتشكيلات البلاغية ما يخدم الفرد والجماعة ، وفيه من التأثير ما يجعل المتلقي في رضى او نفور ، في قبول او عزوف ، وغير ذلك مما يتطلبه الموقف من هواتف نفسية ، وانماط حضارية، وطمأنينة اجتماعية ، وغرائز مهذبة ، وميول وعادات وتقاليد وغير ذلك من سجايا النفس ودخائل الانسان .

نحن لا ننكر ذلك ، ولكن الامر يعدو هذا الفهم ، اذ ان الموروث في النصوص العامية يخدم فئة من الناس في مرحلة الطفولة والامية وفي اثناء الاحاديث اليومية التي لا تخرج في فهمها ومصطلحاتها عن البيئة التي تعارف اهلها على التعامل بها ، والتكيف من خلالها ، فهما او دفعا لاذى ، او طلبا لفائدة ، او تصويرا لحاجة الى غير ذلك مما هو معروف من اثر لهذه النصوص في الحياة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية .

ولذلك شاع في كل بيئة من الحرف ، الفاظ ومصطلحات لا تكون في غيرها .

أما أن يكون التواصل خارج المعنى الاقليمي للمناذج العامية ، فلا يتمثل الا في لغة مفهومة لدى نسبة عالية من المتلقين ، ومعروفة عند فئة كبيرة من المنشئين والمتفننين . وهذه اللغة في مفهوم التواصل الواسع تتطلب شيوعا ، وهذا الشيوع يستلزم قواعد معروفة في اللغة بين المرسل والمستقبل ، حتى يتم التأثير والتأثر ، وينطبق على اللغة معنى التواصل بين اناس كثيرين وفي مجتمع ممتد في الزمان والمكان في اكثر من فئة .

ويتأتى ذلك من النص الفصيح في النظم او النثر او الشرح او النقد او التوجيه ، ونعني بذلك ان الفنون التي لا تشيع الا في بيئات اقليمية لا تخدم التفكير البلاغي في الاستمرار والشيوع بالقدر الذي تخدمه النصوص الفصيحة ، من ذلك ما شاع في القديم من فنون شعرية غير معربة ، في بيئات محدودة مثل ، الزجل ، والكان كان ، والقوما ، والمواليا وهو برزخ بين هذه الفنون والفنون المعربة ، وهي التي لا يداخلها اللحن ، وهي : الشعر ، والموشح ، والدوبيت(١) .

لو اوردنا امثلة لهذه الفنون غير المعربة ، وحاولنا ان نفهم معناها وتركيبها في غير بيئتها ، لوجدنا من ذلك عنتا شديدا ، وابهاما ما بعده ابهام . واليك النموذج الآتـــي :

مواليـــا رباعـــي :

يا رفقتي انتحل جسمي وحالي حال

جردوا عليا أنا ما أحسن على دى حال

وحبكم لم يزل في خاطري ما حال

ان لم تجوا منزلي والا اخذني الحال(٢) .

قد يكون في هذا المواليا على هذا النسج شيء من اليسر في الفهم ولكنه في الكتابة امر ملبس كما نرى في ( عليـــا ) بدلا من من علي ، باشباع الياء وكلمـــة ( دى ) ، وهي من هذه و ( تجو ) ، وهي من تجيئون .

وان كان المواليا برزخا بين الفنون المعربة وغير المعربة فهو لا يحتمل الاعراب واللحن ، ولكن النظم فيه بالعامية اليق وأحسن(٣) . ولذا لم نعتمده من الفنون التي تحمل استمرار التفكير البلاغي ، واذا كان في دائرة الاعراب دخل مع الفنـــون المعربة ، ومثاله :

---

(١) المواليا . د. رضا محسن القريشي ، ص١ وينظر : ديوان الدوبيت في الشعر العربي في عشـــرة قرون . د. كامل مصطفى الشيبي .

(٢) المواليا : ص٢٨٥ .

(٣) المواليا : د. رضا محسن القريشي . ص١ .

اقسم بمن للسموات العلي فاطر

وما أتانا من الآيات في فاطر

ان الغرام لقلبي والحشا فاطر

واصبحت في الحب صايم ولا فاطر(١)

ومن الفنون التي تقصر في شيوع الفكر البلاغي ، الزجل ، ومثاله ما جاء للشيخ علاءالدين بن مقاتل الحموي . وهذا الزجل الذي سارت به الركبان ، وهو من الجناس اللفظي المقلوب :

| | |
|---|---|
| قلبي معجب تياه | ليس يعشق الا اياه |
| فاز من وقف وحياه | يرصد على محياه |
| بدر السما ويطبع | من رام وصاله يعطب |
| صغير نحير في امره | غزال فهر بشمره |
| ليث الهوى ونمره | فاعجب لصغر عمره |
| ريم ابن عشر واربع | اردى الاسود وارعب(٢) |

يحتاج هذا الزجل في نطقه واستقامة وزنه الى البيئة التي نشأ فيها ، والقوم الذين تعودوا ان تجرى السنتهم به ، واللغة او اللهجة المحكية او المنطوقة غير شائعة وغير ذائعة الا فيما وجدت بينهم من ناس ومكان .

وهناك فنان بغداديان آخران من الشعر غير المعرب ، هما : الكان كان والقوما ، وقد اخترعهما البغاددة في القرن الخامس الهجري ، وشاع استعمالهما في القرن السادس ، فاختص الفن الاول منهما بسرد الحكايات والمحاضرات ، ثم تطور

---

(١) السابق : ص٢٨٥ .

(٢) الزجل . د. رضا محسن القريشي . ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

استعماله فاستخدمه الوعاظ في مخاطبة العامة ، ونصحهم وارشادهم ثم استخدم للتصـــوف .

وقائلـــه يحكـــي :

«كان يا ما كان ، وعلى الله التكـــلان ، كان في قديم الزمان»
ويبدأ القصة او الحكاية .

واختص الفن الثاني بشهر الصوم لايقاظ الصائمين للسحور قبل ان يتميـــز الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر(١) .

ومن نصوص الكان وكان : قول الشيخ بدرالدين الزيتوني : ــ

يـــا مـــن هواهـــا ســـباني  قلبـــي مولـــع بعشـــقك
وأتمكـــن العشـــق منـــي  وذقـــت فيـــه الـــوان
وزاد غرامـــي ووجـــدى  والقلـــب ما عنـــده جلـــد
وكلمـــا صبرتـــه  ألقـــاه بكـــى ولهـــان(٢)

فانظر الى كلمة (أتمكن) وفي الفصيحة (تمكن) ، والى كلمة (الوان) والفصيح ( ألوانـــا ) .

ومن «القوما» قول القاضي شهاب الدين فضل الله العمري .

في ارض مصر عجايـــب
بين الكلـــى والترايب
صبح الوجوه تجلـــى
من تحت نيـــل الذوايب(٣)

(١) الكان كان والقوما . د. رضا محسن القريشي ص٥ .
(٢) السابـــق : ص٨٧ .
(٣) السابـــق : ص١٣٧ .

فتراه قد سهل ما حقه غير التسهيل ، اذ تسهيل الهمزة ، لا يحسن في مثل هذه المواطن عجايب ، ترايب ، ذوايب .

أما النص الفصيح فانك لا تجد من يختلف فيه وعليه وان كان ينطق احيانا بامالة واحيانا اخرى بدونها ولكنك اذا أردت ان تكشف عن اصل الكلمة وبنيتها ، ومعناها ، واشتقاقها وما انتابها من التدرج مع الزمان والاستخدام ، فانك لا تعدم ان ترى المعاجم ، وكتب اللغة والشروح ، والرسائل الخاصة ، والبحوث المستقصية ، أما اذا أردت ان تكشف عن تراكيب اللهجة العامية في مفرداتها وتراكيبها ، فانك مدفوع الى البيئة التي شاعت فيها ، واذا اردت ان تعرف تلك الظاهرة اللهجية ، فانك مضطر الى اللغة الفصيحة ذات الدلالات المتعارفة ببلاغتها وبيانها ، حتى تنقل ما في نفسك الى غيرك .

وشاهدنا على ذلك ، ما كان يشيع في محاضرات اساتذنا عبدالحميد يونس في «الادب الشعبي» اذ لم يلحن فيما يريد ان ينقل لنا من فكر في الادب الشعبي او نظرة ناقدة ، او قضيةبلاغية ، وكان يردد في قاعة «عباس محمود العقاد» بكلية اللغة العربية بجامعة الازهر : «أنا حجة لغوية» ولذا يجب الاهتمام والشرح بالفصيحة حتى ولو كان الامر في مادة الادب الشعبي .

ونعرف مثل هذا فيمن عرضوا للدراسات الشعبية في العصر الماثل من مثل : الاستاذة / نبيلة ابراهيم ، ومن عرض للدراسات اللهجية والعامية ، مثل : الاستاذ رمضان عبد التواب ، والاستاذ عبدالعزيز مطر ، والاستاذ عبده الراجحي ، وغيرهم اذ ان بيانهم وبلاغتهم في العرض هو الوسيلة لاداء التشكيل الادبي والنقدي والفكري واللغوي .

— ٨ —

ننتقل الى معنى الشيوع ومفهوم الاستمرار والاصالة للفكر البلاغي ، في مجال اوسع ، وبين متلقين اكثر ، والفكر البلاغي نمط من انماط الفكر الانساني العام ، ويبتدى اثر ذلك في ضوء اللغة ، اذ لمسة الفكر في اللغة هي المعول عليه في تغيير معاني الكلمات ومفاهيم الالفاظ . وما من كلمة تبقى دائما ذات مدلول او معنى

واحد . والا كان هذا دليلا على اننا لا نتمشى مع مستوى الفكر . والقضية حكم عقلي او ارادي قد عبر عنه باللفظ ، ويمكن ان يتغير معنى كل كلمة فيه تبعا للسياق والمقام ومقتضى الحال(١) .

وهذا يعني ان الشيوع بين فئات كثيرة للفكر البلاغي يحتاج الى معالم تحكمه ، وتعرف به بين الفئات المختلفة ، والسر في ذلك ، المقولة الكبرى في الفكر البلاغي وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته .

ولذا فقد رأينا ان معنى الكلمة الواحدة يتغير حتى عند المتكلم الواحد تبعا لاختلاف المقاصد والظروف ونبرة الكلام . وهذا يؤدي الى تغير في الدلالة طبعا ، وما تغير الدلالة الا اثر من آثار مراعاة المقام(٢) .

ويتبين من هذا قول الامام محمد عبده : اللغة ترجمان الفكر(٣) . فلا غنى لعلماء الاجتماع ولا لارباب السياسة عن دراسة اللغة لمعرفة عقلية الشعوب التي تتكلم بها(٤) .

ويؤدي معنى الفكر البلاغي من خلال اللغة الى مفهوم المعايشة من حديث الرسول الكريم ، من تعلم لغة قوم أمن شرهم (أو مكرهم) ولهذا فمن لم يعايش لغة من اللغات فانه لا يفهم عقلية اهلها(٥) .

وبهذا نفهم تدرج الفكرة البيانية مع الزمان والمكان ، من خلال الحضارة والفن بين الشعب الواحد ، والشعوب المختلفة في الفكر واللغة وما بينها من تأثير وتأثر ومحاكاة .

---

(١) في اللغة والفكر . د. عثمان امين ، ص٢٠ .

(٢) في اللغة والفكر . ص٢٤ .

(٣) مجلة المنار ، السيد رشيد رضا . مجلد ٣ : ٣٠٣ .

(٤) في اللغة والفكر ، ص٢٥ ، نقلا عن فريزر في كتابه «الغصن الذهبي» .

(٥) في اللغة والفكر . ص٢٦ .

ولذلك قيل : ان التعبير برهان الفكر ، وهذا ما ذهب اليه الباحث «جوبير» ، وقد دلل على ان التعبير اختبار الفكر(١) . ونستطيع ان نقول بوجه اعم ان تعبير الانسان عن نفسه ضرب من تحقيق الذات(٢) .

وهذا يعزز صلة الفكر البلاغي والحياة النامية ، ويبرز اثر التجديد في البيان على انه تجديد للحياة ومناشطها المتنوعة ورسم لحياة الافراد والجماعات ، ومحاكاة للنافع من آثار الامم ، والاخذ بالمفيد من القديم في تراث الامة الواحدة ، ولذا فتجديد الفكر البلاغي ، دعوة الى النظر السليم في قضايا الفكر والحياة .

وهذا يعني ان اللغة المكتوبة تيسر لنا التعارف والتفاعل ، فانهم لو عاشوا حياتهم كلها دون استعمال اللغة للتعبير عن انفسهم لما عرفوا لنا ولما وقفنا على حياتهم(٣) .

وبهذا تنعقد الصلة بين الحديث عن التجديد البلاغي والتراث في بيان الامة ولغتها ومراحل تفكيرها ، ونضوجها الحضاري ، ونموها الاجتماعي . وطمأنينتها النفسية وسعادتها في الدارين الدنيا والاخرة .

ومن هنا سوف يظل القرآن هو الآية البيانية الصوتية ، والكونية والعقلية التي جعلها الله دستور هذه الامة منذ كانت ، الى أن ينتهي هذا الخلق الارضي(٤) .

ولذلك نعرف قيمة شيوع الفكر البلاغي ، واستمراره بين الناس ، لان الكم القرآني قد ارتبط بالعربية ارتباطا وثيقا . ويتجلى به كماله اللغوي(٥) .

ولهذا كانت اللغة العربية شغل العربي الشاغل ، فهو يعكف عليها في مواسم الحج متفننا في تصريف القول بها وانتقاء الفاظها ، وصقل اشعارها وحفظ نصوصها،

---

(١) في اللغة والفكر . ص٤١ .

(٢) السابق : ص٤٦ .

(٣) نفسه : ص٥٢ .

(٤) في علم اللغة العام ، د. عبدالصبور شاهين ، ص٢٤٢ .

(٥) السابق : ص ٢٤٢ .

فلقد كان يدرك ان عبقريته وتفوقه ومستقبله ونقاءه في لغته التي انتسب اليها فصار بها عربيا ، اي : مبينا ، وصار من حوله رغم حضاراتهم «عجما» غير مبين(١) .

والقرآن الكريم يحفظ الفكر البلاغي في اللغة العربية وليس العكس من غير الممكن تحقيق نهضة جديدة في هذا الوطن العربي الا على اساس العودة الى لغة القرآن لفظا ومعنى .. وتلاوة وتدبيرا .. ونصا وتطبيقا(٢) .

والعودة البيانية للغة القرآن ، عودة الى تجديد الحياة بطرائقها وفنونها ، ولا يعني هذا ان نفهم المصطلح البلاغي باعتباره لونا من الوان علم البلاغة من البيان او المعاني او البديع ، انما ان ننقل ما في هذا التشكيل البلاغي الى مستوى التفكير الاجتماعي والحضاري ، ونرى الى اي مدى ننتفع بالتجربة التي حملها ، والهموم التي شملته ، والسعادة التي يحوزها .

وهذا الفهم يؤدي الى ان المستوى البياني للقرآن الكريم ، لا يكون في فهم التقسيمات البلاغية ، بل بالاضافة الى ذلك ، اقتدار الانسان على تمثل السلوك الوارد في هذه الانماط البلاغية في القرآن الكريم . وهذا مستوى راق بين فهم التجديد في البلاغة العربية بوصفها مرقاة لكشف مراد الله تعالى في كلامه (القرآن الكريم) ، وبين بلاغات الامم الاخرى التي لا تتصل بالكشف عن مراد الله تعالى في كلامه .

ولهذا فالتجديد في الفكرة في البلاغة العربية ، يتناول ثلاثة انماط :

اولا : في الاطار التشريعي .

ثانيا : في المضمون الشامل لفروع العربية .

ثالثا : في المفهوم الواسع للدراسات الانسانية .

ويدعو هذا المنهج فى تصور الفكرة في البلاغة في ثوبها الجديد الى استخدام المصطلح وتقيمته ، والى الربط بين التشكيل ومادته ، والى التفاعل بين الفن والمجتمع الذي يشيع فيه .

---

(١) في علم اللغة العام ص.٢٥ .

(٢) السابق : ص٢٥٤ ، ٢٥٦ .

ترتيب المسائل في اصولها ، والحديث عن واحدة قبل الاخرى ، امور يتطلبها عرض القضايا حتى لا ينكرها العقل او الذوق ، ولذلك فان ما عرض من ركائز في فكرة البلاغة العربية ، لا يقف عند ما ورد في هذا الحديث ، بل يتعداه الى أمور تتبدى من خلال اهتمام دارس اخر ، او حاجة باحث ثان ، او توجيه مشتغل ثالث ، وهكذا دواليك ، تتنوع جنبات البحث ، ايجازا واطنابا ، بقدر سلاسل التفكير الانساني ، والتدرج الحضاري مع الزمان والمكان ، ولهذا فربما يرى البعض ان ما جاء قد افاد وكفى ، بينما يراه اخرون بحاجة الى معاودة نظر الرأيان كلاهما صحيحان ، اذ الاول وافق ما في نفسه فاستجاب لما ورد والاخر ، طلب زيادة فوجه الى ما يريد ، ويقبل هذا وذاك في ضوء الموضوعية ، والانصاف ، وفي اطار ان الدراسات الانسانية لا تعرف الكلمة الاخيرة ما دامت الحياة تتجدد . وما دام الاسلوب يتنوع بين انسان واخر في اللون الادبي ، فهناك اسلوب في بلاغة الخطابة، وبلاغة النثر ، وبلاغة العقل ، وبلاغة البديهة ، وبلاغة التأويل(١) .

من هنا ربطوا بين الفكرة في البلاغة العربية ، والشعر الذي وصفوه بأنه صياغة وضرب من التصوير(٢) . على ان ذلك اقتدار في الجهد البلاغي ، واحتشاد لاستخدام التشكيل البلاغي في الموطن الصحيح . وبهذا فهم البلاغيون ان العشب البديعي بفنونه المختلفة وجه من وجوه الحسن الذاتي ، وانه اثر بلاغي راق ، لا ذيل في علم البلاغة وتابع(٣) .

ولهذا كان العرب يروون صبيانهم الارجاز ويعلمونهم المناقلات(٤) . وذلك لان الفكرة في البلاغة ، تتمثل في التأثير والنقل ، والاحتكاك ، بفنون الاخرين ، فرادى وجماعات . والتجديد لا يكون في معنى التبديد ، اذ يبقى الاصيل النافع ، ومن هنا حكموا على الامثال بأنها لا تغير(٥) . لان فيها روح قائلها ، وصدق القيمة التي ينقلها ذلك المثل .

---

(١) الامتاع والمؤانسة ، ابو حيان التوحيدي (ـ٤٠٠هـ) ٢ : ١٤٠ ـ ١٤٢ .

(٢) الحيوان ، ابو عثمان الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ٣ : ١٣١ .

(٣) مفتاح السعادة . طاشكبري زاده (ـ ٩٦٨هـ) ، ١ : ٢٠١ ، ٢ : ٩٣ .

(٤) البيان والتبيين ، ابو عثمان الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ١ : ٢٧٢ .

(٥) نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ، الرازي (ـ٦٠٦هـ) ص ٨١ .

والبلاغة في ثوبها الجديد لا تقف عند الفهم الاقليمي للادب ، بل تتعداه الى معنى الاخذ والعطاء ، ولذلك قال الاندلسي في شرح بديعية رفيقه ابن جابر : علوم الادب ستة : اللغة والتصريف والنحو والمعاني ، والبيان والبديع . قال : فالثلاثة الاول لا يستشهد عليها الا بكلام العرب نظما ونثرا ، لان المعتبر فيها ضبط الفاظهم. والعلوم الثلاثة الاخيرة يستشهد عليها بكلام العرب وغيره من المولدين ، لانها راجعة الى المعاني ولا فرق فيها في ذلك بين العرب وغيرهم ، اذ هو أمر راجع الى العقـــل(١) .

ويوضح ذلك قول الزركشي ، حول العلوم ، في انها ثلاثة : علم نضج وما احترق ، وهو : علم البيان والتفسير ، وعلم نضج واحترق ، وهو : علم الفقـــه والحديـــث(٢) .

ولهذا كانت قولة العلماء : وتتبع بلاغة الكلام وجوه اخر سوى المطـــابقة والفصاحة تورث الكلام حسنا ، وهي الانواع المذكورة في علم البديع(٣) .

ويسمو اثر الشعر من خلال الفكر البلاغي ، في تخليد المآثر ، وذكر الحوادث واشاعة الحسنات ، وسل السخائم . وتعزيز فكرة او نزع ضغينة ، فلولا الشعر ما عرف جود حاتم وكعب بن ماحه ، وهرم بن سنان ، واولاد جفنة ، فقد أشـــاد الشعر بذكرهم(٤) .

والتشكيل البلاغي صورة لنفس صاحبه ، واداة للتوصيل والتأثير بين المتفنن صاحب الاثر الادبي والمتلقي الذي يسمع ويناقش وينقد ويوجه او غير ذلك مما يتراءى له في دائرة الفهم والنقد والشرح والتوجيه ، ولهذا شاعت التورية في القرنيـــن السابع والثامن الهجريين ، وكانت من محاسن الشعر تشهد لصاحبها بجلال القدر ،

---

(١) عقود الجمان السيوطي (ـ٩١١هـ) ، ص٣ .

(٢) السابـــق : ص٣ .

(٣) عقود الجمان ، السيوطي (ـ٩١١هـ) ص ٧ .

(٤) المتع في صنعة الشعر ، عبدالكريم النهشلي (ـ٤٠٣هـ) ص٢٦٩ .

وتحل من النفوس محل النور من الرياض والسحر من الحدق المراض ، وتمتزج بالارواح امتزاج الماء بالراح ، للطف معناها ، ودقة اشارتها ، ورقة عبارتها(١) .

وتبين النظرة التطبيقية في فكرة البلاغة العربية ، وظائف فن القول العربي في ابراز معنى التجديد ، ولهذا نرى الاثر والقيمة في الاداء الشعري ، الذي يصف فيه محمد بن شرف القيرواني (ـ٤٦٠هـ) تأثير نظرات الحبيب اذ يقول :

ألحاظكم تجرحنا في الحشـــا ولحظنا يجرحكـــم في الخدود

جرح بجرح فاجعلوا ذا بـــذا فما الذي اوجب جرح الصدود(٢)

ولذا فان الشعر يعكس لنا عقلية الامة التي يظهر فيها ، ويبني فهمهم على النتاج الشعري نفسه ، فيسير شعراء ذلك العصر على طريق واحد ، محافظين على المقاييس الشعرية المعهودة(٣)

ومن هنا عرفوا معنى تأثير العمل الادبي في المتلقين ، وتحدثوا عن علاقـــة الادب بالفرد ، وعلاقته بالجماعة(٤) . ثم جعلوا تنوع الصورة دليلا على مقدرة المؤلف بلاغيا ، وتفننه بيانيا ، ولذلك عدوا الصورة في الادب ، ركنا كبيرا ، وعنصرا جليلا . وذلك لان الادب ، هو : التعبير باسلوب جميل عن عاطفة الاديب ، سواء كان عنصر الفكر هو العنصر البارز ، ام عنصر العاطفة هو الاوضـــح(٥) . ولذلك تنوعت الاساليب بتنوع الفكرة في الاداء البياني ، مع الزمان والمكان(٦) .

ولا يكفي الاداء في مدلول التفكير البلاغي ، بل لا بد للصورة الشعرية ان توحي للمتلقي ، ومن وراء هذا الايحاء وعن طريق علاقات متداخلة ، نستطيع ان ندرك المقصود على شريطة ان يكون لدى القارىء قدرة اخرى ، ارادة الخلق(٧) .

---

(١) زائق التحلية : ص٢٩ .

(٢) ديوان ابن شرف القيرواني ، ص٥١ .

(٣) القيم الروحية في الشعر العربي ، قديمه وحديثه ، د. ثريا عبدالفتاح ملحس ص٥١.

(٤) النقد العربي الحديث ومذاهبه . محمد عبدالمنعم خفاجي ، ص١٨ .

(٥) السابـــق : ص٤٦ .

(٦) ينظـــر : تاريخ الادب في العصر الاموي ، د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، ص١١١ـ١١٦.

(٧) دراســة في لغــة الشعر «رؤية نقدية» ، د. رجاء عيد ، ص٤١ .

والخلق هنا بمعنى ابراز الاثر الادبي ، او العمل الادبي ، عند المتلقي ، بعد بلوغه من المتفنن .

ويشهد بذلك ما نستفيده من دراسة آثار الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ، اذ كثيرا ما نعي على من يعنى باللفظ دون المعنى ، ونصح للادباء باختيار الفاظهم الملائمة للمعاني وللموضوع ، لتتم المشاكلة بين اللفظ والمعنى ... وان القارىء لكتابه الحيوان وكتابه البخلاء ليعجب اشد الاعجاب بهذه الثروة اللغوية والمقدرة البيانية اللتين طوع بهما النثر للتعبير عن هذه المعاني(١) .

وبهذا المفهوم تحدث الاصوليون عن الفكرة في البلاغة العربية ، اذ التشكيل في الاسناد في المصطلح البلاغي ينتج عن الاسناد البلاغي ، والقيمة البيانية للعبارة الادبية والنظم الشعري ، ومن ذلك حديثهم عن المجاز المركب والاسناد العقلي ومثاله :

أشاب الصغير وافنى الكبير  كر الغداة ومر العشي

فان مفردات هذا النوع من المجاز كلها مستعملة في موضوعاتها ، وانما التجوز في اسناد بعضها الى بعض ، وذلك حكم عقلي ، الا ترى ان اشاب والصغير مستعملان في موضوعيهما ، وكذلك افنى والكبير ، لكن اسناد اشاب وافنى الى كر الغداة ومر العشي ، هو الذي وقع فيه التجوز لكونهما مسندين الى الله تعالى في نفس الامر ومثله : انبت الربيع البقل(٢) .

وشايع الصوفية الاصوليين في هذا الفهم ويتبدى ذلك اذا قرانا ادب الصوفية شعرا ونثرا ، وبخاصة شعر ابن الفارض وكلام محيى الدين بن عربي في الفتوحات المكية وجدنا رمزا غريبا ونمطا عجيبا ، وبعدا عن التصريح وايثارا للتلويح ، واعتمادا على الاشارة ، وعلاقات خفية في التجوز بالكلام ، ودرجات بعدية بين المعاني الحقيقية والمعاني اللزومية(٣) .

---

(١) الجاحظ ، د. احمد محمد الحوفي ، ص١٠١ . وانظر البلاغة عند الجاحظ د. احمد مطلوب ص١١٤ ، ١٦٤ .

(٢) الابهاج في شرح المنهاج . علي السبكي (ـ٧٥٦هـ) ، ١ : ٢٩٤.

(٣) الادب في التراث الصوفي ، د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، ص١٨١.

وهذا احساس شفاف في مفهوم الفكرة في البلاغة ، وهو مدلول بين اللغة المعجمية او النمطية والحقيقية ، واللغة في مدلولها الاصطلاحي ، وتشكيلها الاسلوبي ، في اسنادها وتركيبها . وبذلك يكون التفاوت بين بليغ واخر ، وبيان وغيره .

والذين لاحظوا التجديد في الادب في عصر من العصور ، اشاروا الى الفكرة في الاداء ، ومن ذلك الاداء الشعري عند عمر بن ابي ربيعة في غزله ، اذ قالوا : لم يكن من الممكن اذن ان يوجد غزل ابن ابي ربيعة في العصر الجاهلي ، لان الموضوع الذي يستمد منه في صنع هذا الغزل ، وهو المرأة العربية المتحضرة ، لم يكن قد وجد ، فطبيعي الا يوجد الشعر الذي يعبر عنه . ولعل في هذا كله ما يتيح لنا ان نقول ان غزل ابن ابي ربيعة غزل حضري تتضح فيه صفات مجتمع متحضر . اذ لا بد لكل مجتمع من افتراق ، ولكل دان من ثناء ، وتلك عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين (١) .

ويلاحظ مما تقدم ان بعض الدارسين المحدثين يجعلون الضرورة الشعرية لونا من الوان الاسلوب ، ووجها من وجوه البيان ، وذلك ان الضرورة الشعرية مظهر من مظاهر الارادة الشعرية ، يتجلى فيها روح الاديب وفرديته ، بل هي سبيل الى فهم العمل الادبي بأسره باعتباره كلا متكاملا . وهذا المعنى يأتي من الدراسة الاسلوبية للظاهرة اللغوية حيث تنطلق الدراسة من المعالم اللغوية الاساسية في بحث العمل الادبي ومن بينها ما يظهر في العمل الادبي في مواطن الخروج على المستوى العام الذي عليه الاستعمال العادي للغة ، ومن هذه الجهة يأتي بحث الخصائص الاسلوبية التي بها يتفرد العمل الادبي(٢) .

في ضوء هذه الدراسة الاسلوبية ، لا تكون المحسنات البديعية ، جنسا من اجناس التشكيل البلاغي وكفى وانما ينبغي ان يقال انها نمط من انماط التفكير

---

(١) التطور والتجديد في الشعر الاموي ، د. شوقي ضيف ، ص ٢٣٦ .

(٢) الضرورة الشعرية ، السيد ابراهيم محمد ، ص٩ .

العربي يظهر في الشعر والكلام ويفي بمطالب امكن واثبت من مطلب الحاجة الى التحسين البديعي(١) .

ولذلك كان مفهوم بعض المشتغلين باللغة العربية في اطارها الاجتماعي ان للوسيلة التي نستخدمها في مخاطبة الاخرين اثرها الكبير في تحديد الاسلوب والخصائص اللغوية بشكل عام . والمنطلق الاكثر وضوحا في هذا المجال هو منطلق المقابلة بين وسيلتي النقل السمعية والبصرية . اي بين استعمال وسيلة المخاطبة المباشرة وبين استعمال وسيلة الكتابة(٢) .

ويتم ذلك من خلال التوليد والتحويل ؛ وهذا يعني انه بالاضافة الى اخذ التركيب النحوي بعين الاعتبار يتم التركيب الدلالي اعتمادا على معاني المفردات . وهو بالتالي يحتوي من جهة على معجم يسند لكل مفردة معنى اوليا ، ومن جهة اخرى على قواعد اسقاطية تدل على طريقة مزج المعاني المفردة ، التي يتوصل بها الى مدلول الجملة(٣) .

ومهما قيل حول الفكر البلاغي ، فانه يتطلب الروح الناقدة ، والذوق اللماح ، والنية المخلصة ، والثقافة المتنوعة ، والانتفاع بنظرات المهتمين بقضايا البلاغة ومسائلها ، والمشتغلين بفن القول العربي ، والاستفادة من خبرات الامم الاخرى في مناهج البحث والعرض والشرح في الطريقة في اطار الحياة الحضارية الماثلة .

وتتعاون الجهود الانسانية ما بين سابق ولاحق ، وتتسق الدراسات حتى تؤتي ثمارها الى ما هو افضل . والى ما فيه خير للناس . (فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)(٤) .

---

(١) السابق : ص١١٤ .

(٢) اللغة العربية في اطارها الاجتماعي ، مصطفى لطفي ، ص١١٥ .

(٣) اللسانية التوليدية والتحويلية ، د. عادل فاخوري ، ص٥٤ .

(٤) الرعد : ١٧ .

## المصـــــادر والمراجـــــع


- القرآن الكريم .
- الابهاج في شرح المنهاج .

علي بن عبدالكافي السبكي (ـ٧٥٦هـ) ، تحقيق ـ د. شعبان محمد اسماعيل، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٨١م .

- اتجاهات النقد في القرن الرابع للهجرة .

د. احمد مطلوب ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٠م .

- اثر القرآن في الادب العربي في القرن الاول الهجري .

د. ابتسام مرهون الصفار ، مطبعة اليرموك ، بغداد ، ١٩٧٤م .

- الادب في التراث الصوفي .

د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

- اساليب بلاغية .

د. احمد ملطوب ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٠م .

- اسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم .

د. محمود السيد شيخون ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

- اسرار التكرار في لغة القرآن .

**د. محمود السيد شيخون ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٨٣م .**

- اساس البلاغة .

د. محمود السيد شيخون ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٨٣م.

محمود بن عمر الزمخشري (ـ٥٣٨هـ) ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٥م .

— ابن ابي الاصبع المصري بين علماء البلاغة .
د. حفني محمد شرف ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ط١ .

— الاعجاز الفني في القرآن .
عمر السلامي ، نشر — عبدالكريم بنعبد الله ، تونس ، ١٩٨٠م .

— الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة .
محمد بن علي الجرجاني (—٧٢٩هـ) ، تحقيق — د. عبدالقادر حسين ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨١م .

— الاقتباس من القرآن الكريم .
ابو منصور الثعالبي (—٤٢٩هـ) ، تحقيق — د. ابتسام مرهون الصفار ، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٧٥م .

— الامتاع والمؤانسة .
علي بن محمد بن العباس المعروف بالتوحيدي (—٤١٤هـ) ، تصحيح — احمد امين ، واحمد الزين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (؟) .

— بحوث في القرآن .
احمد مظهر العظمة ، مطبوعات جمعية التمدن الاسلامي ، دمشق ، ١٩٦٥م

— البلاغة عند الجاحظ : د. احمد مطلوب ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٣م .

— البلاغـــة الوافية .
د. محمود السيد شيخون ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

— البيان والتبيين .
عمرو بن بحر الجاحظ (—٢٥٥هـ) ، تحقيق — عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٦٠م .

— تاريخ الادب في العصر الاموي .

د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

— التطور والتجديد في الشعر الاموي .

د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط٦ .

— الجاحـــظ .

د. احمد الحوفي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٠م .

— جماليات المضمون والشكل .

د. مصطفى الصاوي الجويني ، منشأة المعارف ، الاسكندريـــة ، ١٩٨٢م.

— الحوار في القرآن ، قواعده ، أساليبه ، معطياته .

محمد حسين فضل‌الله ، الدار الاسلامية ، (؟) ، ١٩٧٩م .

— الحيـــوان .

عمرو بن بحر الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ، تحقيق ، عبدالسلام محمد هارون ، طبع ، مصطفى البابي الحلبي واولاده ، مصر ، ١٩٦٥م .

— دراسات في الادب العربي «العصر العباسي» .

د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، (؟) .

— دراسات في الشعر العربي «تحليل لظواهر ادبية وشعراء» .

د. مصطفى هدارة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٢م .

— دراسة في لغة الشعر «رؤية نقدية» .

د. رجاء عيد ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٧م .

— ديوان الدوبيت في الشعر العربي .

د. كامل مصطفى الشيهي ، منشورات الجامعة الليبية ، ليبيا ، كلية التربية ، ١٩٨٢م .

— ديوان ابن شرف القيرواني .

محمد بن شرف القيرواني (ـــ٤٦٠هـ) ، تحقيق ـــ د. حسن ذكرى حسن ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

— رائق التحلية في فائق التورية .

احمد بن زرقاله (ـــ٧٧٠هـ) ، تحقيق ـــ د. محمد رضوان الدايـــة ، دار الحكمة ، دمشق ، (؟) .

— الزجل في المشرق .

د. رضا محسن القريشي ، منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية، ١٩٧٧م .

— شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردها .

محمد الصادق قمحاوي ، دار الانوار للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٨م.

— الصـــاحبي .

احمد بن فارس (ـــ٣٩٥هـ) ، تحقيق ـــ السيد احمد صقر ، مطبعة عيســـى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

— طوق الحمامة في الالفة والالاف .

محمد بن احمد بن حزم (ـــ٤٥٦هـ) ، تحقيق ـــ حسن كامل الصيرفي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، (؟) .

— الضرورة الشعرية «دراسة اسلوبية» .
السيد ابراهيم محمد ، دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٧٩م .

ـ الظاهرة القرآنية .

مالك بن نبي ، ترجمة د. عبدالصبور شاهين ، دار العروبة ، القاهرة ١٩٦١م.

ـ عقود الجمان في علم المعاني والبيان .

عبدالرحمن السيوطي (ـ٩١١هـ) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ، ١٩٣٩م .

ـ الفائق في غريب الحديث .

محمود بن عمر الزمخشري (ـ٥٣٨هـ) ، تحقيق ـ علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، طبع ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ط٢ .

ـ الفتوحات المكية .

محيى الدين بن عربي (ـ٦٣٨هـ) ، تحقيق ـ د. عثمان يحيى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

ـ في علم اللغة العام .

د. عبدالصبور شاهين . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠م .

ـ في اللغة والفكر .

د. عثمان امين ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

ـ القاضي الجرجاني الاديب الناقد .

د. محمود السمرة ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٦٦م .

ـ القرآن فضائله وآثاره في النشأتين .

فخري الشيخ سلمان ، مطبعة الادب ، النجف ، العراق ، ١٣٨٧هـ .

— القرآن ينبوع العلوم .

علي فكري ، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٥١م .

— القصيدة العباسية «قضايا واتجاهات» .

د. عبدالله التطاوي ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٨١م .

— قضايا التكرار في القصص القرآني .

د. القصبي محمود زلط ، دار الانصار ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

— القيم الروحية في الشعر العربي «قديمه وحديثه» .

د. ثريا عبدالفتاح ملحس ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، (؟) .

— الكان كان والقوما .

د. رضا محسن القريشي ، منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٧م .

— اللسانية التوليدية والتحويلية .

د. عادل فاخوري ، منشورات لبنان الجديد ، بيروت ، ١٩٨٠م .

— اللغة العربية في اطارها الاجتماعي .

مصطفى لطفي ، معهد الانماء العربي ، بيروت ، ١٩٨١م .

— مجلة المنار .

السيد رشيد رضا ، القاهرة .

— مصطلحات بلاغية .

د. احمد مطلوب ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٢م .

ـ مناهج بلاغية .
د. احمد مطلوب ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٣م .

ـ الممتع في صنعة الشعر .
عبدالكريم النهشلي (ـ٤٠٣هـ) ، تحقيق ـ د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٧م .

ـ من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم .
د. عثمان موافي ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٥م .

ـ الموالي ـ ا .
د. رضا محسن القريشي . دار الحرية للطبعة ، بغداد ، ١٩٧٦م .

ـ موجز البيان في مباحث القرآن .
كمال الدين الطائي ، مطبعة ـ سلمان الاعظمي ، بغداد ، ١٩٧١م.

ـ الموجز في نشأة النحو .
د. محمد الشاطر احمد ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

ـ النقد العربي الحديث ومذاهبه .
د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، مكتبة اللكيات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

ـ نهاية الايجاز في دراية الاعجاز .
محمد بن عمر الرازي (ـ٦٠٦هـ) ، مطبعة الاداب والمؤيد ، مصر ، ١٣١٧م.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

- ٣ -

# من خطوات البيان

تنوعت طرائق المفسرين للقرآن الكريم ، حسب ثقافة المفسر وميوله ، واستعداده وقدراته(١) ، وتناولت مناهج المفسرين(٢) ، الوسائل التي توصل مراد الله تعالى من القرآن الكريم الى الناس ، فكانت دعوة هؤلاء المفسرين تتوارد على مناح متعددة .

ارتبطت هذه الاتجاهات ، بمستوى التفكير الذي ساور هؤلاء الباحثين ، كما اتصلت بسلاسل الثقافة لابناء الجيل الذي تعرض عليه تلك الوجهات في تفسير القرآن ، واعلان الحكمة في آيه .

وضم تيار التفسير نشاطات عقلية مختلفة في العمق واليسر ، والفخامة والايجاز ، فكانت التفاسير الطويلة ، والموجزة ، واليسيرة ، لصاحب النظرة العجلى.

واهتم التأثير في دراسات التفسير ، بارساء معالم هذا العلم ، متوسعا في قضايا ، ومسرعا في اخرى ، جاعلا بعض الفصول من صلب التفسير ، وغيرها من حواشي التفسير وفروعه .

تكاتفت جهود اللغويين والادباء والنقاد والبلاغيين والفقهاء والاصوليين ، والعلماء من اهل الصناعات والعلوم على اختلاف انواعها ، على ابراز الاعجاز القرآني ، ولذا تنوعت سبل الاقناع القرآني ، وهذه الدراسة لا تستطيع ان تنوء بهذا التوجيه الكبير من وسائله المتنوعة المترامية . وانما تبعث الحديث عن فصول هي من اصل طرائق التفسير ، من الناحية القرآنية البلاغية . وهذه زاوية من زوايا البحث القرآني البلاغي . في التفسير البياني .

ولذا فان الحديث عن مواضيع التفسير مجملة لها مظانها التي اسبغت الروح العلمية والموضوعية على التوجيه القرآني في مناهج المفسرين ، انما تغنى هذه الدراسة في ابراز معنى التفسير ومناهجه بقدر يعين على تجلية عدة فصول منها :

---

(١) ينظر طبقات المفسرين ، محمد بن علي الداودي (ـ٩٤٥هـ) .

(٢) ينظر : التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي .

١ــ منزلة التفسير البياني بين مناهج التفسير والمفسرين .

٢ــ حقيقة الفاضل والمفضول في القرآن الكريم ، وما قيمة الحديث حول افضلية القرآن .

٣ــ الزيادة التي دارت في كلام العرب وما قيل حولها ، ثم معنى ما قيل في القرآن الكريم .

٤ــ ما قيل في الاختلاف بين المفسرين ، هل هو اختلاف يؤدي الى صدع بين اتجاهات التفسير والمفسرين او يؤدي الى غاية واحدة ؟

٥ــ فصول من التفسير البياني ، حول الاستعارة والكناية والتشبيه ، والتقديم والتأخير والحذف والذكر والجناس والطباق ، وغير ذلك مما يهيىء الباحث الى تلقي مفهوم طرائق التفسير في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغة .

هذا جميعه يوضح ان هذه الدراسة لا تتحدث عن التفسير من الوجهة التاريخية ، ولا تلج باب دراسات التفسير كما يقوم بها دارسو التفسير في مجال التخصص في كليات الشريعة واصول الدين ، ولا تغشى مباحث التفسير في معرفة المكي والمدني ، والحضري والقروي ، والنهاري والليلي ، وسبب النزول ، والجمع والترتيب ، وعدد السور والايات والكلمات والحروف ، والعالي والنازل والمشهور والمتواتر ، والقراءات ، واحكام التجويد ، ومعرفة الغريب والاعراب ، والمحكم والمتشابه ، والعام والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، والمشتبه والعلوم المستنبطة .

مع تقديرنا لقيمة هذه الاسس في دراسة طرائق التفسير ، واهميتها في مباحث المفسرين ومناهجهم ، فان هذه الدراسة «من طرائق التفسير في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية تلح على نشر الوجهة البلاغية من خلال القرآن الكريم ومن القول العربي .

وربما لا يستطيع باحث ان يعلن عن مثل هذه الدراسة كتابة ، الا بعد ان يعايش كتاب الله تعالى ' درسا ، وتعمقا ، وبحثا ومساءلة ، وبعد ان يمهر ادق وسائل البلاغة العربية ، لمدة ليست باليسيرة بل هي طويلة في تاريخ التفكير البلاغي في البحث والتنقيب والصبر على دقائق اسرار ، وملامح القضايا .

ومع ذلك يجب ان يكون العون والتوفيق والتيسير من الله تعالى .

وليست هذه الدراسة بهذا السمت تتميز بما هي عليه ، عن غيرها من دراسات التفسير في اقسام اللغة العربية في الجامعات الاخرى ، انما دراسات التفسير في اقسام اللغة العربية وآدابها ، تميل الى هذا المنحى البلاغي ، وهي كثيرة ، منها :

١ــ البديع في ضوء اساليب القرآن(١) .

٢ــ المعاني في ضوء اساليب القرآن(٢) .

٣ــ البيان في ضوء أساليب القرآن(٣) .

٤ــ المعاني الثانية في الاسلوب القرآني(٤) .

٥ــ الصورة الفنية في المثل القرآني ،دراسة نقدية وبلاغية(٥) .

٦ــ في تفسير سورتي الانفال والنجم(٦) .

٧ــ الاتجاه العقلي في التفسير ، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة(٧).

٨ــ التفسير(٨) .

٩ــ لغة القرآن الكريم في جزء عم(٩) .

---

(١) د. عبدالفتاح لاشين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٩م .

(٢) د. عبدالفتاح لاشين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦م .

(٣) د. عبدالفتاح لاشين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٧م .

(٤) د. فتحي أحمد عامر ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٦م .

(٥) د. محمد حسين علي الصغير ، وزارة الثقافة والاعلام ، العراق ، ١٩٨١م .

(٦) د. علي الجندي ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ١٩٦٧ .

(٧) د. نصر حامد ابو زيد ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٢م .

(٨) د. محسن عبدالحميد ، و د. قحطان عبدالرحمن الدوري ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، العراق ، ١٩٨٠م .

(٩) محمود احمد نحلة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ .

١٠ــ الاعجاز البياني وسائل اني الازرق(١) .

١١ــ التفسير البياني للقرآن الكريم(٢) .

١٢ــ التشبيهات القرآنية والبيئة العربية(٣) .

١٣ــ التعبير الفني في القرآ(٤) .

١٤ــ خصائص التصور الاسلامي ومقوماته(٥) .

١٥ــ مناهــج في التفســير(٦) .

١٦ــ مناهج الاعجاز في نظم القرآن(٧) .

١٧ــ خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم(٨) .

١٨ــ البيــان القــرآني(٩) .

١٩ــ مع القرآن الكريم(١٠) .

٢٠ــ من بلاغة القرآن(١١) .

٢١ــ دراسة ادبية لنصوص من القرآن(١٢) .

---

(١) د. عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١م .

(٢) د. عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف ،مصر ، ١٩٧٧م .

(٣) واجدة مجيد الاطرقجي ، وزارة الثقافة والفنون ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٨م .

(٤) د. بكري شيخ امين ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٣م.

(٥) الاستاذ سيد قطب ، (؟) ، ١٩٦٨م .

(٦) د. مصطفى الصاوي ، الجويني ، منشاة المصارف ، الاسكندرية ، ١٩٧١م .

(٧) د. محمود السيد شيخون . مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

(٨) د. محمد رجب البيومي ، مجمع البحوث الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧١م .

(٩) د. محمد رجب البيومي ، مجمع البحوث الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧١م .

(١٠) د. احمد الحوفي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧١م .

(١١) د. احمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

(١٢) الاستاذ محمد المبارك ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٣م .

تعد هذه الدراسات التي عرضت الى طرائق خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم ، من أبواب الاتجاه البلاغي في دراسة التفسير في اقسام الدراسات العربية، وان مالت في كليات الشريعة الى تبيان الاتجاه التشريعي والفقهي مع عدم اهمالها للتيار البياني . وهذه الدراسات التي مرت لم تكن الموارد جميعها ، وانما اقتصرت على الشائع المتداول منها في اكثر من بلد وفي غير جامعة ، ولاكثر من دارس ، ولكثرة رجوعي اليها في أغلب الدراسات البيانية للتفسير القرآني ، من الوجهة التاريخية او الفنية .

ولم يقف الاهتمام بهذا التيار عند الدراسات بل تعدى ذلك الى الاهتمام بتحقيق التراث البلاغي الذي يبرز الوجهة البيانية من خلال النص القرآني ، ومن ذلك:

١. التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن(١).

٢. البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن(٢) .

٣. الجمان في تشبيهات القرآن(٣) .

وهناك دراسات راوحت بين الاتجاه البلاغي والقرآن الكريم ، منها :

١. القرآن والصورة البيانية(٤) .

٢. اعجاز القرآن البياني(٥) .

---

(١) تاليف : عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني (ـ٦٥١هـ) ، تحقيق ـ د. احمد مطلوب ، و د. خديجة الحديثي ، مطبعة المعاني ، بغداد ١٩٦٤م .

(٢) عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني (ـ٦٥١هـ) ، تحقيق ـ د. خديجة الحديثي ، و د. احمد مطلوب ، مطبعة المعاني ، بغداد ، ١٩٧٤م .

(٣) ابن ناقيا البغدادي (ـ٤٨٥هـ) ، تحقيق د. مصطفى الصاوي الجويني ، منشاة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٤ .

(٤) د. عبدالقادر حسين ، مطبعة الامانة القاهرة ، ١٩٧٥م .

(٥) د. حفني محمد شرف ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

يدعونا الحديث الذي تقدم في اتجاه التفسير البياني الى ابراز قيمة هذا التيار ، وذلـــك ان التفسير التاريخي ، أو الاجتماعي أو النفسي أو الزراعي ، أو العددي او الرياضي يكون في جزء من القرآن الكريم ، اي اما ان يكون : في آية او اكثر ، ولكنه لا ينسحب على حروف القرآن كلها ، وآياته جميعها ، وسوره بشمولها .

انما التفسير البياني ، يتمثل في كل حرف او آية او سورة ، من الف القرآن الى يائه . وهذه فضيلة لا تتخلف ولا في اي موطن من مواطن القرآن الكريم مجتمعا ومتفرقا ، وهذا التفسير البياني مرقاة لفهم الاحكام والتشريع ، اما وجوه التفسير الاخرى فبعضها يقف عند الاتجاه الذي يقصده من غير ان يتعدى الى غيره .

ولذا فان التفسير البياني يتصل بطرائق نظر الباحثين من الوجهات الاخرى المتصلة بمناشط الحياة والوانها .

وهذا يفسر الحاحنا على التفسير البياني ، ويبرز منزلته بين اتجاهات التفسير والمفسرين اذ يبدأ بالوسيلة البيانية وينتهي بتبيان مراد الله في القرآن الكريم .

ومن هنا كان القدامى يوجهون الحديث الى الاتجاه البياني ، حتى انهم ، كانوا يعلنون عن مستوى ثقافتهم واقتدارهم في الكشف عن اسرار القرآن ، بالتحدث عن فصل او اكثر من مسائل البلاغة العربية ومفرداتها التي هي دلائل للاعجاز ، ووسائل للبـــيان القرآني .

ومع ذلك فان اتفق التفسير البياني ومراد الله تعالى ، فبه ونعمت ، والا فالوجه الحقيقي لهذا التفسير يتأوله الدارس حتى لا يخرج عن دائرة الهدايـــة والرضا والعبودية والتوحيد .

ومن خلال ما تقدم نستطيع ان نوضح بعض القضايا التي التبست على بعض الدارسين ، وان كانت واضحة في ذهن اصحابها ، ومن ذلك : الزيادة في القرآن الكريم ، وهل هي كالزيادة في كلام الناس ، اذ معنى الزيادة يجري عليه الحذف في كلام الناس ، وهل يحق هذا في القرآن الكريم ؟

ثم قضية الفاضل والمفضول في سور القرآن وآية ، وهذه الآية فضلها كفضل نصف القرآن او ثلثه ، هل نقرأ هذه الآية ونترك غيرها ، لانها تعدل نصف القرآن او ثلثه .

ثم ان اختلاف وجهات نظر المفسرين ، هل يعني ذلك كما يحصل في فن القول العربي ، ان الاختلاف في التوجيه والتفسير نشاط انساني مطلوب ، وهناك الرد والنقض والرد والاستدراك ، هل تجوز هذه المصطلحات في كلام الله تعالى ؟

ان التفسير البياني يجيب عن هذه التساؤلات من غير كفر او الحاد .

ولذا فان الخلاف بين وجهات نظر المفسرين ، ليست كالخلاف في تفسير الشعر ، او الخطبة او المثل او الحكمة او اي لون من الوان فن القول العربي — قديما او حديثا — والدليل على ذلك ان المنشيء في الكلام العربي يبغي غاية ومقصدا ، وهي اساس البلاغة .. «مراعاة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته» .

ومن هنا يكون التحليل الادبي ، اما لصلاح صاحب النص او لصلاح المتلقي ، وهو المخاطب او المستمع او الناقد .

أما اختلاف المفسرين ، فهو من باب تنوع الوسائل والانتهاء عند غاية واحدة ، الابتداء يكون من النص القرآني والانتهاء عند تفسير هذا النص القرآني ، ولذلك تنوع وجهات التفسير ، غير اختلاف التفسير الادبي ، اذ تفسير القرآن البياني ، يبدأ من جوهر واحد وهو القرآن الكريم وينتهي عند غاية واحدة وهي تبيان ما في القرآن .

أما اختلاف التفسير الادبي فيبدأ بغاية تتفق والنص احيانا (وهي الدراسة الداخلية) او تتفق ونفسية المتلقي ، من مناسبة النص او وظيفته او التزامه .

انما التفسير البياني للقرآن ، تنوع في التفسير والتفكير وتوحد في الغاية والتقدير ، وهو معرفة احكام الله تعالى ، للاقتراب مما يرضيه والابتعاد عما يغضبه.

احصى النحاة ما ورد في القرآن الكريم من كلمات زائدة ، وحصروها في خمسة عشر لفظا(١) . ويعلق الاستاذ احمد بدوي ، على ذلك قائلا : ذلك ما احصاه النحويون من حروف ، قالوا : انها زائدة ، وردت في القرآن ، يعنون بزيادتها انهم لا يستطيعون لها توجيها اعرابيا ، وان كانوا يجدونها قد ادت معاني لا تستفاد من الجملة اذ هي حذفت(٢) .

وهذا ما اشار اليه البلاغيون بالمعنى الحقيقي للالفاظ والمعنى المجازي ، او المعاني الثانية ، والمعاني الاوائل ، اذ المعاني الاوائل هي المعاني التي تبدو من ظاهر الكلام ومن الاستخدام الحقيقي المعجمي اي المعنى النمطي ، والمعاني الثانية او الثواني ، هي التي تدخل دائرة المجاز ، وذلك لسبب التوضيح ، او التجسيم ، او التثبيت ، او اي غاية اخرى مرتبطة بنفسية المتفنن او المتلقي .

ولذلك فالزيادة عند النحويين ، زيادة في كلام الناس ، ولكنهم عندما يعرضون الى هذه الاساليب في كلام الله تعالى ، فانهم يحترزون ، ومن ذلك زيادة «اذ» ويسير الباحثون حول : هل وقوع اذ زائدة حقيقة مسلم بها في الدراسة النحوية ؟ الواقع انها قضية ثار حولها الجدل ، واحتدم النزاع ، وتصارعت الافكار ، ولعل اول من فتح باب هذه القضية امام اللغويين والنحويين ابو عبيدة معمرين المثنى ، فقد ادعى ان اذ تقع زائدة .

ومعنى زيادتها انها لغو لا تحمل معنى ، ولا تعطي بيانا ، ولا تفيد شيئا ، وهذا امر غريب ، وغريب حقا من ابي عبيدة ان يقول ذلك ، لان اذ في اصل وضعها جاءت لمعنى ، ولو حكمنا باسميتها ، وهو الكثير الغالب فانه من الخطأ ان نقول بزيادتها في حالة الاسمية ، لان اقرب تعريف للاسم في النحو : هو اللفظ الدال على معنى ، فكيف اذن يجعلها أبو عبيدة بلا معنى ، وبخاصة في كتاب الله ؟(٣) .

---

(١) انظر تفصيل ذلك ، في «من بلاغة القرآن» د. احمد احمد بدوي ، ص٩٥ ــ ١٠٤ .

(٢) السابق : ٩٧ .

(٣) اسلوب اذ في ضوء الدراسات القرآنية والنحوية ، د. عبدالعال سالم مكرم ، حوليات ، كلية الاداب ــ جامعة الكويت ، ص٤٧ ، ٩٨ ، الرسالة الخامسة عشرة ، ١٩٨٣م .

ولهذا كان رد الزجاج اذ قال : لم يصنع ابو عبيدة في هذا شيئا ، لانه لا يجوز الغاء حرف من كتاب الله تعالى ، ولا يجوز حذف حرف من كتاب الله تعالى من غير ضرورة(١) .

وانكر ابو جعفر الطبري بشدة وقوع اذ زائدة في القرآن الكريم ، وحمل على ابو عبيدة في قوله بذلك . في آية البقرة (واذ قال ربك للملائكة) سورة البقرة الآية (٣٠) .

وفي قوله بذلك ، لان القرآن الكريم لا يوجد فيه كلام زائد ، لان كل كلمة من كلماته تؤدي معنى ، لانها سيقت من اجل هذا المعنى ، فالقول بزيادة بعض الكلمات في القرآن كـ «اذ» لغوب من القول ، وضرب من الهذيان ، ولم يكتف ابو جعفر بالنقد العام ، ولكنه نقد نقدا علميا ، مبينا رأيه في اذ هذه ، وانها جاءت لغرض وسيقت لمعنى ، وسجلت لهدف(٣) .

ويوضح الدكتور عبدالعالم سالم مكرم معنى الزيادة في الدراسات البلاغية ، وهي غيرها في الدراسات القرآنية من حيث التوجيه ، ولكنها شعيرة من شعائر الاعجاز ودقيقة من دقائق البيان ، ولذلك يقول : الواقع هناك آيات قرآنية كثيرة زيدت فيها حروف ، ولا تحتمل التأويل ، لان وجه الزيادة فيها اوضح من ان ينكر واشهر من ان يجحد(٣) .

ويذكر الدكتور عبدالعال نصوصا من القرآن تؤيد قوله في زيادة الباء ، ومن ، واللام ، والواو ، ولا ، وما(٤) .

ويعلق على ذلك قائلا : وبعد ، فهذه نصوص سقتها لاثبت في ضوئها ان حروف الزيادة تقع في القرآن وليس وقوعها اعتباطا او جزافا ، لان الاسلوب يقتضيها ،

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ٢٤/٨ ،وينظر اسلوب اذ ص٤٩ .

(٢) ينظر اسلوب اذ ص٥١ وينظر تفسير القرطبي ٢٢٤/١ .

(٣) ينظر اسلوب اذ ص٥٧ .

(٤) السابق من ص ٥٧ـ٦٠ .

حقا ان زيادتها من مقتضيات المعنى ولكن ، وجودها أيضا من مقتضيات الاسلوب ، وفرق بين المقتضى في مجال المعنى ، والمقتضى في مجال الاسلوب .

وذلك ان الاسلوب هو من نسج العربية ، والعربية لا تنكر مثل هذه الاساليب التي تزاد في الحروف ، ولا نستطيع ان نقول : ان القرآن الكريم جاء على أساليب لم يعرفها العرب ، والا فما الداعي للتحدي ، اذا كان اسلوبه مختلفا ونمطه متباينا ، وطريقته في التعبير على غير نسق تعبيرهم .

ان هذه الحروف زائدة في المعنى ، ولكنها طريقة اسلوبية جرى عليها القرآن الكريم وفق بعض الاساليب العربية الشائعة ، والقرآن من جنس ما يتكلمون ، واسلوبه جار على اساليب ما يقولون ، ومن هنا كان تحديه لهم اتم ، وعجزهم عن مجاراته ابلغ(١) .

ويحترز الدكتور عبدالعال احترازا دقيقا ، اذ يقول : وليس كون «لا» زائدة في نحوى خطاب العرب مما يكون طعنا من الملحدة على كلام الله ، لان كلام الله منزل على لسانهم ، فما كان متعارفا على لسانهم لا يمكن المؤمن به على كتاب الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا(٢) .

ومن هنا كان معرفة اسباب التقدير النحوي في التعريف والتنكير ، بالاضافة الى ذلك ، انما تعرف بالقرائن التي هي من الاحوال والاسلوب والمعاني ، ومن ذلك انما لم ينكر «سلام عيسى» في قوله «والسلام علي يوم ولدت» الآية ٣٣ من سورة مريم ، فانه في قصة دعائه ، الرمز الى ما اشتق منه اسم الله تعالى ، والسلام : اسم من اسمائه ، مشتق من السلامة ، وكل اسم ناديته به متفرض لما يشتق منه ذلك الاسم نحو : يا غفور يا رحيم(٣) .

---

(١) ينظر اسلوب اذ ، ص٦١ .

(٢) السابق : ص٦٢ .

(٣) البرهان في علوم القرآن . محمد بن عبدالله الزركشي (ـ٧٩٤هـ) ٤ : ٩٢ .

وهذه الامور انما تعلم من القرائن والسياق(١) ، كما فهم التعظيم في قوله تعالى : «لاي يوم أجلت» من قوله بعده : (ليوم الفصل وما ادراك ما يوم الفصل) . الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ من سورة فصلت .

درج العلماء في الحديث عن الفاضل والمفضول في القرآن الكريم ، وما هذا وذاك لخلاف في صفة القرآن والفاظه من حيث الافضلية ، انما تتلخص المسألة في ان كلام الله تعالى ليس له افضلية في صفته ، ولكن بالتأويل والتفسير وفهم السامعين اشتمل على جميع انواع المخاطبات ، ولولا تنزله في هذه المواقع لما وصلنا الى فهم شيء منه(٢) .

وقال قوم بالتفضيل لظواهر الاحاديث ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : المفضل راجع الى عظم الاجر ومضاعفة الثواب بحسب انفعالات النفس وخشيتها وتدبرها وتفكرها عند ورود اوصاف العلا(٣) .

ويوجز الرأي في هذه المسألة الزركشي ، قائلا : وقد اختلف الناس في ذلك — هل في القرآن شيء افضل من شيء — ، فذهب الشيخ ابو الحسن الاشعري ، لان الكل كلام الله ، وكذلك اسماؤه تعالى لا تفاضل بينهما(٤) .

وتوضيح ذلك ان كثرة ألوان البيان في سورة دون اخرى ، او كثرة فنون البلاغة في جزء من القرآن دون آخر ، لا يعني ذلك ، ان هناك افضلية في الاسلوب او التركيب ، او الصورة البيانية ، انما يعني ان مستويات المخاطبين تستلزم هذه المعاني وتلك التراكيب في ذلك النسق والسياق دون غيره .

---

(١) البرهان في علوم القرآن . محمد بن عبدالله الزركشي (—٧٩٤هـ) ٤ : ٩٣ .

(٢) البرهان : ١ : ٤٤ .

(٣) السابق : ١ : ٤٣٨ .

(٤) البرهان : ١ : ٤٣٨ ، وينظر الاتقان في علوم القرآن ، عبدالرحمن ، السيوطي (—٩١١هـ) ، ٢ : ١٥٦ ، طبع ، مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥١م .

ومن ذلك ان القرآن في اسلوبه الحقيقي في ذكر الحوادث والقصص ، ومواقف من التاريخ ، لا يعني ان اسلوب المجاز في استخدام الكناية او الاستعارة او التشبيه ، افضل من غيره من اساليب الحقيقة ، انما هي انماط من الاساليب تتفق والمناسبة ، وحال المخاطبين ، ولذلك لا تفهم ان قوله تعالى «واسأل القريـــة» ابلغ وافضل لايجاز الحذف فيها وهي : اسأل أهل القرية ، من قوله تعالى في اسلوبه الحقيقي : «ألم يجدك يتيما فأوى» ، انما لكل آية مناسبة ، ولكل سورة موطن تحسن فيه هذه التراكيب دون تلك ، وهذه المعاني دون غيرها .

ولو حاولنا ان نعيد قراءة هذا المقال من أوله الى آخره بمفرداته ، ومسائله ، لالفيناه يؤيد نظرة الحديث المتريث المنظم عن خطوات البيان في ضوء الدراســات القرآنية والبلاغية ، من غير اقحام مسائل الخلاف التي يضيع في اثنائها جوهــر البحث ، وفي غير تزيد او ايجاز ممل ، يجعل القارىء في حاجة الى استيضاح .

وهذه بادية الخطوات تتلو من زملائنا الدارسين والباحثين ، في الدراســات البلاغية في ضوء النص القرآني وفن المقول العربي .

## المصـــــــادر والمراجـــــــــــع


١. القرآن الكريـــم .

٢. الاتجاه العقلي في التفسير ، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة . د. نصر حامد ابو زيد ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢م .

٣. الاتقان في علوم القرآن

عبدالرحمن السيوطي (ـ٩١١هـ) ، طبع ـ مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥١م .

٤. اسلوب «اذ» في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية .

د. عبدالعال سالم مكرم ، حوليات كلية الاداب ، جامعة الكويت ، الرسالة الخامسة عشرة ، الكويت ، ١٩٨٣م .

٥. الاعجاز البياني للقرآن ورسائل ابن الازرق .

د. عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١م .

٦. الاعجاز في نظم القـــرآن

د. محمود السيد شيخون ، مكتبة الكليات الازهرية القاهرة ، ١٩٧٨م.

٧. اعجاز القرآن البيانـــي .

د. حفني محمد شرف ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠م

٨. البديع في ضوء أساليب القرآن

د. عبدالفتاح لاشين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٩م .

٩. البرهان في علوم القرآن

محمد بن عبدالله الزركشي (ـ٧٩٤هـ) ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط٢ .

١٠. البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن

عبدالواحد الزملكاني (ـ٦٥١هـ) ، تحقيق ـ د. خديجه الحديثي ، و د. احمد مطلوب ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٤م .

١١. البيان في ضوء اساليب القرآن

د. عبدالفتاح لاشين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٧م .

١٢. البيـــان القرآني

د. محمد رجب البيومي ، مجمع البحوث الاسلامية القاهرة ، ١٩٧١م .

١٣. التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن .

عبدالواحد الزملكاني (ـ٦٥١هـ) ، تحقيق ـ د. احمد مطلوب ، و د. خديجه الحديثي ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٤م .

١٤. التشبيهات القرآنية والبيئة العربية .

واجدة مجيد الاطرقجي ، الجمهورية العراقية وزارة الثقافة والفنون ، ١٩٧٨م.

١٥. التعبير الفني في القرآن

د. بكري شيخ امين . دار الشروق ، بيروت ، ١٩٧٣م .

١٦. التفســـــير

د. محسن عبدالحميد ، وقحطان عبدالرحمن الدوري ، وزارة التعليـــم العالي والبحث العلمي ، دار المعرفة ، العراق ، ١٩٨٠م .

١٧. التفسير البياني للقرآن الكريم

د. عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٧م .

١٨. التفسير الكبير

الامام فخرالدين الرازي (ـ٦٠٦هـ) ، دار الكتب العلمية ، طهران ، ط٢ .

١٩. غسير القرطبي ــ الجامع لاحكام القرآن

محمد بن احمد الطبري (ــ٦٧١هـ) ، دار الشعب ، القاهرة ، (؟) .

٢٠. التفسير والمفسرون

محمد حسين الذهبي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦١م .

٢١. الجمان في تشبيهات القرآن

عبدالله ابن ناقيا البغدادي (ــ٤٨٥هـ) ، تحقيق ــ د. مصطفى الصاوي الجويني ، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٧٤م .

٢٢. خصائص التصور الاسلامي ومقوماته .

سيد قطب ، (؟) ، ١٩٦٨م .

٢٣. خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم .

د. محمد رجب البيومي ، مجمع البحوث الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧١م.

٢٤. دراسة ادبية لنصوص من القرآن .

محمد المبارك ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٣م .

٢٥. الصورة الفنية في المثل القرآني «دراسة نقدية وبلاغية»

د. محمد حسين علي الصغير ، وزارة الثقافة والاعلام ، العراق ، ١٩٨١م .

٢٦. طبقات المفسرين .

محمد بن علي الداودي (ــ٩٤٥هـ) ، تحقيق ــ علي محمد عمر ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

٢٧. في تفسير سورتي الانفال والنجم .

د. علي الجندي ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ١٩٦٧م .

٢٨. القرآن والصورة البيانية .

د. عبدالقادر حسين ، مطبعة الامانة ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

٢٩. لغة القرآن الكريم في جزء عم .

محمود احمد نحلة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .

٣٠. مع القرآن الكريم .

د. احمد محمد الحوفي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٣١. المعاني الثانية في الاسلوب القرآني .

د. فتحي احمد عامر ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٦م .

٣٢. المعاني في ضوء اساليب القرآن .

د. عبدالفتاح لاشين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦م .

٣٣. من بلاغة القرآن .

د. احمد احمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

٣٤. مناهج في التفسير

د. مصطفى الصاوي الجويني ، منشأة المعارف ، مصر ، ١٩٧١م .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

— ٤ —

# الفكرة البلاغية

بين

التأثير والتأثر

شغلني حديث الادباء والنقاد والبلاغيين والنحاة ، منذ قديم عن معنى التأثير والتأثر في البيان العربي من لغة او ادب او بلاغة او معاجم ، او تنظيم علوم ، وكنت أقرأ بين الحين والآخر ، عمن ينتصر للاثر اليوناني ويجعله وجه التفوق في لغة العرب، او للاثر الفارسي ، ويميل الى انه سمة العبقرية في الادب العربي ، او الى الاتجاه الهندي ، واثره في تنظير المعاجم العربية .

واقف في بعض الاحايين على حجج الفريق الآخر الذي ينكر تلك الاثار ، ويتطرف في الحكم والتوجيه ، ويثبت الفضيلة كلها للعربية وامتيازها على غيرها من لغات العالم قاطبة .

وفريق ثالث يوافق بين النظرتين ، في ان التأثير والتأثر موجود ، ولكنه بشكل يعين على توضيح الامور ، من غير انكار للجهد العربي ، او للتأثير الاجنبي .

والحقيقة ان الطائفة الاولى التي جعلت سمة العربية في شعرائها وادبائها ولغوييها لاتصالهم بأدب يونان او فارس او الهند ، وتغفل العقلية العربية والقابلية الشخصية عند الاديب العربي او الناقد او اللغوي ، فهذه طائفة متطرفة في الحكم ، ظالمة لشعب عرف في تاريخ الحضارة الانسانية ، والف في سلاسل التفكير بين الامم بما يعين على ابراز الجهد والاعتراف لهم بالفضل .

والطائفة الثانية التي أنكرت جهود الامم الاخرى في البيان العربي وأن العربية تمتاز على باقي لغات الامم قاطبة ، فانها قد جانبت الموضوعية ، وجانفت الحقيقة ، اذ لم تقم دراسات موضوعية للتعرف الى خصائص لغات العالم كافة مقارنة باللغة العربية ، ومع ذلك فأثر اللغات غير العربية واضح في العربية .

والنظرة الاستقصائية ، تؤيد وجود آثار لليونان والهنود والفرس في البيان العربي ، وهذا مبثوث في تضاعيف المؤلفات العربية ، والحديث هنا سيقتصر على البيان العربي ، والبيان هنا بمعنى البلاغة العربية .

وشجعني على ذلك ما رأيته من نقل في البيان والتبيين للجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ، وما ورد من ذلك في كتاب «الصناعتين» لابي هلال العسكري (ـ٣٩٥هـ) ، وما ورد في كتاب «العمدة» لابن رشيق (ـ٤٦٣هـ) ، وما جاء في كتاب «منهاج البلغاء» لحازم

القرطاجني (ـ٦٨٤هـ) ، وغيرها من الكتب العربية التي تحدثت عن البيان العربي، في مفهوم وحدة الادب والنقد والبلاغة .

واغراني في الكتابة ، ما وجدته من حديث للدكتور طه حسين ، في مقدمة كتاب «نقد النثر» المنسوب الى قدامة بن جعفر (ـ٢٣٧هـ)(١) . وما اداره من حديث الدكتور محمد شكري عياد عن اثر ارسطو في البلاغة العربية في تحقيقه لكتاب «ارسطو» في الشعر . وزيادة على ذلك ما افرده الدكتور احسان عباس في كتابه «ملامح يونانية في الادب العربي» .

ذلك كله كان امامي ، وكنت اعاود النظر في هذه الدراسات وتلك النظرات التي شاعت بين الدارسين ، ووجدت من الانصاف ان ابين ما شغلني في بحث بعنوان «من البيان المقارن عند العرب» وذلك لان كلمة المقارنة ارتبطت في اذهان المعاصرين بالادب والنقد ، وما رايت بحثا او عنوانا لكتاب بهذا العنوان وان تضمنت دراسات من سبقني بعض مفردات هذا البحث ، انما الغاية التوجيه الى موضوع المقارنة في البيان العربي وتزداد الدراسات حوله ، كما هي الدراسات في الادب المقارن ، والنقد المقارن .

ولا يقل الموروث البلاغي ، في كثرته وجودته عن الموروث الادبي والنقدي عند العرب ، كما لا تقل المؤثرات بين البلاغة العربية وغيرها من بلاغات الامم ، عما في الادب العربي ونقده ، وما بينه وبين آداب الامم الاخرى ونقدها .

وتنبه القدماء الى معنى المقارنة ، وهي التأثير والتأثر بين البيان العربي ، وغيره من بيان الامم غير العربية ، وعرض الى هذا المصطلح اسامة بن منقذ (ـ٥٣٨هـ) ، في كتابه «البديع» باسم «المناقلة»(٢) وهي ما تعارف عليها المحدثون

---

(١) حققه الاستاذ الدكتور احمد مطلوب والاستاذة الدكتورة خديجه الحديثي ، بعنوان : البرهان في وجوه البيان ، لابي الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، بغداد ، ١٩٦٧م. وكان الدكتور طه حسين وعبدالحميد العبادي ، قد حققاه ، باسم «كتاب نقد النثر» لابي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٤١م .

(٢) ص ٢٦٣ وما بعدها ، تحقيق د. احمد احمد بدوي ، و د. عبدالمجيد عابدين ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، (؟) .

باسم «المقارنة» وهي دراسة الادب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب الخارجة عن نطاق اللغة القومية التي كتب بها(١) .

والبيان المقارن عند العرب ، لا يعرض الى الدراسات الادبية المقارنة ، او الى الدراسات النقدية او الى تدرج الفكرة التاريخية حول ظاهرة او علم ، انما يعنى البيان المقارن عند العرب ، بتلك الرسائل والتوجيهات والاقوال والاشعار التي تبدت فيها الآثار غير العربية في كتب البلاغة العربية القديمة .

وهذا يعنى ابراز علاقات الاتصال في الفكرة البلاغية عند العرب وغيرهم من الامـــم .

والغاية من ذلك ، تحقيق أمر الاصالة في البيان العربي ، والاعتراف بقدرته على التمثل والانتفاع من غير اقحام ، او طمس للشخصية ، او هروب من المشـــاركة في الذوق الانساني ، والتثقيف الاجتماعي ، والامن النفسي . وبهذا نعرف كيف نأخذ من غيرنا ، وماذا نترك ، من غير اهمال للاصول الذاتية ، او التنكر للفكر العربي ، في خضم الثقافات غير العربية .

ومن ذلك اعتراف «دولتشاه» ان للعرب الفصاحة والبلاغة ، وان الفـــرس اتبعوهم في ذلك ، وقد حاكت علوم البلاغة في الفارسية نظيرتها في العربية ، ومن ألف من الفرس في علوم البلاغة لم يزد على ان ترجم قواعد البلاغة العربية القديمة وذكر امثلة فارسية لها ، واقدم ما علمنا من تلك الكتب هو كتاب «فروخي» معاصـــر الفردوسي ، وعنوانه «ترجمان البلاغة» ومن هذه الكتب أيضا كتاب «حديقة السحر» الذي ألفه «وطواط»(٢) .

ومن سمات التأثير والتأثر ، ان حازما القرطاجني هو اول من ادخل نظريات ارسطو وتعرض لتطبيقها في كتب البلاغة العربية الخالصة(٣) .

---

(١) الادب المقارن ، د. محمد غنيمي هلال ، ص٦ ، دار العودة ، بيروت ، ط٥ .

(٢) الادب المقارن . د. محمد غنيمي هلال ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٣) حازم القرطاجني ونظريات ارسطو في الشعر والبلاغة ، د. عبدالرحمن بدوي ، ص٣ ، القاهرة، ١٩٦١م .

وبهذا يدخل حازم في عصب نظرية الشعر الارسطية ، واعني بذلك فكرة «المحاكاة» فيجعل مقياس الشعر الجيد في جودة المحاكاة ، ومقياس الرداءة في رداءة المحاكاة ، ولا يفهم من المحاكاة التقليد الحرفي للطبيعة ، بل تحسين الطبيعة ، لكن بمقدار ، حتى لا يكون الكذب في المحاكاة «شديد الوضوح خادعا النفس عما تستشعره او تعتقده من الكذب»(١) .

واعتمد الادب الفارسي في نشأته على الادب العربي ، واستظل بظله وحاكاه فترة من الزمن طويلة . فمن الطبيعي ان يحاكيه في ضروب بلاغته ... لهذا صارت التشبيهات والاستعارات والكنايات والمجازات والمحسنات اللفظية والمعنوية مثل العربية .

واكثر كتاب الفرس وشعراؤهم من الحلى اللفظية والمعنوية التي اولع بها كتاب العربية وشعراؤها منذ القرن الثالث .

ونقل الفرس اصول البلاغة العربية ومصطلحاتها ، فكانت مؤلفاتهم لا تغاير المؤلفات العربية الا في القليل(٢) .

ومع ذلك كان تميز في بلاغة كل ، وبروز شخصية البيان العربي في فن القول العربي ، وبلاغة الفرس في بيانهم ، وهذا الاتباع والاحتذاء والتأثير والتأثر فيه فضيلة سعة المعاني ، وتنوع المصطلحات ، ولذلك تساءل القدماء ، — وهم محقون في ذلك — من الذي تعرى من الاتباع والاحتذاء ، وسلوك الطريق الذي تقدم اليها غيره من الشعراء ، فلعمري ان الامر على ما ذكرته ، الا انه لا يحمد من الكلام ما كان غابا ، ولا من المعاني ما كان مكررا مرددا . فلا يتسمح الشاعر بأن يكون جمهور شعره عند التصفح مسترقا ملصقا ، ومجموعا ملفقا ، ولا ان يكثر الاعتماد في شعره ، ويتناصر السرق في كلامه . ومن سبيل المحتذى ان يأخذ المعنى دون اللفظ ، ثم ان يطويه ان كان مكشوفا ، ويكشفه ان كان مستورا ، ويحسن العبارة عنه ، ويختار الوزن العذب له حتى يكون بالاسماع عبقا وبالقلوب علقا(٣) .

---

(١) السابق : ص٥ .

(٢) تيارات ثقافية بين العرب والفرس ، د. احمد محمد الحوفي ، ص٢٩٣ ، دار النهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

(٣) الرسالة الموضحة في ذكر سرقات ابي الطيب المتنبي وساقط شعره ، محمد بن الحسن الحاتمي (—٣٨٨هـ) ، ص١٥١ ، ١٥٢ ، تحقيق — د. محمد يوسف نجم : دار صادر ، بيروت ، ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٥م .

هذا يعني ان التأثير والتأثر ، غير السرقة ، والمجاكاة والاحتذاء والاتباع في دائرة المقارنة اذا انتفع بها ادب امة من امة اخرى ، في ضوء حسن العبارة ، والتأثير والانسجام .

ما تقدم يصور معنى المقارنة في البيان العربي مع غيره من بيان الامم الاخرى ، مثل يونان والفرس ، وهذا يفسر معنى التأثير والتأثر في ضوء الاصالة ، وتتضمن الاصالة صفات ، منها : الدقة والصحة والصدق والطبيعة والوضوح ، واذا كانت الاصالة هي الصفة الجوهرية للاسلوب البليغ ، والسمة المميزة للكاتب الحق ، فان الوجازة باجماع الرأي هي حد البلاغة .

واذا كانت الوجازة اصلا في بلاغات اللغات ، فانها في بلاغة العربية اصل وروح وطبع(١) .

ولهذا فان العبارة في اختلاف اللغات ، تعني البيان بالقول ، ويختلف هذا البيان باختلاف الامم وتنوع لغاتها ، وان كانت الاشياء المبين عنها غير مختلفة في ذواتها ، وان منه ظاهرا ، وان منه باطنا وان الظاهر منه غير محتاج الى تفسير ، وان الباطن هو المحتاج الى تفسير(٢) .

وهناك كثير من طرق التعبير عن المواقف المختلفة في الحياة ينتهج نهجا واحدا ، من ذلك التعزي بموت العظماء «حتى هرقل نفسه مات» :

ماذا أؤمل بعد آل محرق  تركوا منازلهم وبعد اياد

وابقراط الطبيب عجز عن ان يدفع الموت عن نفسه :

يموت راعي الضأن في جهله  ميتة جالينوس في طبه(٣)

---

(١) دفاع عن البلاغة ، احمد حسن الزيات ، ص١٠٣ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

(٢) البرهان في وجوه البيان ، ابن وهب ، ص١١١ .

(٣) ملامح يونانية في الادب العربي ، د. احسان عباس ، ص١٨٠ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ١٩٧٧م .

وفي دراسة تاريخية مستقصية حول كتاب ارسطوطاليس في الشعر بين البلاغيين والبلغاء ، تؤكد ان تأثير كتاب الشعر في «منهاج البلغاء» عميق اشد العمق ، وان حازما قد جهد ان ينتفع بهذا الكتاب ، او بالعصور التي عرفها منه ، اعظم الانتفاع(١) .

وفي معنى البيان المقارن عند العرب ، يتبدى مفهوم الفلسفة الجمالية للاقتران بين المعاني ، وفلسفة الجمال في النص الادبي تقوم الى مدى بعيد على ما فيه من التماثل والتناسق والتشابه ، كما ان مراعاة النظير عند البلاغيين يقوم على التماثل او التشابه وعمدة الطباق عندهم التضاد .

ويرجع الجمال في هذه الاشياء الى ما فيها من عمليات عقلية ونفسية تنشأ عن تداعي المعاني وترابطها بصورة ما .

وقد تحدث ارسطو عن «التماثل» وايراد الامثال(٢) .

ولهذا فقد عقد «حازم» بعض الفصول البلاغية التي درس فيها هذه الفنون البديعية ، منتفعا بكل ما كتبه اعلام النقد والبيان العربي قبله ، وبما ذكره ارسطو في هذا المجال(٣) .

ومن صور المقارنة في البيان العربي ، ما دار في الاسطورة ، ومن ذلك ان الشاعر المعاصر في صنعه لاساطيره الخاصة قد ينتهج طرقا مختلفة . فهو قد يرجع الى بعض الاساطير الموروثة يعيد صياغتها ويشكلها تشكيلا جديدا تفقد فيه شخصيتها الاولى لتكتب ملامح تجربته وتحمل صورة نفسه . وهذا ما فعله او ما حاول ان يفعله الشعراء الذين استلهموا الاساطير الاغريقية(٤) .

---

(١) كتاب ارسطوطاليس في الشعر ، نقل ابي بشر القنائي ، ص٢٢٤ ، ترجمة ودراسة ، الدكتور، شكري محمد عياد ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

(٢) مصادر التفكير النقدي والبلاغي عند حازم القرطاجني ، د. منصور عبدالرحمن ، ص٢٥٩ ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

(٣) السابق : ص٢٦٣ .

(٤) الاسطورة الاغريقية في الشعر العربي المعاصر ، ١٩٠٠-١٩٥٠ ، دراسة في الادب المقارن . د. محمد عبدالحي ، ص٩٢ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

وهذا يفسر عدم دعوتنا الى اعادة دراسة الاساطير من وجهة البيان المقارن ، بما هي عليه من الوثنية ، وتأليه الرجال ، والحديث عن انصاف الالهة ، انما حديثنا عن البيان الاسطوري ، باعتباره لونا حضاريا(١) ، واداة من ادوات التشكيل البياني(٢) . وذلك لان هذا التأثير والتأثر يكون من داخل الاسلوب وتأثيراته «والاسلوب هو الانسان نفسه» بهذا عرف بوفون الاسلوب في مقابلة اجراها بين جوهر الافكار المشترك والتعبير الشخصي الذي تتسربله وتظهر به ، والاسلوب كذلك على علاقة دائمة باللغة : انه يحتفظ مثلا بطابع خاص ، ومثلها كذلك ينفصل عن عبقرية شعب تعبر عنه لهجته الخاصة . ومن هذين الرأيين يتضح لنا ان الاسلوب يجب ان يكون من بين جميع عناصر الاثر الادبي ، المادة والصورة ، الاكثر بعدا عن التأثيرات الخارجية(٣) .

وهذا ما شاع في اسلوب ادب الشطار وقصصهم في اسبانيا اذا اثرت المقامات العربية ببيانها ومضمونها في الادب الاوروبي تأثيرا واسعا متنوع الدلالة . فقد غذت هذه المقامات قصص الشطار الاسبانية بنواحيها الفنية وعناصرها ذات الطابع الواقعي ، ثم انتقل التأثير من الادب الاسباني الى سواه من الاداب الاوروبية(٤) .

وبالمقابل فقد استمر الشعر في طليعة الادب العربي منذ مطلع عصر النهضة الى عهد قريب وتعاقبت عليه موجات من تقليد القدماء ، والاقتباس عن الاداب العالمية (٥) .

وهذا التزاوج بين البيان العربي وغيره ، منذ قديم ، وذلك ان اعقبت مرحلة نقل العلوم والفلسفة والفنون في العصر العباسي وما قبله ، مراحل تفسيرها

---

(١) انظر تفصيل ذلك : الاساطير «دراسة حضارية مقارنة ، د. احمد كمال زكي ،، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٥م.

(٢) انظر فن القول ، الاستاذ امين الخولي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٧م.

(٣) الادب المقارن . تأليف : فان تيغم ، ص٧٤ ، تعريب ــ سامي مصباح الحسامي ، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت، (؟) .

(٤) الادب المقارن ، د. محمد غنيمي هلال ، ص٢٢٨ ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢م.

(٥) من الادب المقارن ، نجيب العقيقي ، ج٣ ، ص٨٠ مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م.

وتمحيصها ، ثم التعليق عليها والابتكار منها ، مما جعل اللغة العربية تستوعب التراث الانساني طوال ثلاثة قرون . وعلى اساسه ارست اوروبا نهضتها في العصر الوسيط ، ومن بعده دخل علماؤنا وفلاسفتنا تاريخ الفكر العالمي دخولا فذا(١) .

ما تقدم يوضح ان مقارنة النصوص الدليل الوحيد على وجود تأثير ، فرب قصيدة او دراسة رواية تأثرت قطعا بكتاب اجنبي من نوعها او من نوع آخر ، ثم لا نجد في أحد الكتابين فقرةواحدة تشبه فقرة اخرى في الكتاب الثاني شبها دقيقا . فقد تأثر اللاحق بالسابق ، ولكنه هضمه واحاله الى شيء من ذاته ، ففي هذه الحالة نستطيع ان نقرر وجود التأثير لا بمقارنة النصوص بل بتحليل يتناول العواطف والاسلوب وغير ذلك(٢) .

ويدخل في الحديث عن البيان المقارن عند العرب ، تأثرهم باستخدام الرموز من الاداب الاوروبية في العصر الحديث ، واستخدام الرمز في صورة غير غامضة لون من الوان التشكيل البلاغي عند العرب في الاستعارة والكناية وغيرهما من ضروب المجاز المتنوعة ، وقديما قيل اغلب لغة العرب «مجاز» ولذلك فان مسألة (استخدام الرموز) التي اصبحت ظاهرة من ظواهر الشعر المعاصر ، قد اتضحت بصفة خاصة عند الشعراء المتأثرين بالشعر الاوروبي كشعر «اليوت» . وكلمة الحق في تلك الظاهرة — بناء على ما عرفنا من معيار «الاصالة والتجديد» — هو ان تلك الرموز اذا كانت ترجع الى الرصيد الحضاري الفني العربي ، فانها عنصر تجديدي ناجح ، لانه يعمق الاحساس بما يحمل الرمز من طاقات شعورية او ظلال تاريخية او على الروح والجو العربي .. اما اذا كان مرد الرمز الى رصيد غريب ، فانه يخدم «التجديد» ولكنه يسيء الى «الاصالة» حيث يبدو الشعر ذو الرموز الاجنبية — من اسماء وأماكن واشارات تاريخية او فنية — وكأنه شعر اجنبي مترجم . او على الاقل يبدو وكأن صاحبه يفكر بعقلية غير عربية ، او يحلق بجناحين مستعارين من الشرق او من الغرب(١) .

---

(١) السابق : ج١ : ص٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) الادب المقارن . تاليف فان تيغم ، ص١٢٠ ، ترجمة د. سامي الدروبي ، دار الفكر العربي ، دمشق ، (؟).

(٣) دراسات ادبية ، د. احمد هيكل ، ص٤٢ ، ٤٣ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٠م.

ومؤدى ما تقدم انه لا تعارض بين ان يكون للاديب طابعه الخاص ، وان يقع التجاوب بينه وبين الاخرين . فهناك قدر مشترك من المشاعر الانسانية العميقة . كما ان هناك استعدادا في الكثيرين لان يسموا على طبيعتهم ، ويتطلعوا الى ما فوق رؤوسهم . ومن خصائص الادب الحي ان يمنحنا القدرة على الانفعال به ، ولو كان اسمى من مشاعرنا الخاصة ، لانه لا يستطيع ان يرفعنا اليه لحظات ، وان يخرجنا من قيد اللحظة الحاضرة في حياتنا كذلك ، ويصلنا بنبع الحياة الساري وراء اللحظات المفردة والاحداث المحدودة . ويضيف الى اعمارنا والى ارصدتنا الخاصة من الحياة آمادا وآفاقا اكبر واوسع من حياة الافراد في جيل من الزمان(١) .

ومن الوان التأثير والتأثر ، في البيان المقارن عند العرب ، ما اورده البيروني ، وهو عالم من علماء العرب ، الذي عاش في القرن الرابع الهجري ، وعاش في الهند زمنا طويلا وخبر احوال اهلها ، ووضع في ذلك كتبا اهمها «تحقيق ما للهند من مقولة في العقل او مرذولة» وصف فيه عقائدهم وآدابهم واحوالهم الاجتماعية .

وكان للهنود ولع بالشعر والنظم ووضعوا له بحورا واوزانا عكف البيروني على دراستها وبينها في كتابه(٢) .

ولو لم يكن قابلية للعرب في التأثير والتأثر ، لم يتم الابداع في الصور المتنوعة من التشكيلات البيانية ، والصور البلاغية ، المتناقلة بين البيان العربي ، وغيره من البيان عند الامم الاخرى ، ولذلك ، فان حديث «المناقلة» صورة من صور البيان المقارن عند العرب .

ومن المناقلة التي هي وجه من وجوه البيان المقارن عند العرب ، ما اورده اسامة بن منقذ (ـ٥٣٨هـ) ، بين ارسطا طاليس الحكيم وابي الطيب المتنبي .

---

(١) النقد الادبي ، سيد قطب، ص ٢٨ ، بيروت، (؟) .

(٢) دراسات في الادب المقارن . د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، ج٢ : ١١٦ ، دار الطباعة المحمدية القاهرة ، (؟) .

قال الحكيم : اذا كانت الشهوة فوق القدرة ، كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة .

قال ابو الطيب المتنبي :

واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام

قال الحكيم : الالفاظ المنطقية مضرة بذوي الجهل ، لنبو احساسهم عن ادراكها

قال المتنبي :

بذى الغباوة من انشادها ضرر كما تضر رياح الورد بالجعل(١)

وغاية هذه المناقلة التأثير البلاغي ، والايضاح في البيان ، اذ البلاغة ان يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده من ايجاز بلا اخلال ، واطالة من غير املال(٢) .

ومن هنا كان من وجوه البيان التخييل الذي يتأتى في بعض نماذجه من الشعر ، وذلك لان الشعر انما المراد فيه التخييل(٣) .

ولهذا فان الشاعر يجري مجرى المصور : فكل واحد منهما محاك ، والمصور ينبغي ان يحاكي الشيء الواحد بأحد امور ثلاثة : اما بأمور موجودة في الحقيقة ، واما بأمور يظن انها ستوجد وتظهر ، ولذلك ينبغي ان تكون المحاكاة من الشاعر بمقالة تشتمل على اللغات والمنقولات اي المجازات(٤) .

ولهذا فان مدار الاوصاف — بالنظر الى ما يستساغ ويؤثر — انما هو على ما كان واجبا واقعا ، او ممكنا معتاد الوقوع ، او مقدرة . والممكن لا يخلو من ان تتوفر

---

(١) البديع في نقد الشعر ، اسامة بن منقذ (—٥٣٨هـ) ، ص٢٦٤ . وانظر امثلة اخرى من ص٢٦٤ .

(٢) حسن التوسل الى صناعة الترسل . شهاب‌الدين محمود الحلبي (—٧٢٥هـ) ، ص١٠٢ ، تحقيق — اكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠م .

(٣) الشفاء . الحسين بن عبدالله ابن سينا (—٤٢٨هـ) ، ص٥٤ ، د. عبدالرحمن بدوي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

(٤) السابق : ص٧١ .

فيه دواعي الامكان او ان تقل . وكلما توفرت دواعي الامكان كان الوصف اوقع في النفس وادخل في حيز الصحة ، ولهذا يقال : ممكن قريب وممكن بعيد(١) .

وتوضيح ذلك ما نقله الحسن بن رشيق (ـ٤٦٣هـ) ، عن ارسطاليس في معنى حدود البلاغة والبلغاء اذ قيل لارسطاليس : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاستعارة(٢).

وانتفع العرب بالبيان المقارن عند غيرهم من الامم ـ كما تقدم ـ مثل : يونان ، والفرس والهنود ، ولكن هذا الانتفاع لا يعني النقل الساذج ، وذلك لو لم يكن قابلية عند العربي في الانتفاع بما نقل لجاء هذا التأثير والتأثر صورة من صور الترجمة التي تحكي صورة المنقول عنه ، وانما ما نراه في البيان العربي ، خلاف ذلك اذ التمثل الواضح في التشكيل والتأليف ينم عن ملامح البيان العربي في أخذه واعطائه .

ومن ذلك ما أورده الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ، في معنى البلاغة ، للهندي والفارسي واليوناني ، مقارنا ذلك بما ورد عند العرب ، من معنى البلاغة والبيان ، ولهذا يورد الجاحظ فهم العرب لمعنى البيان ، في أنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع الى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن اي جنس كان الدليل ، لان مدار الامر والغاية التي اليها يجري القائل والسامع ، انما هو الفهم والافهام ، فبأي شيء بلغت الافهام واوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع(٣) .

ويورد الجاحظ بجانب هذا التعريف ، قول صاحب المنطق ، وهو ارسطوطاليس، اذ يقول : حد الانسان الحي الناطق المبين(٤) .

وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الاقسام ، واختيار الكلام .

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجني (ـ٦٨٤هـ) ، ص١٣٣ ، تحقيق ـ محمد الحبيب الخوجة ، تونس ، ١٩٦٦م.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، جـ١ : ٢٤٥ ، تحقيق ـ محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت، (؟) .

(٣) البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ، جـ١ : ص٧٦ .

(٤) السابق : جـ١ : ص٧٧ ، وورد استشهاد بصاحب المنطق جـ١ : ص٦٣ .

وقيل للفارسي ، ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل من الوصل .

وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالـــة .

وقيل للهندي : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاء الفرصة ، وحسن الاشـــارة .

وقال بعض اهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة، ان تدع الافصاح بها الى الكناية عنها ، اذا كان الافصاح اوعر طريقة ، وربما كان الاضراب عنها صفحا ابلغ في الدرك ، واحق بالظفر(١) .

ولتوضيح قيمة الدراسة في البيان المقارن عند العرب وغيرهم ، فقد اورد الجاحظ حديث الصحيفة الهندية في البلاغة ، وهو في هذا يعرض اصول البيان في غير فن القول العربي لينتفع العربي في انشاء بيانه بما يوافق طبعه وعقيدته وسلوكه ومجتمعه ، ولذلك يقول :

قال : معمر ابو الاشعث لبهلة الهندي ما البلاغة عند الهند ، قال بهلة عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ولكن لا احسن ترجمتها لك ، ولم اعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها ، قال أبو الاشعث : فلقيـــت بتلك الصحيفة التراجمة ، فاذا فيها :

اول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . وذلك ان يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير الالفاظ ، لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما ، او فيلسوفا عليما ، ومن قد تعود حذف فضول الكلام ، واسقاط مشتركات الالفاظ ، وقد نظر في صناعة المنطق على

---

(١) البـيان والتبيـــن : ج١ : ص٨٨ .

جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة الاعتراض والتصفح ، وعلى وجه الاستطراف والتظرف ، قال ومن علم حق المعنى ان يكون الاسم له طبقا ، وتلك الحال له وفقا ، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ، ولا مقصرا ، ولا مشتركا ولا متضمنا ، ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره ، في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقا ، ولهول تلك المقامات معاودا(١) .

وهذا الذي اثبته الجاحظ لاسس البيان عند غير العرب ، يتفق في بعض أصوله مع البيان العربي ، ومن ذلك ايراد الجاحظ لصحيفة بشر بن المعتمر (ـ٢١٠هـ) ، عندما مر بابراهيم بن جبلة الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة ، فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عند كشحا ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتتميقة ، وكان اول ذلك :

١. خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك . واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة اكرم جوهرا واشرف حسبا ، واحسن في الاسماع ، واحلى في الصدور واسلم من فاحش الخطأ ، واجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع .

٢ واعلم ان ذلك اجدى عليك مما يعطيك يومك الاطوال بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة .

٣. ومهما اخطأك لم يخطئك ان يكون مقبولا قصدا ، وخفيفا على الانسان سهلا وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

٤. واياك والتوعر ، فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك .

٥. ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما ان تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من اجله ان تكون أسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارهما ، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما(١) .

---

(١) البيان والتبيين : جـ١ : ص١٣٦ .

وينتفع الجاحظ نفسه بهذه المقارنات في طرائق البيان ، اذ يصرح برايه قائلا : اما انا فلم ار قط امثل طريقة في البلاغة من الكتاب ، فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا(١) .

وغاية ما تقدم : ان الحديث في البيان المقارن عند العرب ، من الموضوعات التي خلت منها الدراسات العربية المعاصرة بهذا العنوان ، مع ان معنى المقارنة قد اقترنت بالادب والنقد والفقه واللغة والنحو ، وغير ذلك من المعارف العربية ، والثقافة الانسانية وقد استخدم القدامى من بلاغيي العرب ، هذا المفهوم تحت اسم اخر ، اما «المناقلة» او الاخذ او التأثير والتأثر ، او الاتصال ، او تنوع المعرفة.

ولهذا فان هذه الدراسة تكشف عن بعض جهود القدامى والمحدثين في معنى «البيان المقارن عند العرب» او الفكرة البلاغية بين التأثير والتأثر .

---

(١) نفسه : جـ١ : ١٣٧ .

## المصـــــــادر والمراجـــــــــــع


— الادب المقارن .

فان تيجم ، تعريب — سامي مصباح الحسامي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت (؟) وترجمة اخرى للدكتور سامي الدروبي ، دار الفكر العربي ، دمشق (؟) .

— الادب المقارن .

د. محمد غنيمي هلال ، دار العودة ، بيروت ، طه ، مصورة عن طبعة — مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

— من الادب المقارن .

نجيب العقيقي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

— الاساطير «دراسة حضارية مقارنة» .

د. احمد كمال زكي ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

— الاسطورة الاغريقية في الشعر العربي المعاصر «دراسة في الادب المقارن» .

د. محمد عبدالحي ، دار النهضة العربية القاهرة ، ١٩٧٧م.

— البديع في نقد الشعر .

أسامة بن منقذ (—٥٨٤هـ) تحقيق — د. احمد احمد بدوي ، و د. عبد المجيد عابدين ، وزارة الثقافة والارشاد القومي . القاهرة (؟) .

— البرهان في جوه البيان .

اسحاق بن ابراهيم بن وهب (في القرن الرابع الهجري) ، تحقيق — د. احمد مطلوب ، و د. خديجه الحديثي ، بغداد ، ١٩٦٧م .

— البيان والتبيين

عمرو بن بحر الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) ، تحقيق ـ عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٦٠م .

— تيارات ثقافية بين العرب والفرس .

د. احمد محمد الحوفي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨م

— حازم القرطاجني ونظريات ارسطو في الشعر والبلاغة .

د. عبدالرحمن بدوي ، القاهرة ، ١٩٦١م .

— حسن التوسل الى صناعة الترسل .

شهاب‌الدين محمود الحلبي (ـ٧٢٥هـ) ، تحقيق ـ أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠م .

— دراسات في الادب المقارن .

د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة (؟) .

— دراسات أدبية .

د. احمد هيكل ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٠م .

— دفاع عن البلاغة .

أحمد حسن الزيات ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

— الرسالة الموضحة في ذكر سرقات ابي الطيب المتنبي وساقط شعره .

محمد بن الحسن الحاتمي (ـ٣٨٨هـ) ، تحقيق ـ د. محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٥م .

— الشفاء .

الحسين بن عبدالله ابن سينا (ـ٤٢٨هـ) . تحقيق ـ د. عبدالرحمن بدوي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

— العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .

الحسن بن رشيق القيرواني (ـ٤٦٣هـ) ، تحقيق ـ محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، (؟) .

— فـن القول .

أمين الخولي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٧م .

— كتاب ارسطوطاليس في الشعر .

نقل ابي بشر القنائي ، ترجمة ودراسة ـ د. شكري محمد عياد ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

— كتاب نقد النثر .

المنسوب الى قدامة بن جعفر (ـ٢٣٧هـ) ، تحقيق ـ د. طه حسين وعبد الحميد العبادي ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٤١م . وقد اشرنا الى انه حقق باسم : البرهان في وجوه البيان ، لاسحاق بن وهب الكاتب (في القرن الرابع الهجري) ، من تحقيق د. احمد مطلوب و د. خديجه الحديثي .

— مصادر التفكير النقدي والبلاغي عند حازم القرطاجني .

د. منصور عبدالرحمن ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

— ملامح يونانية في الادب العربي .

د. احسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٧م.

— منهاج البلغاء وسراج الادباء .

حازم القرطاجني (ـ٦٨٤هـ) ، تحقيق ـ محمد الحبيب بن الخوجه ، تونس ، ١٩٦٦م .

— النقد الادبي .

سيد قطب ، بيروت ، (؟) .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

- ٥ -

# من اسلوب الاستعارة

تتآلف جهود الدارسين ، حول ظاهرة ، أدبية أو علمية ، خدمة للانسانية ، وعونا على اشاعة الطمأنينة الاجتماعية ، اضافة الى ذلك ، فان نشر العلم ومدارسته ، واستقصاء البحث فيما ينفع الناس مطلب ديني . في الشريعة الاسلامية.

والاستعارة من الفنون البلاغية التي تدرجت منذ القديم في فن القول العربي ، من الجاهلية ، الى صدر الاسلام ، الى العصر الاموي ، فالعباسي ، ثم ما تلا ذلك من عصور العربية وعلومها .

وليس الامر في معالجة اسلوب الاستعارة باعتبارها لونا من ألوان البيان العربي ، او وجها من وجوه الاعجاز القرآني ، انما الواقع ، ان فهم هذا الاسلوب هو تناميه مع شعور الباحث ، وثقافته ، وسلاسل تفكيره وادواته ، وقديما قالوا : «الاسلوب هو الشخص» .

والناس متفاوتون في الخلق والخلق ، والفروق في العلم والتعلم ، وفي التلقي والارسال ، واضحة بين الناس ، وهذا سر من اسرار قدرة الله تعالى ، في أن التوأمين ، يتشابهان في الخلقة ، ومع ذلك فبينهما تفاوت ، في العبوس والبشاشة وفي الذكاء والغباء في التعامل مع غيرهم من ذويهم وباقي افراد المجتمع .

ولهذا وجدنا هذا الاسلوب للاستعارة ، قد تناولته اغراض متنوعة ، من شعر ، ونثر ، وخطبة ، وحكمة ، ومثل ، وقول . ثم لطوائف متعددة من الادباء والكتاب والنقاد واللغويين ، وغيرهم ممن نحا نحوهم في أسلوبه او شرحه او توجيهه لامر من أمور الكتابة ، او لفن من فنون التعبير .

ولتوضيح ذلك ، نلاحظ ان العرب في الجاهلية قد استعاروا ألفاظا وتراكيب ، وأساليب في غير معناها الاصلي ، وعنايتهم في ذلك التفسير ، او دعوة الناس الى قبول امر ، او تركه ، او تشجيعهم على القيام بعمل دون غيره ، او التحبب الى انسان بما يرضيه ليحرك في نفسه الصبوة ، او يؤلمه بما يحزنه من خبر ، حتى تزداد الغمة عليه ، أو تصوير جو من النعيم والانشراح لاتساع المساحة النفسية وقبول

السعادة من أطرافها . الى غير ذلك ، مما يتناسب وهواجس النفس الانسانية ، ويتهاتف مع مشاعرها ورغباتها المهذبة ، ونوازعها البناءة ، وتجاويفها التي تبعث على الامل ، وتساعد على بناء المستقبل . من ذلك ، ما قاله امرؤ القيس الجاهلي :

طـــال الزمان وملنـــي أهـــلي وشكوت هذا البيـــن من جمل
هـــم اذا ما بـــت أرقنـــي واذا انتبهت فأنتـــم شغلـــي
وتقول جمل قد كبرت وشفك الحدثـــان يا بن الخير بالازل
فلئن هلكت لقد علمت بأننـــي حلو الشمائل ماجـــد الاصـــل
ولرب ماجدة الجدود كريمـــة واصلتها بممتـــع الوصـــــل
راقت فؤادي اذا عرضت لهـــا بدلالهـــا وكلامهـــــا الرتـــل
بيضاء مرتـــج روادفهـــــــا في ريقهـــا كسلافـــة النحـــل
يجلو تبسمها الظـــلام ربحلـــة غراء كالمصباح في الذبـــل(١)

الزمان لا يطول ، وانما هذا كراهية من الشاعر ، لما هو فيه من بين وانقطاع ، او بما يشعر به من قفزات نفسية تضطرم تحت ضلوعه . الهم لا يؤرق وانما اسبابه ودواعيه التي تضني وتهزل وتضعف . وتلك التي راقت فؤاد الشاعر ، لم تكن هي ذاتها ، انما بما أثارته في نفسه من لواعج ، او صبابة ، او نشوة ، وبقدر ما استجاب لها من قرب او محبة ، او بما تراءى له من قبول نحوها ، وائتلاف معها .

ومن هذا قصيدة زهير بن أبي سلمى المزني ، في مدح عظيمي غطفان ، الحارث ابن عوف ، وهرم بن سنان بما تحملاه من ديات ، لحسم الخلاف ، بين قبيلتي عبس وذبيان ، فكان زهير حكيما بتصوير الحرب ، وما تؤول اليه من نتائج في الخـــراب والبيان ، والدمار ، وما تنتجه من ويلات ، وما تلحقه من شرور وضغائن ، واحن .

---

(١) ديوان امرىء القيس ، ص٢٦٢ تحقيق ــ محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨م.

ثم استخدام زهير للاسلوب الاستعاري في قيمة العمل الذي قام به المصلحان ، وما يكون من آثار ذلك في الامن النفسي ، والتدرج الحضاري ، بصوره المتنوعة في نماء وهدوء واستقرار ، وتنوع في ألوان الناس ، من شاعر وناثر وخطيب ، وحامي ذمار ، ومنتج في الرعي او معلم الناشئين ، وغير ذلك مما كانت تتطلبه الحياة ــ انذاك ــ يقول زهير :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما  تبزل ما بين العشيرة من دم(١)

ويلتقي أحيانا الاسلوب الاستعاري مع الحقيقة فيكونان صورة شعرية مؤثرة ، ومن ذلك ما جاء في خبر الصمة ، اذ كان لدريد اخوة وهم عبدالله ، وقيس ، وخالد ، أمهم جميعا ريحانة بنت معد يكرب الزبيدي اخت عمرو بن معد يكرب ، كان الصمة سباها ثم تزوجها فأولدها بنيه ، واياها يعني أخوها عمرو بقوله في شعره :

أمن ريحانة الداعي السميع  يؤرقني واصحابي هجوع

اذا لم تستطع شيئا فدعه  وجاوزه الى ما تستطيع(٢)

والاسلوب الاستعاري في دراسات السابقين ومؤلفاتهم قد حكي ما في نفوسهم من آمال وآلام ، ومحبة وكره ، وعرض لقضايا اجتماعية ، وهموم نفسية ، ومن ذلك شعر لمعن بن أوس المزني ، اذ يقول :

وأي أخ تبلو فتحمد أمره  اذا لج خصم أو نبا بك منزل

اذا أنت لم تنصف أخاك وجدته  على طرف الهجران ان كان يعقل

ستقطع في الدنيا اذا ما قطعتني  يمينك فانظر اي كف تبدل

اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد  اليه بوجه آخر الدهر تقبل(٣)

---

(١) الاغاني : ابو الفرج الاصفهاني (ــ٣٥٦هـ) مجلد ١٠ ص٣٧٥٧ ، تحقيق ــ ابراهيم الابياري ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية .

(٢) الاغاني : مجلد ١٠ ص ٣٤٦٨.

(٣) السابق : مجلد ١١ ، ص٤٢١٩ .

والاسلوب الاستعاري ، من التشكيلات الادبية التي يطلبها المحزون ساعة حزنه ، فتحمل تلك التشكيلات الاستعارية من همومه واحزانه ، ما يفرج عنه ، ويسري عن قلبه ، ويقلل من كمده ، ومن ذلك رثاء اسماعيل بن عمار لابنه معن ، اذ يقـــول :

| | |
|---|---|
| يا مـــوت مالك مولعـــا بضراري | اني عليك وان صيـــرت لزاري |
| تعدو علي كأنني لـــك واتـــــر | وأؤول منـــك كما يؤول فـــراري |
| نفس البعيد اذا أردت قريبـــة | ليست بناجيـــة مع الاقـــــدار |
| والمرء سوف وان تطاول عمـــره | يوما يصيـــر لحفـــرة الحفـــــار |
| لما غـــلا عظـــم بـــه فكأنـــــه | من حسن بنيتـــه قضيب نضـــار |
| فجعتنـــي باعـــز أهلـــي كلـــهم | تعـــدو عليـــه عدوة الجبـــــار |
| هلا بنفسي او ببعض قرابتـــــي | أوقعـــت او ما كنت للمختـــــار |
| وتركت زينتـــي التي من أجلهـــا | عفت الجهاد وصرت في الامصار(١) |

عرف العرب هذا النمط من الاسلوب الاستعاري في الشعر ، كما عرفوه في النثر ، مثل : الحكم والامثال ، وهي في استخدامها الاول تكون حقيقة ، وهذه تسمى المورد للحكمة او المثل ، وعندما تستخدم في مقام مشابه لاستخدامها الاول ، يسمى هذا مضربا ، واستعارة المثل او الحكمة من مناسبتهما الاولى ، الى مناسبة لاحقة ، هي تصوير حالة بحالة عن طريق الاستعارة التمثيلية ، ومن ذلك «شب عمرو عن الطوق» المناسبة التي صورها هذا المثل ، هو ما يسمى بالمورد ، واستخدام هذا الاسلوب ، واستعارته فيما بعد يسمى بالاستعارة التمثيلية او بالمضرب . ومورد المثل هو اول من قاله ، وهو جذيمة الابرش ، وعمرو هذا ابن اخته ، وهو ابن عدى ابن نصر ، وكان جذيمة ملك الحيرة ، جمع غلمانا من ابناء الملوك يخدمونه منهم عدى ابن نصر ، وكان له حظ من الجمال فعشقته رقاش اخت جذيمة(٢) .

(١) كتاب الاغاني ، المجلـد ١١ ، ص٤١٥ .

(٢) مختارات من الادب ، د. عبد المقصود السعداوي ، ص ١٢٣ ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

وتزوجها عدى على غير رغبة اخيها ، ففر بعد أن علقت منه غلا ما ، فكبر ، وذهب يصطاد ثم تاه ، وعاد الى امه بعد زمن فعرفته ، وكان في رقبته طوق تعرفه به ، وعندما عاد فلم تجد الام الطوق في عنق ابنها ، قال جذيمة «كبر عمرو الطوق»، وقد يستخدم هذا المثل في صورة شيء تغير ثم نما على غير توقع ، فيكون هذا استعارة معنى المثل من مناسبته الاولى ، الى مناسبة مشابهة وهذا ما يسمى بمضرب المثل ، وهو في تفسير البيان العربي الاستعارة التمثيلية .

والاسلوب الاستعاري بأنواعه المختلفة من استعارة بالكناية او مكنية ، الى تصريحية ، الى تمثيلية ، قد ورد في كتب البلاغيين ، حتى انك لا تجد كتابا تحدث عن البلاغة قديما او حديثا ، او عن البيان العربي ، الا ضمها ، وكانت في البدايات عند ابن المعتز من اصل بديعه ، الذي لم يكن بمعنى علم البديع فيما تعارف عليه المشتغلون بالبلاغة والادب والنقد فيما بعد(١) ، اذ استقر امر الاستعارة باعتبارها فنا من فنون علم البيان(٢) .

واستشهد لها القدماء بالامثلة التي توضحها ، من كلام الله تعالى ، ومن فن القول العربي الفصيح ، وذلك مثل : ابي عبيدة معمر بن المثنى (ـ٢٠٩هـ) في كتابه «مجاز القرآن» . وأبي عثمان عمرو بن بحر : الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) في كتابه «البيان والتبيين» ، والقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني (ـ٣٦٦هـ) في كتابه «الوساطة»، والحسن بن بشر الآمدي (ـ٣٧٠هـ) في كتابه «الموازنة» ، وابي هلال العسكري (ـ٣٩٥هـ) في كتابه «الصناعتين» وابن رشيق القيرواني (ـ٤٦٣هـ) في كتابه «العمدة» ، وابن سنان الخفاجي (ـ٤٦٦هـ) في كتابه «سر الفصاحة» ، وعبدالقاهر الجرجاني (ـ٤٧١هـ او ٤٧٣هـ) في كتابيه «دلائل الاعجاز» و «اسرار البلاغة» ، وابن

---

(١) كتاب البديع ، عبدالله بن المعتز (ـ٢٩٦هـ) ، ص٢ ، باعتناء المستشرق ـ كراتشقوفسكي ، دار الحكمة ، دمشق ، (؟) .

(٢) ينظر : المفتاح ، للسكاكي (ـ٦٢٦هـ) ص ١٧٤ ، وينظر : التلخيص للقزويني (ـ٧٣٩هـ) ص ٣٢٤ ، والايضاح : القزويني (ـ٧٣٩هـ) ص ١٧٦ ، وينظر عروس الافراح ، للسبكي (ـ٧٧٣هـ) ، ج٤: ص٤٥ ، ١٥٠ .

الاثير (ـ٦٣٧هـ) في كتابه «المثل السائر» ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم في تاريخ البلاغة العربية والتعريف برجالها(١) .

والاستعارة بوصفها لونا من ألوان البلاغة العربية ، وفنا من فنون «علم البيان» ، لا تعدو ان تكون تشكيلا واداة لتمييزها عن غيرها من المصطلحات البلاغية الاخرى ، والامر في توجيه الاسلوب الاستعاري ، وتفسير القيمة التي يحملها ذلك الاسلوب ، يكون من خلال الامثلة والشواهد . وفي ضوء الدراسات القرآنية والادبية والنقدية والبلاغية والتاريخية .

كانت الدراسات القديمة ، تستعين بالشاهد القرآني ، ومن حديث الرسول ، ومن كلام العرب ، وهناك دراسات حديثة ، سارت على طريقة القدامى في التوجيه والتفسير والشاهد ، وافردت دراسات في العصر الحديث حول الاستعارة باعتبارها فنا ، مع التطبيق على الادب الجاهلي(٢) ، ثم حول مفهومها في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين(٣) ، ثم الاستعارة في نشأتها وتطورها واثرها في الاساليب العربية(٤) .

واخذ الاسلوب الاستعاري مساحة واسعة من بحث الاستاذ الدكتور مصطفى ناصف في كتابه «الصورة الادبية»(٥) اذ جعل الاستعارة «نظرية»(٦) وتحدث

---

(١) ينظر : تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها . احمد مصطفى المراغي ، طبع ـ مصطفى الحلبي واولاده ، مصر ، ١٩٥٠م . وينظر : البلاغة العربية في دور نشأتها . د. سيد نوفل ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨م . وينظر : البيان العربي ، د. بدوي طبانة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ط٤ ، وينظر : البلاغة تطور وتاريخ . د. شوقي ضيف دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٥ . وينظر في تاريخ البلاغة العربية ، د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٠م .

(٢) فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الادب الجاهلي . د. احمد عبد السيد الصاوي ، الهيئة المصرية للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٩م .

(٣) مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين ، دراسة تاريخية فنية ، د. احمد عبدالسيد الصاوي ، الهيئة المصرية للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٩م .

(٤) د. محمود السيد شيخون ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

(٥) ص ١٢٤ـ١٥٠ . مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٨م ، وهناك طبعة جديدة عن دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٨٠م .

(٦) السابق : ص١٢٣ .

عنها مقارنة بما ورد عند ارسطو(١) . وبراون(٢) وامبسون ، وما ورد عند ابي هلال العسكري في «الصناعيين»(٣) .

وحاول مصطفى ناصف ان يوضح مفهوم الاستعارة والتشخيص والتجسيم(٤) ، وربط ذلك كله بالنقد العربي من خلال مفهوم الصورة الادبية ، ولهذا فهو يرى أن ينظر الى الاستعارة نظرة ديناميكية ، فالصورة اللغوية يمكن مقارنتها بالرقص التوقيعي ، حيث تتجه فيه العناية الى الحركة والايماءة . وكل ما ينتهي اليها . فيها نجد مزاجا من التفكير الحسي،والظواهر السيكولوجية ، من الخبرة والتوتر الدرامي، واعتدال الحد الاول ، اعنى المشبه او المستعار له في الاثر ، واعتدال المسافة المتخيلة بين الحدين أيضا(٥) .

هذا التفسير من الاستاذ الدكتور مصطفى ، يستلزم نظاما في مجموعة . ثم يتطلب تناسبا بين هذه المفردات ، وتضاما وانسجاما ، على أن يكون في هذا العمل الائتلاف وحسن النسق ، حتى يتم الايقاع السليم المؤثر .

هذا المفهوم لنظرية الاستعارة في العصر الحديث من الاستاذ مصطفى ، يتفق به مع من سبقه من البلاغيين والنقاد العرب ، مثل عبدالقاهر الجرجاني (ـ٤٧١هـ او ٤٧٣هـ) ، عندما يتحدث عن الاستعارة المفيدة قائلا : ومن الفضيلة الجامعة فيها : أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا ، وانك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد ، حتى تراها مكررة في مواضع ، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة ، وخلابة مرموقة .

ومن خصائصها التي تذكر بها ، وهي عنوان مناقبها : انها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجني من

---

(١) نفسه : ص١٢٥ .
(٢) نفسه : ص١٣٤ .
(٣) نفسه : ص١٤٤ .
(٤) نفسه : ص١٣٥ .
(٥) الصورة الادبية . ص ١٤٣ .

الغصن الواحد انواعا من الثمر .... فانك لترى بها الجماد حيا ناطقا ، والاعجم فصيحا ،والاجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية ، بادية جلية ، واذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها اعز منها ، ولا رونق لها ما لم تزنها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها . ان شئت ارتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل ، كأنها قد جسمت حتى راتها العيون . وان شئت لطفت الاوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها الا الظنون ، وهذه اشارات وتلويحات في بدائعها ، وانما ينجلي الغرض منها ويبين اذا تكلم على التفاصيل ، وافرد كل فن بالتمثيل(١) .

لمس هذا المفهوم الاستاذ الدكتور مصطفى ناصف ، وزاد عليه في التطبيق من عرض الى الاستعارة مفهوما او فنا او اثرا لها في الاساليب العربية ، لذلك اكثروا من امثلتها في الادب العربي ، والاساليب المتنوعة .

ومن ذلك دراسة للدكتور محمود السيد شيخون ، اذ يقول : فهذه رسالة متواضعة تناولت فيها الاستعارة بالبحث والدراسة منذ نشأتها حتى وصلت بها الى العصر الحديث ، تناولتها بالبحث والدراسة في كتب الادب مشيرا الى الشخصيات التي عرفتها وغذتها وعملت على تنميتها ، ثم تناولتها بالبحث والدراسة في كتب البديع مشيرا ايضا الى الشخصيات التي قامت بحفظها وصيانتها واظهار محاسنها ومفاتنها ، ثم انتقلت بها الى أزهى عصورها .... ثم الى عصور هزالها ... ثم الى العصر الحديث واتجاهات كل فريق .... ثم امطت اللثام عن صور الاستعارة في البيان العربي ... ثم تناولتهما بالبحث والدراسة في رياض القرآن(٢) .

وسرني أن هذه الدراسة عرجت الى الحديث عن ورودها في القرآن ، واذا نظرنا الى الحديث عنها في القرآن وجدناه لا يجاوز اثنتي عشرة صفحة وهو الفصل الرابع من أصل مائة وست عشرة صفحة . ولكنني لم أجد الجهد منصبا على فهم الابتعارة في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية ، ويوضح هذا الغرض الزميل

---

(١) اسرار البلاغة . عبدالقاهر الجرجاني ، ص ٣٢ ، ٣٣ ، تحقيق ــ محمد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت ، ١٩٨٢ ، مصورة عن النسخة المصرية .

(٢) الاستعارة . ص٣ .

الدكتور محمود اذ يقول : انني أردت ان اكشف القناع عن التطور والنمو الذي طرأ عليها (اي الاستعارة) بتقدم الزمان واختلاف المكان(١) . هذا بالاضافة الى ان عنوان الرسالة «الاستعارة نشأتها ، تطورها ، أثرها في الاساليب العربية» . والدكتور محمود بهذا العمل يفتح الباب لمن بعده في النظر في اسلوب الاستعارة في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية ويكفيه جهدا أنه بدأ وسواه يتابع .

يقرر الباحثون ان الاستعارة من اساليب البلاغة التي ظفرت بدراسات واسعة في ضوء القرآن الكريم ، ولكنهم مع ذلك لا يفردون دراسة خاصة بتقديم مفهومها بين الدراسات القرآنية والبلاغية ، وانما يجعلون فهم الاستعارة في ضوء الدراسات القرآنية في الكتاب ، حتى ان العنوان يكون على غير ذلك ، من هذه الدراسات ، موضوع «مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين»(٢). دراسة تاريخية فنية . نلاحظ بعد هذا العنوان الذي لا يوحي بمفهوم الاستعارة في ضوء الدراسات القرآنية ، ان الدكتور احمد يورد في بداية مقدمته للكتاب قوله : من أهم المباحث التي ظفرت بعناية الباحثين في القرآن الكريم وتعرف وجوه الحسن في أساليبه مباحث الحقيقة والمجاز بصفة عامة ، ومبحث استعارة منها بصفة خاصة . حتى احتل هذا الاخير منزلة واضحة في الدراسات القرآنية منذ اول ظهورها(٣) .

ومع ملاحظة الدكتور احمد لهذه القيمة للاستعارة في الدراسات القرآنية ، فانه يوضح الغاية من دراسته ، اذ يقول : فدراستي الاستعارة اذن في هذا البحث تتركز في محاولة ادراك المدى الذي وصلت اليه الدراسات البيانية والبلاغية والادبية في فهم الاستعارة وطبيعة ابداعها الفني ، ثم محاولة ايضاح الجديد الذي وقفت عنده تلك الدراسات(٤) .

ويلح الدكتور احمد على غرضه من دراسة الاستعارة ، فيقول : واخيرا لعل هذه الدراسة بجانب ما سبق ان اعددته عن «فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة

---

(١) السابق : ص٥ . وانظر ص١١٢ .
(٢) د. احمد عبدالسيد الصاوي .
(٣) السابق : بداية المقدمة .
(٤) مفهوم الاستعارة . ص١٢ .

والنقد العربي مع التطبيق على الادب الجاهلي» لعلها تكون قادرة على تهيئة الدارسين لفهم موضوع الاستعارة من جوانبه المختلفة التاريخية والفنية والجمالية في اطـــار تطبيقـــي(١) .

ولعل ما تنبه اليه الدكتور احمد في مقدمة كتابه من اهمية دراسة الاستعارة في ضوء الدراسات القرآنية ، قد جعله يقول : وليس ما نقوله الكلمة الاخيرة في دراسة هذا الفن الجميـــل(٢) .

والدراسة التي سبقت هذه الدراسة وهي للدكتور أحمد نفسه(٣) ، تقول في المقدمة : مبحث الاستعارة من المباحث الجديرة بالاهتمام والدرس ، وقد عني بهـــا النقاد والبلاغيون من العرب القدامى فدرسوها ضمن مباحثهم(٤) .

وتقوم هذه الدراسة على شقين نظري وتطبيقي ، ويخلص الى ان المحدثيـــن من النقاد العرب قد اهتموا بدراسة الاستعارة من خلال مؤلفاتهم النقدية ومنهم : الاستاذ الدكتور احمد كمال زكي(٥) . والدكتور مصطفى ناصف(٦) ، وغيرهم ضمن مؤلفاتهم النقديـــة(٧) .

وتنبه الدكتور أحمد الى مفهوم الاستعارة بوصفها تشكيلا بلاغيا ، والى قيمتها باعتبارها اسلوبا ، لذلك يقول : ولعل هذا ما يفسر لنا قيمة الاستعارة في الادب الجاهلي فقيمتها انما تكمن فيما نجده من فروق في استخدامها رغم اتحاد المادة التي صنعت منها أصلا ، وهذا هو المنهج الذي تلتقي فيه فلسفة الفن بفلسفة اللغـــة ، والذي يرى ان التباين في الصياغة لا يوجد الا اذا وجد تباين في الاحساس(٨) .

---

(١) السابق : ص١٤ ، وينظر ، ٢١٦ ، ٢١٩ .
(٢) السابق : ص١٤ .
(٣) فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقـــد مع التطبيق على الادب الجـــاهلي .
(٤) السابـــق : ص٩ بداية المقدمـــة .
(٥) انظـــر : كتابه : النقد الادبي الحديـــث (اصوله واتجاهاته) ، نشر ـــ الهيئة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
(٦) انظر كتابه : الصورة الادبية ، ونظرية المعنى في النقد العربي ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٥م. وهناك طبعة اخرى عن دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٨٠م .
(٧) فن الاستعـــارة ص١٠ .
(٨) الســـــابق : ص٥٩٩ .

من كل ما تقدم ، نستطيع ان نقول : ان الاحساس بقيمة الاستعارة واسلوبها في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية قد شغل الدارسين قديما وحديثا .

ولهذا فان الاستعارة في القرآن الكريم ، وفي الدراسات البلاغية ، تتحد في الاسم وتتنوع في الاسلوب ، دون اختلاف ، او تناقص في القيمة او المعنى او الحكم ، فالاسلوب الاستعاري في القرآن وجه من وجوه الاعجاز ، ولون من ألوان البيان العربى ، ولذلك لا تجد معنى من معانيه يعارض معنى ، او حكما يناقض حكما ، او مبدأ يهدم مبدأ ، او غرضا لا يتفق وآخر . فكما انه لا اختلاف بين عباراته وألفاظه ، فانه لا اختلاف بين معانيه واحكامه . او بين مبادئه ونظرياته ، ولو كان صادرا من عند غير الله افرادا او جماعات ما سلم من اختلاف بعض عباراته وبعض ، او اختلاف بعض معانيه وبعض(١) .

وهذا يؤيد ان الاسلوب الاستعاري في تنوع قيمه لا يفهم منه معنى التعارض ، ولهذا ما يوجد من تعارض ظاهري بين ما دلت عليه بعض الآيات وما دلت عليه اخرى، فقد بين المفسرون انه ليس تعارضا الا فيما ظهر لغير المتأمل(٢) .

ومع ذلك فان القيمة التي يحملها الاسلوب الاستعاري في القرآن ، لا يقف عند معرفته بوصفه تشكيلا بلاغيا ، او اداة للكشف عن جمال فن القول العربي من الوجهة البلاغية ، بل يتعدى ذلك الى انه في مقام الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وتذكير الناس بآلائه ونعمه ، ونحو هذا من الاغراض(٣) .

وهذا جميعه من خلال لفظ لا ينبو عن السمع او يتنافر مع ما قبله او ما بعده . وعباراته في مطابقتها لمقتضى الاحوال في أعلى مستوى بلاغي . ويتجلى هذا لمن له ذوق عربي في تشبيهاته وامثاله وحججه ومجادلاته وفي اثباته للعقائد الحقة واقحامه للمبطلين وفي كل معنى عبر عنه وهدف رمي اليه(٤) .

---

(١) علم اصول الفقه . عبدالوهاب خلاف . ص٢٨ ، دار القلم ، الكويت ، ص١١ ، ١٩٧٧م.

(٢) السابق : ص٢٨ ، ٢٩ .

(٣) نفسه : ص٢٩ .

(٤) علم أصول الفقه . عبدالوهاب خلاف . ص٣١ .

وما رأيناه من قيمة للاسلوب الاستعاري في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية ، تنبه اليه المشتغلون بالدراسات النحوية واللغوية في العصر الحديث(٢) ، ومن ذلك حديث للاستاذ الدكتور ابراهيم السامرائي حول الدلالة في طائفة من الافعال ، اذ يقول : وعندي ان هذه الجمل هي نفسها الاولى ، ولكننا صرنا اليها . وفي العربية يتسع مجال القول . وفي هذا فائدة للمتكلم والكاتب والشاعر والخطيب ، والتقديم والتأخير قد يكون رخصة يجد فيها هؤلاء جميعا فائدة ، وقد تخدم الاغراض البلاغية(٣) .

والاسلوب الاستعاري في القرآن وافق مشاهد الطبيعة ، حتى تكون القيمة واضحة لذى عينين او اذنين ، من غير تأويل او التواء ، ومن ذلك قوله تعالى : (وأفئدتهم هواء)(٣) ، أي لا تعي شيئا ، لان المكان اذا كان خاليا فهو هواء ، لا يشغله شيء ، وقولك : هذا أوجز من قولك : لا تعي شيئا(٤) .

والاسلوب الاستعاري لا يخرج في القرآن ، عما تعارف عليه القوم من امور اجتماعية ، مثل اللباس ، ومن ذلك قوله تعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)(٥) . واللباس من مواطن الاستخدام الانساني ، غي التزيين ، والتستر وغير ذلك مما يعرف وظائفه الانسان . والمستعار هنا اللباس(٦) . ومثل اللباس ، «الشراء» ولذلك ، حكم بعض البلاغيين على ان من أجل الاستعارات ، الاستعارة المرشحة ، كقوله تعالى : (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت

---

(١) منهم : استاذنا الشيخ عبدالخالق عضيمة ، والاستاذ الدكتور ، عبدالعال سالم . والاستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين ، والاستاذ الدكتور رمضان عبدالتواب .

(٢) من أساليب القرآن . د. ابراهيم السامرائي ، ١١٢ ، ١١٣ ، مؤسسة الرسالة ودار الفرقان، عمان ــ الاردن ، ١٩٨٣م.

(٣) الآية ٤٣ من سورة ابراهيم .

(٤) كتاب الصناعتين ــ الكتابة والشعر ــ أبو هلال الحسن بن سهل العسكري (ــ٣٩٥هـ) ، ص٢٧٥ ، تحقيق ــ علي محمد البجاوي ، وابو الفضل ابراهيم طبع ــ عيسى الحلبي وشركاه ، القاهرة (؟)

(٥) الآية ١١٢ من سورة النحل .

(٦) بديع القرآن ، ابن ابي الاصبع المصري (ــ٦٥٤هـ) ، ص١٩ ، تحقيق ــ د. حفني محمد شرف ، دار نهضة مصر ،القاهرة ، ط٢ .

تجارتهم)(١) . فان الاستعارة الاولى وهي نقطة الشراء ، رشحت الثانية وهي لفظتا الربح والتجارة للاستعارة(٢) .

ويقترن الحديث عن الاسلوب الاستعاري في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية ، بالحديث عن الاسلوب الاستعاري في السنة النبوية ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «ضموا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء» فاستعار ـ صلى الله عليه وسلم ـ للعشاء الفحمة لقصد حسن البيان ، لان الفحمة هنا أظهر للحس من الظلمة فان الظلمة تدرك بحاسة البصر فقط ، والفحمة تدرك بحاستي البصر واللمس ، لانها جسم والظلمة عرض فكان ذكرها اعني الفحمة أحسن بيانا من ذكر الظلمة(٣) .

ولهذا فان القيمة التي تضمها السنة النبوية في اسلوب الاستعارة ، تضم احكاما ، اما مقررة لاحكام القرآن ، او احكام مبينة لها ، او احكام سكت عنها القرآن مستمدة بالقياس على ما جاء فيه ، او بتطبيق اصوله ومبادئه العامة ، ومن هذا يتبين انه لا يمكن ان يقع بين أحكام القرآن والسنة تخالف او تعارض(٤) .

ومع ذلك فالفرق عظيم جدا بين اسلوب الحديث النبوي واسلوب القرآن في طريقة البيان العربي . فبينهما شقة واسعة لا يشبه احدهما الاخر لدى اهل البصر باللغة واساليبها ، وبالمأثور المألوف من بيانها قديمة وحديثة .

وان هذا التفاوت الكبير في الاسلوبين اذا انعم الانسان فيه النظر وكان ذا ملكة بيانية لا يترك لديه مجالا للشك والريبة في ان الحديث النبوي والقرآن صادران عن مصدرين مختلفين(٥) .

---

(١) الآية ١٦ من سورة البرة .

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن . ابن ابي الاصبع المصري (ـ٦٥٤هـ) ص٩٩ ، تحقيق ـ د. حفني محمد شرف ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة، ١٣٨٣هـ .

(٣) السابق : ص٩٩ ، ١٠٠ .

(٤) علم اصول الفقه : ص٤٠ .

(٥) من مقال للاستاذ مصطفى الزرقاء بعنوان «اعجاز القرآن المجيد وشواهد الهية مصدره» ألقي في الجزائر عام ١٩٨٠م . ص٦ .

والاسلوب الاستعاري في القرآن العظيم ، يعزز قيمة بناء المجتمع وتماسكه ، بما يحمل من هدايات قرآنية ينزل منها منزلة العروة الوثقي التي تجمع حلقات المجتمع الاسلامي ، فان هي تركت حتى تراكم عليها صدأ الاهمال تفتتت ذراتها ، وتحللت عناصرها ، وانفرط عقد هذا المجتمع الى فئات من الناس كأنها حبات من الرمل منثورة في صحراء الحياة تتلاعب الرياح بها هنا وهناك .

وان هي لقيت من العناية البيانية في القرآن الكريم ما يلفت اليها الانظار عادت كما كانت دافعا من دوافع النهوض والتقدم ، ودعامة من دعائم بناء المجتمع المسلم على أسس من الفضائل ينهض بها الى مكانه من الحياة حاملا امانة الفكر المؤمن وهو يجول في معترك الوجود(١) .

من ذلك يخلص لنا ان القرآن الكريم ، انما ينفرد باسلوبه ، لانه ليس وضعا انسانيا البتة ، ولو كان من وضع انسان لجاء على طريقة تشبه اسلوبا من أساليب العرب ، او من جاء بعدهم الى هذا العهد(٢) .

ويؤيد هذا قوله تعالى : (هو الذي يصلي عليكم وملائكته)(٣) ، والمراد انه يرحمكم بالهداية لتصلوا الى الثواب ، وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه)(٤) ، المراد الدعاء له بالمغفرة والرحمة العظيمة(٥) .

ومع ذلك نلاحظ ان اسلوب الاستعارة في فصيح كلام العرب لا يصل الى مستوى ذلك مما ورد في القرآن الكريم(٦) ، ومن امثلة الاستعارة الشعرية قول امرىء القيس من (الطويل) :

---

(١) القرآن العظيم ، هدايته واعجازه في اقوال المفسرين ، محمد الصادق عرجون ص١١٣ ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

(٢) اعجاز القرآن . مصطفى صادق الرافعي ، ص٢٣٢ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

(٣) الآية ٤٣ من سورة الاحزاب .

(٤) الآية : ٤٣ من سورة الاحزاب .

(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن ، عبدالجبار بن احمد (ـ٤١٥هـ) ، ص٣٢٥ ، ٣٢٦ ، طبع ـ الشركة الشرقية للتوزيع ، ودار النهضة الحديثة ، بيروت ، (؟) .

(٦) انظر تفصيل ذلك : اعجاز القرآن ، محمد بن الطيب الباقلاني (ـ٤٠٣هـ) ، تحقيق ـ السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر ط٤ .

وليل كموج البحـــر أرخى سدولـــه  علـــي بأنواع الهمـــوم ليبتلـــــي

فقلـــت له لما تمطـــى بصلبـــــه  وأردف اعجـــازا ونـــاء بكلكـــل

فان هذا الشاعر استعار لظلمة الليل السدول المرخاة ، لما بين المستعـــار والمستعار له من اجتماعهما في منع الابصار من الابصار ، وفائدة هذه الاستعـــارة نقل الاخفى الى الاظهر ، لان السدول يدرك بحاستي البصر واللمس ، والظلمة تدرك بأحديهما دون اخرى ، ثم تمم بكونه جعل السدول مرخاة لان ذكرها بدون هذا القيد لا يوفي بالمعنى الذي قصده من منع رؤية ما وراءها لاحتمال ان تكون مرفوعة(١).

وهذا المنحى في دراسة اسلوب الاستعارة في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية، يعتمد على دراسة الاسلوبين في فهم بلاغة مسائل النحو في القرآن الكريم ، ومن ذلك ما ورد في احدى الدراسات الحديثة : ان تراسل ماهيات المعاني بين المتعاطفات هو الذي يشكل «طبيعة» «الكل» او «الصيغة» ، ويجعل من الصورة الكلية ، وعلاقاتها الداخلية لوحة واحدة لا مكان فيها للتجزئة الى عناصر ، كأنها الوحـــدة العضوية التي تجمع اجزاء الكائن الحي .

على اساس من هذا الاتجاه في نسق صيغة العطف ، تؤصل البلاغة القرآنيـــة معنى التوحيد في نفس الانسان ، بتحقق معنى الشكر عنده بصفة عامة . ذلك انه اذا كانت الدعوة الى توحيد اللهوعبادته ، قد سيقت في صيغ التعاطف السابقة في بنية تدور حول فكرة البر بالوالدين بصفة خاصة ، فانها في نصوص اخرى تبدو اشمل واعم حيث يصير الكفر هو النقيض الصريح لواجب الشكر لله(٢) ، يقول تعالى :

١ــ (فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون)(٣) .

٢ــ (ان تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروايرضه لكـــم(٤) .

---

(١) تحرير التحبير . ص..١ .

(٢) بلاغـــة العطف في القرآن الكريم دراســـة اسلوبيـــة ، د. عفت الشرقاوي ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، دار النهضـــة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .

(٣) الآيـــة ١٥٢ من سورة البقرة .

(٤) الآيـــة ٧ من سورة الزمر .

٣ــ (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا)(١) .

وهكذا تفيد المقابلة بين الشكر والكفر في انساق العطف السابقة ثبوت حقيقة التوحيد في النفس الانسانية بفطرتها الاولى ، فلا تصير الدعوة الى الايمان مجرد جدل منطقي مؤسس على مقدمات عقلية وبراهين فلسفية ، بل تصبح كشفا روحيا لا يحتاج معه الانسان الا ان يخلص النظر الى اعماقه ، كما يحتاج الشاكر الى الصدق في تأمل فضل المنعم عليه(٤) .

وغاية ما تقدم أن اسلوب الاستعارة في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية ، يصور مفهوما ينبغي ان يشيع بين الدارسين ، في أن المصطلح البلاغي بحد ذاته ، لا يؤلف الجمال البياني في فن القول العربي ، ولا يبرز الاعجاز البياني في القــرآن الكريم ، انما يبرز هذا وذاك في كلام الله سبحانه ، وفي كلام الناس ، بما يحمل من قيمة ، وبناء ، وحضارة ، وهداية ، وتهذيب ، وتصوير لخلجات النفس ، وهواجس الجماعة ، وطوابع الحضارة ، وسلاسل التفكير ، وما يؤول اليه هذا جميعه ، من معرفة الخالق ، وحقه على المخلوق ، ومن السلوك السوي في حياة الفرد والجماعات، والتبصرة الصادقة في حقوق الناس فيما بينهم ، من غير ظلم او قهر ، بل بعدل وامان ووفـــاء .

وبهذا نستطيع ان نفهم قيمة البلاغة العربية بفنونها المتنوعة ، في خدمة فن القول العربي والقرآن الكريم ، والخروج بالمصطلح البلاغي من دائرة التقسيمات ، الى ساحة الحياة والمجتمع والحضارة والنماء .

هذه محاولة ، انتفعت بمفرداتها بمن سبقني من الادباء والنقاد والبلاغيين والمفسرين واللغويين ، ولا ادعي الكمال فيها ، ولكنني احسست بقيمة هذا التنبيــه والالحاح عليه في وقت يتناصر فيه القوم على تقريب العربية من اذهان الناس في الحياة الماثلة ، ثم التقرب من فهم كتاب الله تعالى حكما وتشريعا وقيمة .

---

(١) الآية ٣ من سورة الانسان .

(٢) بلاغـــة العطف في القرآن الكريم ، دراسة اسلوبية ، ص٢١٤ .

# المصـــــــــــادر والمراجـــــــــــع


القرآن الكريم .

— من أساليب العربية .

د. ابراهيم السامرائي ، مؤسسة الرسالة ، ودار الفرقان ، عمان ، الاردن ، ١٩٨٣م .

— الاستعارة — نشأتها — تطورها — أثرها في الاساليب العربية — .

د. محمود السيد شيخون ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

— اسرار البلاغـــة .

عبدالقاهر الجرجاني (—٤٧١ او ٤٧٣هـ) ، تحقيق — محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٢م ، مصورة عن النسخة المصرية .

— اعجـــاز القـــرآن .

مصطفى صادق الرافعي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

— اعجاز القرآن .

محمد بن الطيب البلاقلاني (—٤٠٣هـ) ، تحقيق — السيد احمد صقر ، دار المعارف ، مصر ، ط٤ .

— اعجاز القرآن المجيد وشواهد الهية مصدره .

الاستاذ مصطفى الزرقاء ، من مقال له عام ١٩٨٠م .
(مخطـــوط) .

— الاغـــاني .

أبو الفرج الاصفهاني (—٣٥٦هـ) ، تحقيق —ابراهيم الابياري ، طبع — دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية .

— الايضـــــاح .

محمد بن عبدالرحمن القزويني (ـــ٧٣٩هـ) ، طبع ـــ البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

— بديع القرآن .

عبدالعظيم بن عبدالواحد (ـــ٦٥٤) ، المعروف بابن ابي الاصبع المصري ، تحقيق ـــ د. حفني محمد شرف ، دار النهضـــة المصرية ، القاهرة ، ط٢ .

— البلاغة تطور وتاريخ .

د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط٤ .

— البلاغة العربية في دور نشأتهـــا .

د. سيد نوفل ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

— بلاغة العطف في القرآن الكريم ـــ دراسة اسلوبية :

د. عفت الشرقاوي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .

— البيان العربي دراســـة في تطور الفكرة البلاغيـــة عند العـــرب ومناهجهـــا ومصادرها الكبرى .

د. بدوي طبانة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط٤ .

— في تاريخ البلاغة العربية .

د. عبدالعزيز عتيق ، دار النهضـــة العربية ، بيروت ١٩٧٠م .

— تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها .

احمد مصطفى المراغي ، طبع ـــ مصطفى الحلبي واولاده ، مصر ، ١٩٥٠م .

— تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيا نإعجاز القرآن .

عبدالعظيم بن عبدالواحد (ـــ٦٥٤هـ) ، المعروف بابن ابي الاصبع المصري .

تحقيق ـــ د. حفني محمد شرف ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٢هـ .

ـــ التلخيـــص .

محمد بن عبدالرحمن القزويني (ـــ٧٣٩هـ) ، تحقيق ، عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (؟) .

ـــ تنزيه القرآن عن المطاعن .

عبدالجبار بن احمد (ـــ٤١٥هـ) ، طبع ـــ الشركة الشرقية ، ودار النهضـــة الحديثة ، بيروت ، (؟) .

ـــ ديوان امرىء القيس .

تحقيق ـــ محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف مصر ، ١٩٥٨م .

ـــ الصورة الادبيـــة .

د. مصطفى ناصف ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٨م ، وهناك طبعة اخرى عن دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٨٠م .

ـــ عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح .

أحمد بن علي السبكي (ـــ٧٧٣هـ) ، ضمن شروح التلخيص ، طبع ، عيســـى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

ـــ علم اصول الفقه .

عبدالوهاب خلاف . دار القلم ، الكويت ، ١٩٧٧م . ط١١ .

ـــ فن الاستعارة ، دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الادب الجاهلـــي .

د. احمد عبد السيد الصاوي ، الهيئة المصرية للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٩م .

— القرآن العظيم — هدايته واعجازه في أقوال المفسرين .
محمد الصادق عرجون ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

— كتاب البديـــع .

عبدالله بن المعتز (—٢٩٦هـ) ، باعتناء المستشرق اغناطيوس كراتشقوفسكي، دار الحكمة ، دمشق ، (؟) .

— كتاب الصناعتين — الكتابة والشعر — .

أبو هلال الحسن بن سهل العسكري (—٣٩٥هـ) ، تحقيق ، علي محمـــد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، طبع ، عيسى الحلبي وشركاه ، القاهرة ، (؟) .

— مختـــارات من الادب .

د. عبدالمقصود السعداوي ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

— المفتـــاح .

يوسف بن محمد السكاكي (—٦٢٦هـ) ، طبع ، مصطفى البـــابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

— مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين — دراسة تاريخية فنية —
د. احمد عبدالسيد الصاري ، الهيئة المصرية للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٨م.

— نظرية المعنى في النقد العربي .

د. مصطفى ناصف ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، وهناك طبعة أخرى عن دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٨١م.

— النقد الادبي الحديث — اصوله واتجاهاته — .

د. احمد كمال زكي ، الهيئة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، وهناك طبعـــة اخرى عن دار الاندلس ، بيروت ، ١٩٨١م .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

- ٦ -

# حول الصلـــة

## بين الدرس النحوي وعلم البلاغـــة

تتنوع التراكيب في فن القول ، حسب الاغراض والفنون التي يحتاجها الانسان في حياته ، من تصوير رغبة ، الى تجسيم امر ، الى ابراز نازعة ، او كشف هامسة، الى غير ذلك من مواطن حديث النفس والقلب .

والانتظام في هذه التراكيب من حيث البناء النحوي ، والتنظيم الصرفي والصوتي ، وجه من وجوه الصحة اللغوية ، وباب من أبواب الجمال الادبي ، والاسلوب البليغ ، وناحية من نواحي الاداء الادبي ، الذي يحمل رسالة او هاتفة ، او ينقل فكرة او حضارة ، ولون من ألوان التأثير والنفع ، ودليل على الجلال .

تنبه القدماء الى هذه الشمولية في العمل الادبي ، اذ ربطوا ذلك كله بالرغبة او الحب او الكره ، او القبول او الرفض ، وغيره من سمات النفس الانسانية في تقلباتها وحركتها .

من أجل ذلك حذفوا ، وزادوا ، واوجزوا ، واطنبوا في كلامهم وكتابتهم ، وحديثهم ، ومناقشاتهم وغير ذلك مما هو في اطار النشاط الفكري ، والمستوى الثقافي .

هذا كله في محيط التدرج العلمي المقبول ، الذي لا يرفضه عقل ، او تكرهه عاطفة : او لا تقره فضيلة ، ولذلك ، فانك تحس في كلام القائل .. من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل او نحو ذلك . وأنت تحس هذا من نفسك اذا تأملته وذلك ان تكون في مدح انسان والثناء عليه ، فتقول : كان والله رجلا ! فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة ، وتتمكن في تمطيط اللام واطالة الصوت بها وعليها ، اي : رجلا فاضلا او شجاعا او كريما او نحو ذلك.

وكذلك تقول : سألناه فوجدناه انسانا ! وتمكن الصوت بانسان وتفخمه ، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك : انسانا او جوادا او نحو ذلك .

وكذلك ان ذممته ووصفته بالضيق ، قلت : سألناه وكان انسانا ! وتزوى وجهك وتقطبه ، فيغني ذلك عن قولك : انسانا لئيما او لحزا او مبخلا او نحو ذلك(١) .

---

(١) الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني (ـ٣٩٥هـ) ، ج٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، تحقيق ـ محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت ، (؟) .

والتفخيـــم لا يعتمد الدرس النحوي وحده او علوم البلاغـــة دون غيرها ، بل يضم القواعد النحوية والبنـ ىالصرفية ، والفنون البلاغية ، في تركيب شـامل ، ولذا فالتفخيم : هو تغليظ الحرف عند النطق به ، وتصعيده الى أعلى الحنك ، والترقيق عكسه(١) . والتفخيم يكون في الحروف المستعلية ، وهي التي تجمعـــه العبـــارة (خص ضغط قظ) .

وهذه الحروف أصوات ، لا يكون لها التأثير ، او معنى العبارة ، ولا يندرج عليها مفهوم التأثير والاثر الادبي ، الا بعد أن تتشكل في اداء يعينه الدرس النحوي وعلم البلاغـــة(٢) .

وفي تاريخ العربية ، أثر واضح للدرس النحوي في علم البلاغة ، فاننا لا نعـــدم حديث النحاة عن التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة ، في تركيب الجملة ، وتوجيه ذلك في ضوء التقدير النحوي ، الذي يفسر الدليل او الحجة النحوية التي يلتمسهـــا النحـــوي(٣) .

وزادت النظرات الموضحة للشاهد النحوي في ضوء الاداء والتركيـــب ، فكانت توجيهات لغوية موفقة تبرز الصلة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة . ومن ذلك ما

---

(١) الالفاظ اللغوية «خصائصها وانواعها» ، الاستاذ عبدالحميد حسن ، ص١٥ ، معهد البحـوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧١م .

(٢) انظر على سبيل المثال : اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان ، الفصل الثانـي «الاصوات» ص٤٦ وما بعدها ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، وينظر : علم اللغـة بين التراث والمناهـــج الحديثة ، د. محمود فهمي حجازي ، ص٢٣ وما بعدها ، الهيئة المصريـة العامة ، القاهرة ، ١٩٧٠م. وينظر الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، د. حسام سعيد النعيمي ، وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠م.

(٣) ينظر : اثر النحاة في البحث البلاغي د. عبدالقادر حسين ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٥م.

جاء في «الكامل» للمبرد (ـ٢٨٥هـ)(١) ، وما ورد في كتاب «الخصائص» لابن جني (ـ٣٩٥هـ) . وما تضمنه كتاب «الصاحبي»(٢) لاحمد بن فارس (ـ٣٩٥هـ) ، وغير ذلك من كتب الامالي لابي علي القالي (ـ٣٥٦هـ) ، وعيون الاخبار لابن قتيبة (ـ٢٧٦هـ) ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر (ـ٣٣٧هـ) ، وغير ذلك ، من نظرات النقدة والادباء ، مثل : الحسن بن بشر الآمدي (ـ٣٧٠هـ) ، في كتابه «الموازنة» ، والقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني (ـ٣٦٦هـ) ، في كتابه «الوساطة» .

وليس المقام مقام حصر لتلك الاتجاهات ، او الرصد لمرحلة التأثير والتأثر ، انما الامر كله لتبيان ان الحديث حول الصلة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ، قد تقدم على وجود عبدالقاهر الجرجاني (ـ٤٧١هـ او ٤٧٣هـ) ، وهذا يفسر الملاحظ الآتية :

١. ان صلة الدرس النحوي وعلم البلاغة عند عبدالقاهر الجرجاني لها بذور أولى في المراحل التي تقدمته ، وهذا يعطي شرحا لتدرج هذه الظاهرة ، ونموها ، من غير انقطاع لبدايتها .

٢. ما أتمه عبدالقاهر في الصلة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ينضاف الى ما تقدمه من جهود ، ويعتمد عليه من تلاه من العلماء والمشتغلين بهذا الفن ، وهذا يبرز الجهد الذي أداه عبدالقاهر .

٣. معرفة صورة من تراثنا في ضوء الدراسات اللسانية الحدثية ، وذلك للتأكد من صحة مناهج المحدثين في اطار دراسة القدماء لفن القول العربي ، وموازنة المصطلحات الحديثة في العصر الماثل مع ما استخدم في القديم ، ومقارنة مفهوم المصطلح في اللغات الاجنبية مع ما شاع في العربية .

٤. هذا كله يقفنا على سلاسل التفكير النحوي البلاغي عند العرب ، ويعرفنا ما السبل السليمة لاخذ النافع من التراث ، وترك غيره ، واخذ المفيد من لغات غيرنا ، وعدم اقحام اي دراسة او مصطلح في غير تصور سليم لحركة الاحياء

---

(١) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، والسيد شحاته ، دار نهضة مصر، القاهرة، (؟).

(٢) تحقيق ـ د. مصطفى الشويمي ، مؤسسة بدران ، بيروت ، ١٩٦٤م .

اللغوي في العصر الحاضر(١) ، او فهم لمعنى التجديد في علم البلاغة العربية وفصاحتها(٢) .

من مظاهر صلة الدرس النحوي بعلم البلاغة ، اننا لا نستطيع ان نفهم خصائص العربية ، من : الاعراب والتعريب والدخيل ومناسبة حروف العربية لمعانيها ، ودوران المادة حول معنى واحد ، والايجاز والحركية(٣) . الا في اطار الحس النحوي والذوق البلاغـــي .

وكذلك لا يستقيم تحليل سمات نمو اللغة العربية في موطن منفصل بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ، مثل قضايا الاشتقاق والنحت والزيادة والقلب والابدال(٤) .

والحديث عن الحذف ، في المبنى والمعنى ، ينبىء عن الحديث في الصلة الواضحة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ، ومن ذلك قول ابي الفتح عثمان بن جني (ـــ٣٩٥هـ)، من أن الحذف يعتري الجملة والمفرد والحرف والحركة ، وليس شيء من ذلك الا عن دليل يدل عليه(٥) .

والدليل الذي يدل على حذف ، هو ما يسمى عند البلاغيين : بالقرنية ، وقد أولى البلاغيون مبحث القرنية دراسات تفصيلية شاملة معتمدة على المنطق في تقسيمها الى عقلية ومعنوية ، ولازمة ، وملزومة ، وغير ذلك مما نجده في حديث المتأخرين من بلاغيي العرب(٦) .

---

(١) ينظر في ذلك : حركة الاحياء اللغوي في بلاد الشام . د. نشـــأة ظبيان ، دمشق ، ١٩٧٦م.

(٢) ينظر : علم الفصاحة العربية . د. محمد علي رزق الخفاجي ، دار المعارف مصر ، ١٩٧٩م.

(٣) ينظر : فقه اللغة . د. محمد خضر . ص١٧٣ وما بعدها ، بيروت ١٩٨١م .

(٤) السابـــق : ص٣١٨ وما بعدها .

(٥) ينظر : الخصائص ، ابن جني (ـــ٣٩٥هـ) ، ٢ : ٣٦٠ ، وينظر : ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، د. ظاهر سليمان حمودة ، ص١٩ ، الدار الجامعية الاسكندرية ، ١٩٨٢م .

(٦) ينظـــر : شروح التلخيص . طبـــع ، عيسى الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٣٧م . وينظر : البلاغة التطبيقيـــة دعامة النقد الادبي السليـــم د. احمد موسى ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

ولا يقف الامر عند تلك الشواهد التي تقدمت ، بل شذرات من هذا عند سيبويه (ـ ١٨٠هـ) ، في الكتاب ، وذلك في اثناء حديثه عن التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، واضمار فاعل الفعل ، في حالة الوجوب ، او الجواز ، وفي حالة حذف المفعول ، او ما يتعلق بالجملة ، مما يسيغه المقام ، وعدم اللبس ، وما الى ذلك من حديث حول المعنى المفيد في الكلام ، وذلك في بناء الجملة ، اما فعلية او اسمية ، وما يدور حول متعلقات الجملة ، من اشباه الجمل في الظرف او الجار والمجرور ، او من افادة الحرف مع ما يستند اليه من كلام . وغير ذلك مما شاع عند النحويين في مباحثهم ودراساتهم.

ولا يكون الحديث عن الصلة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة بمعزل عن التوجيه الى معنى الشاهد او الدليل او الحجة في النحو او البلاغة ، انما يلزمنا ذلك ان نعرض الى معنى جمود الدرس النحوي ، وعقم علم البلاغة ، وما ذاك لامر يعود الى النحو نفسه او الى البلاغة نفسها ، انما الامر ـ فيما نقدر ـ يعود الى الخلط في فهم وظيفة الحكم النحوي ، او الرأي البلاغي ، وبين الشاهد او الدليل الذي استخدم ، لخدمة ذاك الحكم ، او ذلك الرأي ، وفرق بين ان نهتم بالوسيلة ونترك الغاية ، كما انه هناك فرق آخر بين انفاق الجهد في حفظ الشاهد وتمثله دون المشهود له ، او الاهتمام بالخادم دون المخدوم.

انما القضية تكون في وجه آخر ، وهو : ان معرفة الدليل او الشاهد على اعتبار انه وسيلة لتقريب الفكر البلاغي ، او القواعد النحوية ، ولذا فان معرفة الشاهد اذا اغنت في الوصول الى الفكرة البلاغية او القاعدة النحوية ، فلا حاجة الى اهمال الشاهد ، او نعته بأنه مصنوع لغير وظيفة .

اما اذا قصر الشاهد في ايصالنا الى الفكرة البلاغية او القاعدة النحوية ، فاننا نلتمس الشاهد الذي يعين على ذلك وان كان في الحديث عن فن القول العربي، وما ذاك الا لان الامثلة والشواهد وسائل للفهم ، وطرائق لتيسير الثقافة .

وهذا المعنى فيه احتراس ، وهو ان الامثلة والشواهد تكون في الفصيح من كلام العرب ، وذلك لامرين ، الاول : انه لا يقطع صلتنا بموروثنا الثقافي الذي كتب بالعربية الفصيحة ، والثاني : لان هذه الفصيحة وسيلة من وسائل كشف البيان

ولذا فالشواهد من الفصيح في اللغة العربية تقوم بغرضين في وقت واحد احدهما ادبي والاخر ديني . وهذه الغاية قد فطن اليها القدامى من المشتغلين بالدراسات النحوية والبلاغية والقرآنية في وقت واحد(١) .

ويوضح هذا الحديث أسس الوحدة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة في تفسير معنى : تحرير اللغة من الجمود والفوضى في قواعدها وجمالها ، ولذلك فان العربية الفصيحة الحية تقع على الجادة الوسطى بين الجمود المانع من الحركة والجديد والحياة النامية ، والفوضى او الاباحية اللغوية القاتلة لخصائص اللغة المشوهة لها . لقد اشتد بعض الناس في المحافظة على اللغة وغلوا في ذلك غلوا كبيرا ، ولم يصدروا في ذلك عن فقه صحيح للعربية ولا فهم واع لحياتها وقواعد نحوها فوقفوا عند نصوص المعاجم لا عند نظام اللغة ووراء الشواهد دون القواعد ، فحرموا حلالا ومنعوا مباحا .

مع ان الواجب التمييز فيما يجد من ألفاظ اللغة بين ما كان ناشئا عن طبيعة اللغة متولدا من قواعدها تمخضت عنه موادها وابنيتها فجاء لتمام الحمل كامل الخلقة وما كان دخيلا عليها لم تحمل به ارحام عربية بل جاء لغية وتولد عن هجنة او عجمة فجاء غريبا عنها مخلا بنظامها مشوها لجمالها(٢) .

وهذا يعني ان حياة اللغة وجمالها في اطار شامل بين القاعدة النحوية والتركيب البلاغي في نظام اللغة وابنيتها في ضوء النظم والعلاقات . ولذلك فان اللغة ظاهرة فكرية انسانية لا يمكن ان تنشأ الا في مجتمع يحتاج افراده الى التعامل بعضهم مع بعض(٣) . وذلك لان اللغة من خلق الفكر ، ولانها خلقت خصيصا لتيسير التبادل المادي والفكري مع المجتمع ، ولان المجتمع دائم التطور ، فاللغة التي تسايره دائمة التطور أيضا ، وهي صورة صادقة لحضارته .

---

(١) ينظر : تفسير البحر المحيط . لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الاندلسي (ـ٧٥٤هـ) . دار الفكر ، بيروت ، (؟) وينظر : الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري (ـ٥٣٨هـ) ، طبع مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ، ١٩٦٦م .

(٢) فقه اللغة وخصائص العربية محمد المبارك ، ص٣٢٤ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٢م .

(٣) اللسان والانسان مدخل الى معرفة اللغة ، د. حسن ظاظا ص ٩٦ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١م.

فالمعجم اللغوي لامة ما هو نفس الوقت صورة ملخصة لما تعرفه هذه الامة في حياتها اليومية ، وكيانها الاقتصادي والسياسي ، وسلوكها الديني والاخلاقي ، وتقدمها العلمي والفني(١) .

والتصور السليم لهذه الفكرة ان القواعد النحوية والقضايا البلاغية في توحد لاداء الفكرة وتوصيلها للمتلقي مع احداث القبول او الرفض ، وهو ما أسماه علماء البلاغة والنقد بالامتاع واللذة او الهزة ، وما اسماه النحويون بالكلام المفيد .

ويؤدي هذا الى معنى علم اللغة في المنظور الحديث في شمولية الدرس النحوي وعلم البلاغة ، والحق ان اللغة بالمفهوم الحديث لا تجري وراء تصحيح الكلام او الكشف عن «أخطائه وانحرافاته» ، وليس من وظيفته المباشرة وضع قواعد او احكام عامة للتمييز بين الجيد والرديء منه . انما وظيفته دراسة اللغة ذاتها ، بالكشف على خواصها وسماتها ، وتسجيل هذه الخواص والميزات كما هي في صورة قواعد ونظم عامة بعد اخضاع الامثلة الجزئية للتجريد . وهذه الوظيفة تتفق تماما مع المفهوم الحديث للغة نفسها(٢) . وهذه الوظيفة هي الغاية المشتركة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة .

ومعنى هذا كله ان المسألة ليست الجمع بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ، او الجمع بين النحو والصرف في تعريف واحد ، او مجلد واحد او كتاب واحد ، انما العبرة بجمع مسائلها وقضاياهما على وجه يفيد الدارس ، ويأخذ بيده منطقيا من مرحلة الى أخرى(٣) . ويوضح ذلك ما تعارف عليه البلاغيون من انه مخل بالفصاحة، وهو عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة ، في مثال : ضرب غلامه زيدا(٤) ، وكقول الفرزدق في خال هشام :

وما مثله في الناس الا مملكـــا  أبو أمه حي أبوه يقاربـــه(٥)

---

(١) السابق : ص٩٨ .

(٢) دراسات في علم اللغة . د. كمال محمد بشر ، ١ : ١١ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

(٣) دراسات في علم اللغة ، د. كمال محمد بشر ، ٢ : ٨٨ .

(٤) التلخيص في علوم البلاغة ، محمد بن عبدالرحمن القزويني (ـ٧٣٩هـ) ، ص ٢٦ تحقيق ـ عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (؟) .

(٥) السابق : ص٢٨ .

فهذا الاخلال في الفصاحة يجمعه ضعف التأليف في مخالفة القيـــاس النحوي الواضح ، وعدم ظهور الدلالة على المراد لخلل في الترتيب النحوي والسياق البلاغي.

هذا التوافق في الغاية والغرض يؤدي الى الحفاظ على العربية الفصيحة ، كما ان الخلل في الوحدة بين الدرس النحوي والفكر البلاغي ، يؤدي الى ثلم العربية المعاصرة، والعربية المعاصرة ، هي لغة الادب الجيد، نثره وشعره ، وهي لغة مكتوبة في الاغلب الاعم ، ومن امثلتها ــ على تفاوت يسير ــ لغة المؤلفات العلمية والكتب الجامعية والمجلات الادبية والصحف اليومية وما شاكل ذلك من رسائل ووثائق . .. ومهما يكن من امر فالعربية المعاصرة ــ بصورتيها المكتوبة والمنطوقة ــ تمثل مرحلة من مراحل التطور في سلسلة التاريخ الطويل للغة العربية(١) .

واللغة المنطوقة هي الفصيحة . وبهذا نعرف معنى اتساع العربية في التعبير ، وحين نصف العربية بسعة التعبير ، وكثرة المفردات ، وتنوع الدلالات ، وحين نتجرأ أكثر من هذا فنزعم ان لغتنا في هذا الباب اوسع اللغات ثروة ، واغناها في اصول الكلمات الدوال على معان متشعبة ، قديمة وحديثة ، جدير بنا ان نذكر ان اللغات جميعا ، دون استثناء ، تزداد ثروتها وتبلغ مفرداتها من الكثرة حدا لا نهاية له اذا كتب لها من شروط النماء والحياة والخلود ما كتب للعربية ، فقد اتيح للغة القرآن من الظروف والعوامل ما وسع من طرائق استعمالها ، واساليب اشتقاقها ، وتنـــوع لهجاتها ، فانطوت من هذا كله على محصول لغوي ، لا نظير له في لغات العالم(٢) . وهل يرجع ذلك الى قواعد الدرس النحوي او الى علم البلاغة ؟ او الى الامرين معا. ان الوحدة المنسجمة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة من الاصول التي زادت في ثروة العربية ، ونوعت في دلالاتها وتعبيرها .

واذا ورد في حديثنا ذكر اللهجة ، فهذا لا يعني اننا ندعو الى اللهجات ، وانما نشير اليها على أنها في دراستها أصول للفصحى ، وعون على فهم اللهجات المعاصرة(٣) . وفي ذلك دعوة الى تطور الدرس النحوي على اساس الاستعمالات

---

(١) دراسات في علم اللغة ، د. كمال محمد بشر ، ٢ : ١٢٤ .

(٢) دراسات في فقه اللغة . د. صبحي الصالح ، ص ٢٩٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٠م.

(٣) لهجات العرب ، احمد تيمور ، من مقدمة للدكتور ابراهيم مدكور ، ص٩ ، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ، ١٩٧٣م .

الصحيحة ، ودعوة كذلك الى ربط هذا الدرس النحوي بعلم البلاغة . ولذلك عابوا على الكتب المؤلفة في القرن الرابع الهجري المجال الذي كان يشغل اذهان النحاة في ذلك العصر ويصرفهم عن جوهر كتاب سيبويه ومضمونه الى اطاره وشكله(١) .

أين نجد بين هذه الكتب الذي يتناول النحو كموضوع علمي متكامل يعرض قضاياه وينظم أحكامه ويناقش مسائله بعقلية متطورة ونظرة ناقدة ومقاييس جديدة . وتطبيق محكم دقيق ؟(٢) .

وهناك ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، تأخذ وجه الصلة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ، وقد احتج عبدالقاهر الجرجاني لتقدير المحذوفات مبينا ان ذلك يرجع الى سببين ، اولاهما : ان يمتنع حمل الكلام على ظاهره لامر يرجع الى غرض المتكلم كما في قوله تعالى : (وأسأل القرية) ، اذ الغرض : واسأل أهل القرية ، فليس الحذف هنا راجعا لذات التركيب اللغوي ، وذلك ان مثل هذه العبارة لا تحتمل الحذف لو نطق بها رجل مر بقرية قد خربت وباد اهلها فأراد ان يقول لصاحبه واعظا مذكرا ، او ان يخاطب نفسه متعظا ومعتبرا : سل القرية عن اهلها ، على حد قولهم : سل الارض من شق انهارك ، وغرس اشجارك(٣) . فلا حذف في العبارتين(٤) وان كانت عناية البلاغيين بهذه الاغراض تفوق عناية النحاة . وبعض النحاة قد يعرض عن ذكرها فصلا للدرس النحوي عن البياني(٥) .

وان كان ابن هشام يذكر ان الحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه هو ما اقتضته الصناعة ، وذلك بأن يجد خبرا بدون مبتدأ او بالعكس ، او شرطا بدون جزاء او بالعكس ، او معطوفا بدون معطوف عليه ، او معمولا بدون عامل ... فانه تطفل منهم على صناعة البيان ، ولم اذكر بعض ذلك في كتابي جريا على عادتهم ، وانشد متمثلا :

---

(١) تطور الدرس النحوي ، د. حسن عون ، ص٦٤ ، معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة.١٩٧٠م

(٢) السابق : ص٦٥ .

(٣) وهذا ما أشار اليه الجاحظ (ـ٢٥٥هـ) باسم «النصبة» ينظر البيان والتبيين ، ١ : ٨١ ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٦٠م .

(٤) ينظر : ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي : ص٢٢ .

(٥) السابق : ص٨٧ .

وهل أنا الا من غزيـــة ان غـــوت  غويت وان ترشد غزية ارشـــد

بل لاني وضعت الكتاب لافادة متعاطي التفسير والعربية جميعا(١) .

مع هذا وذاك فان ابن هشام (ـــ٧٦١هـ) ، لا يجد مناصا من غايته في وضع كتابه في النحو من افادة التفسير والعربية جميعا ؛ وهل هذه الافادة تتمثل في قواعد الدرس النحوي منفصلة عن الفكر البياني في معرفة الاعجاز في تفسير القرآن ، واسرار العربية ودقائقها .

والسبب الآخر في احتجاج عبدالقاهر لتقدير المحذوفات ، هو ان يكون امتنـــاع ترك الكلام على ظاهره ولزوم الحكم بالحذف راجعا الى الكلام نفسه لا الى غرض المتكلم ، وذلك مثل ان يكون المحذوف احد جزأي الجملة كالمبتدأ في نحو قوله تعالى : (فصبر جميل) ، وقوله (متاع قليل) ، فلا بد من تقدير محذوف ، ذلك ان الاسم الواحد لا يفيد ، والصفة والموصوف حكمهما حكم الاسم الواحد ، وجميل صفـــة للصبر وفي الاجابة على السؤال من هذا ؟ تقول : زيد فتقدير المبتدأ المحذوف هنا واجب ، لان الاسم الواحد لا يفيد . لان مدار الفائدة على اثبات او نفي ، وكلاهما يقتضي شيئين : مثبت ومثبت له ، او منفي ومنفي عنه(٢) .

ولهذا ألح المشتغلون بالنحو : على ان مناهج البحث في اللغة ، ومن ذلك منهج النحو : انه دراسة العلاقات بين ابوابه ممثلة في الكلمات التي في النص ، فنحن حين نعرب نترجم الكلمات الى ابواب ، ليمكن ان ننظر اليها في ضوء علاقاتها النحوية ، فاذا أعربنا «ضرب محمد عليا» ، لم نقنع بضرب كما هي ، وانما سميناها باسم باب نحوي هو الفعل الماضي ولمنقنع بمحمد كما هو ، فسميناه باسم باب آخر هو الفاعل، ولا بعلي على حاله ، فسميناه باسم باب المفعول . والسبب الذي نحول من أجله الكلمات الى أبواب واضح جدا ،وهو كما ذكرنا : ان النحو دراسة العلاقات بين

---

(١) مغنى اللبيـــب ، ابن هشام (٧٦١هـ) ٢ : ٦٥٠ ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبـــة التجارية الكبرى ، مصر، (؟) .

(٢) اسرار البلاغة ج٢ : ٢٩٠ ، ٢٩١ ، تحقيق ـــ د. محمد عبدالمنعـــم خفاجي ، مكتبة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٧٦م . وينظر : ظاهرة الحذف : ٢٢ ، ٢٣ ، ٨٧ .

الابواب ، لابين الكلمات ، ويقول ابن مالك (ـــ٦٧٢هـ) ، وبعد فعل فاعل(١) .... الخ ولا يقول وبعد ضرب محمد ، لانه يتكلم عن الابواب لا عن الامثلة(٢) .

ويوضح هذه الصلة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ، وسائل الترابط في السياق ، وان ما يجعل السياق سياقا مترابطا انما هي ظواهر في طريقة تركيبه ورصفه ، لولاها لكانت الكلمات المتجاورة غير آخذة بعضها بحجز بعض ، في علاقات(٣) متبادلة تجعل كل كلمة منها واضحة الوظيفة في هذا السياق ، وتنقسم الوسائل التي تخلق هذا الترابط الى ثلاثة اقسام :

١. وسائل التماسك السياقي .

٢. وسائل التوافق السياقي .

٣. وسائل التأثير السياقي(٤) .

ونرى تحقيق ذلك في قول عبدالقاهر الجرجاني : واعلم انك اذا رجعت الى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك : ان لا نظم في الكلم ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبني بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك . هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على احد من الناس ، واذا كان كذلك فبنا ان ننظر الى التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ما معناه وما محصوله(٥) .

وما حديث النحاة والبلاغيين عن الفعل وزمانه(٦) واسناده ، الا صورة من صور الوحدة والترابط بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ، وذلك ان الفعل والنظام الفعلي في

---

(١) شرح ابن عقيل جا : ص٣٩٢ تحقيق ـ محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ، ١٩٦١م .

(٢) مناهج البحث في اللغة ، د. تمام حسان ، ص ١٩٢ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ليبيا ، ١٩٧٤م.

(٣) ينظر : نظرية العلاقات او النظم بين عبدالقاهر والنقد الغربي الحديث ، د. محمد نايل احمد، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، (؟) .

(٤) مناهج البحث في اللغة . ص ٢٠٣.

(٥) دلائل الاعجاز . ص٩٧ ، تحقيق ـ د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، مكتبة القاهرة القاهرة ،١٩٦٩م.

(٦) ينظر : الفعل زمانه وابنيته . د. ابراهيم السامرائي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠م.

العربية قد عده الاقدمون عنصرا جوهريا في العبارة او الجملة ، وهو كذلك عند المحدثين من اللغويين في انه عامل مهم في بناء الجملة(١) .

وهل بناء الجملة يقتصر على القاعدة النحوية دون الفكرة البلاغيـــة ؟ وامامنا اكثر من مثل يؤكد الصلة ، مثل الحديث عن المطابقة بين التابع والمتبوع ، ومنه عطف البـــيان الذي يشبه الصفة ، اذ يجب فيه موافقة المتبوع كالنعت الحقيقي فيوافقه في اعرابه ، وتعريفه او تنكيره ، وتذكيره او تأنيثه ، وافراده او تثنيته او جمعه(٢).

ثم يعاودنا التساؤل هل كانت نظرة النحويين الى التطور النحوي وتدرجه مع الزمان ، وموقف النحويين منه ، يترتب على القواعد النحوية منفصلة عن النظـــرات الدلالية في البيان العربي ؟ ان الدراسات تنبىء عن توحد وظيفة الدرس النحوي وعلم البلاغة ، اذ كلاهما ينظر الى الاصل والفرع ، او الطور الســـابق والطور اللاحق يدوران في الاستعمال(٣) .

ومن امثلة ذلك ، باب الضمائر المنفصلة(٤) ، وباب من ابواب «من» و «ما»(٥)، وباب المخاطبة(٦) ، وباب تسمية المذكر بالمؤنث(٧) . وباب تقديم الفعل وتأخيره(٨). وباب اسم الفاعل(٩) .

---

(١) فقه اللغة المقارن . د. ابراهيـم السامرائي . ص٥١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨١م. وينظـــر : بناء الجملة بين منطق اللغة والنحو ، د. نجاة عبدالعظيم الكوفي ، دار النهضـــة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

(٢) في علم النحو . د. امين علي السيد ، ج٢ : ٩٢ دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤م .

(٣) في تاريخ العربية «ابحاث في الصورة التاريخية للنحو العربي» د. نهـاد الموسى ، ص١٩٣ ، الاردن ــ عمان ــ ١٩٧٦م .

(٤) كتاب الواضـــح ، أبو بكر الزبيدي (ــ٣٧٩هـ) ، ص١١٩ ، تحقيق ــ د. عبدالكريم خليفة ، الاردن، عمان ، ١٩٧٦م .

(٥) الســـابق : ص١٤٢ .

(٦) نفســـــه : ص١٤٥ .

(٧) نفســـــه : ص١٥٦ .

(٨) نفســـــه : ص١٧٠ .

(٩) نفســـــه : ١٧٦ .

وباب ما استعمل مؤنثا مما لا علامة للتأنيث فيه(١) . وباب من تفسير معاني الحروف التي جاءت للمعاني وما شاكلها من الاسماء(٢) وبعض وجوه الاعراب التقديري(٣) .

واختلاف مناحي اللغة الفصحى باختلاف فنون القول ، وجه من وجوه ائتلاف الدرس النحوي وعلم البلاغة ، ولهذا تتشعب لغة الكتابة او اللغة الفصحى الى شعب مختلفة تبعا لاختلاف فنون القول التي تستخدم فيها ، وما يمتاز به كل فن منها : الشعر ، النثر الادبي ، الخطابة ، القصة ، الرسالة ، التاريخ ، القانون وتدوين العلوم ... الخ ، وذلك ان كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه في طبيعته واغراضه البيانية ، ومناهج الاستدلال فيه ، ومقدار صلته بكل من الناحيتين الوجدانية والادراكية ومدى اقبال الجمهور عليه واثره في نفسه ، وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته ، ومبلغ نشاط المشتغلين به وما يخترعونه فيه من اصطلاحات ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه عن اللغات الاجنبية من مفردات وافكار(٤) .

هذا التنوع في فن القول أيخرج عن وسائل المعاني والبيان والبديع ، الملائمة بين التراكيب والمفردات في وضوحها وغرابتها أليست مرتبطة بمعنى المستوى اللغوي، والسمات النحوية بين المتفنن والمتلقي في اطار سلاسل التفكير اللغوي والبياني، ولذلك اتحدت الجملة في بنائها في العمل الادبي بين النحاة والبلاغيين ، وصفوة القول: ان الدراسة الحديثة في بناء الجملة تهتم بترتيب الوحدات الصرفية في الجملة ، وتراعي الاعراب وتغيره للتعبير عن المعاني المختلفة ، وهذا مما بحث قديما بين علمي النحو والبلاغة(٥) .

---

(١) كتاب الواضح ، ص٢٢٨ .

(٢) السابق : ص٢٦٩ ، وينظر : تناوب حروف الجر في لغة القرآن ، د. محمد حسن عواد ، دار الفرقان الاردن — عمان ، ١٩٨٢م . وينظر : الحروف ، لابي الحسين المزني (—؟هـ) تحقيق — د. محمود حسني محمود ، د. محمد حسن عواد ، دار الفرقان ، الاردن — عمان ، ١٩٨٣م .

(٣) اسرار النحو ، ابن كمال باشا (—٩٤٠هـ) ، ص ٨١ ، ٨٣ ، تحقيق — د. احمد حسن حامد. دار الفكر، الاردن عمان ١٩٨٣م .

(٤) علم اللغة د. علي عبدالواحد وافي ، ص١٧١، ١٧٢ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة١٩٦٧م

(٥) مدخل الى علم اللغة ، د. محمود فهمي حجازي ، ص٧٠ ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، والقاهرة ، ١٩٧٨م .

وفي ضوء هذا التوحد دعا بعض المشتغلين بالنحو العربي وفقه اللغة في العصر الحاضر الى العود الى نحو العربية في طرائق جديدة ، حتى ينمو النحو ، اذ قضايا النحو لا خلاف حولها ، انما التنوع في وسائل الوصول الى هذا الفكر النحوي ، ولعل من أهم الامور التي تنبغي لطالب تيسير اللغة وانمائها ان يعرض لها المشكلة النحوية . أقول : لا بد لطالب العربية الجديد في ان يأخذ نحوا جديدا . وهذا النحو الجديد لا بد ان يكون نحوا وصفيا ، اي ان النحو يعرض للجملة العربية فيصفها ويسمي كل جزء منها بمصطلح نحوي وعلاقة كل جزء من اجزاء الجملة بما يسبقه وما يلحقـــه(١) .

ولذلك لم توضع الالفاظ ، كما انها لا تستعمل ، لتعيين الاشياء ، بذواتها ، فهي محركة للمعاني الرمزية ، فالانسان يمتلك من تجاربه ، ومن تجارب أترابه رصيدا هائلا من الصور الذهنية الكامنة . فعندما نقول : «رجل» لا يمكن ان يثير هذا اللفظ في نفوسنا شيئا ما لم يكن في ذهننا صورة ، اللفظ رمز لها ، ومحرك(٢) .

ولهذا ربطوا بين الدلالة والصورة ، باعتبار هذا الحديث لا يخرج عن الوحدة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ، ومن هنا حكموا على ان تحرك الصورة شيء بالغ التعقيد وكل معنى حادث عن تداخل دائم بين سلسلة من العلاقات او عن علاقات التقعر اللغوي حين قسموا دلالة الالفاظ الى ثلاثة مستويات :

١. دلالـــة التطابـــق .

٢. دلالـــة التضمـــن .

٣. دلالـــة التـــلازم(٣) .

---

(١) تنمية اللغة العربية في العصر الحديث . د. ابراهيم السامرائي ، ص١٣٩ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣م وينظر : مناهـــج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب ، امين الخولـــي .

(٢) ينظـــر : اللغـــة بين العقـــل والمغامرة ، د. مصطفى مندور ، ص١٧٩ ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٤م .

(٣) اللغة بين العقـــل والمغامرة ص١٧٩ .

وربما يقودنا هذا الى ما أحس به بعض المعاصرين ، من ان كتب النحو ما تزال مفتقرة الى الترتيب الاحصائي لمصادر القواعد(١) . ولذلك قامت عدة دراسات لمثل هذه الغاية ، من ذلك «دراسة اصول النحو العربي في نظر النحاة ورأى ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث(٢) ويجعل الدارس من ذلك الحديث في الوظيفة والشكل على مستوى الجملة ، ما قاله عبدالقاهر الجرجاني ، حيث ربط بين نظم الكلام وبلاغته ومعاني النحو ربطا وثيقا(٣) . وباب الاسناد دليل على ذلك(٤) . ولهذا نجد من حوافز الدرس النحوي في العربية ما يتصل بعلم البلاغة ، اذ الدراسات اللغوية سواء ما تم منها في المراحل الاولى على يد أساتذة من العرب الخلص ام ما تم على يد الاعاجم الذين تبنوا العربية وربطوا مصيرهم بمصيرها كانت تهدف ضمن ما تهدف الى تذليل الصعوبات وتمهيد السبل امام من يريد ان يتعلمها ويعرف أساليبها وخصائصها حتى يستطيع العيش بين افراد المجتمع العربي ، ويتمكن من الادراك الواعي لاسس الدين الاسلامي وتعاليمه وقوانينه ، اذا لم تكن هناك وسيلة اخرى للوصول الى هذه الغاية سوى التعرف على العربية ، والتفقه في قواعدها وانظمتها واساليبها والقدرة على فهم اسرارها وخصائصها(٥) .

ومن تلك الوجوه والخصائص والاسرار ، مسألة اللفظ والمعنى ... اذ ادرك علماء العربية من لغويين ونحويين وبلاغيين هذا الموضوع(٦) .

ومن توحد الدرس النحوي وعلم البلاغة ، ما جاء في فصل الاختصاص بعد العموم اذ العرب تفعل ذلك ، فتذكر الشيء على العموم ثم تخص منه الافضل فالافضل ، فتقول : جاء القوم والرئيس والقاضي . وفي القرآن : (حافظوا على

---

(١) كلا م العرب من قضايا اللغة العربية ، د. حسن ظاظا ، ص١٦٥ ، ١٦٦ ، مطبعة المصري ، الاسكندرية ، ١٩٧١م.

(٢) د. محمد عيد ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

(٣) السابق : ص٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٤) ينظر : من تاريخ النحو ، سعيد الافغاني ، ص١٥٦ ، ١٥٩ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨م.

(٥) دراسات في اللغة والنحو العربي ، د. حسن عون ، ص٨٥ ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ، ١٩٧٣م .

(٦) التطور اللغوي التاريخي د. ابراهيم السامرائي ، ص٣٥ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

الصلوات والصلاة الوسطى) وقال تعالى : (فيها فاكهة ونخل ورمان) ، وانها افرد الله الصلاة الوسطى من الصلاة وهي داخلة في جملتها ، وافرد التمر والرمان من جملة الفاكهة ، وهما منها للاختصاص والتفضيل ، كما افرد جبريل وميكائيل من الملائكة ، فقال : (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال)(١) .

وحياة اللغة العربية في التآلف بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ، وهذا ما حدا بالاستاذ عباس محمود العقاد ان يجعل من حديثه في اللغة والادب ، المصدر باعتباره صورة من صور الائتلاف بين النحو والبلاغة ، وسمة من سمات النحو البلاغي ،ولذلك كان من اشهر العلامات التي يستدل بها على ارتقاء اللغة ان تكون وافية بوسائل التعبير عن المعاني المجردة ، لان تجريد المعاني من المحسوسات عمل من اعمال التفكير يتقدم اليه الانسان مع تقدمه في الحضارة ، واستمراره زمنا طويلا على تعود البحث ، واستخلاص الحقائق المعنوية من حقائق الحس والعيان(٢) .

وصورة الالفاظ المترادفة (أو الترادف) في العربية توضيح للصلة بين النحو والبلاغة ، وذلك ان الالفاظ المترادفة ، هي التي يقام لفظ مقام لفظ لمعان متقاربة يجمعها معنى واحد ، كما يقال : اصلح الفاسد ، ولم الشعث ، ورتق الفتق ، وشعب الصدع(٣) .

ولذلك كان حكم اللغويين على ان دراسة المفردات او معجم اي لغة فرعا معروفا ايضا من دراسة علم اللغة ، نظرا لاننا جميعا قد اعتدنا استعمال المعاجم حيث تتمثل الثروة اللفظية لاي لغة ولو بصورة جزئية(٤) .

ومن مظاهر صلة الدرس النحوي بعلم البلاغة ، دراسة المحدثين لعلم الدلالة، ومن ذلك ما جاء في مستوى الدلالة في كتاب «فقه اللغة» للثعالبي ، ومن الواضح ان الهدف منه تعليمي ، لانه يقدم للمتأدبين الطرائق المختلفة لاستعمال الالفاظ ، ومع ذلك

---

(١) كتاب فقه اللغة . ابو منصور الثعالبي (ـ٤٣٠هـ) ص٢١ ، دار مكتبة الحياة بيروت ، (؟).

(٢) بحوث في اللغة والادب ، عباس محمود العقاد ، ص٦٢ ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٧٠م .

(٣) من مصنفات الثروة اللفظية . الاشباه والنظائر ، عبدالرحمن الهمذاني (ـ٥٧٧هـ) .

(٤) التعريف بعلم اللغة . تأليف دافيد كريستل ، ص١٤١ ، ترجمة د. حلمي خليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية، ١٩٧٩م .

فان هذا النمط من التأليف المعجمي له اهمية في الدرس اللغوي ، لانه يوضح — بطريقته الوصفية — الخصائص التي تتسم بها اللغة موضوع الدرس من حيث اللفظة المفردة ومكانها في الاستعمال ، ولقد يدرسها المحدثون الان تحت الدراسات الاسلوبية ، ويجعلها بعضهم خاصة بالمعاجـــم(١) .

ولهذا فان الدارسين لعلم اللغة الحديث لا يفصلون بين وظيفة الدرس النحوي والغاية البلاغية ، ولذلك يحاول الباحثون في علم اللغة ان يتابعوا هذه المستويات في وجودها ، وفي تطورها ، وذلك بدراستهم للاصوات ، وللمفردات ، وللمعاني ولطرق الاشتقاق ، وللتراكيب وطرق بنائها(٢) .

وتعزيز ذلك اننا لا نفصل المنهج الصوتي للبنية العربية ، عن المعنى النفسي الذي يؤثر ويفيد ، وهذا المعنى من مواطن علم البلاغة ، ويتضح ذلك في التصغير والنسب والاضافة التي هي من ابواب النحو — بما في ذلك الصرف — ومعناها في التحبب او التحقير او التعظيم او التقليل ، او غير ذلك من السجايا التي يقصدها المتفنن تلقاء المتلقي .

ويبرز ما اشرنا اليه النص القرآني ، هل يرجع اعجازه لنمط الدرس النحوي ، او لفنون علم البلاغة ، او للصلة بين القواعد النحوية والمصطلحات البلاغية ؟

والجواب : اننا نرى القرآن الكريم ، كان محورا لجميع الدراسات العربيـــة التي قامت في الاساس لخدمته ، ومن بينها الدراسات اللغوية ، ولولاه لاندثرت اللغة العربية الفصيحة واصبحت لغة اثرية تشبه اللاتينية ، او السنسكريتية(٣) .

وقد نشأ من التعليل والشذوذ ، وما اتصل به من الاوهام عند النحويين مشكلة «التعارض»(٤) بين النحو والعلوم اللغوية الاخرى كعلوم البلاغـــة(٥) ومتن اللغة

---

(١) فقـــه اللغة في الكتب العربية . د. عبده الراجحي ، ص١٦٣ ، دار النهضة العربية ، بيروت،١٩٧٩م

(٢) في علم اللغة العام . د. عبدالصبور شاهين ، ص١٤٩ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ١٩٨٠م .

(٣) فصول في فقه العربية ، د. رمضان عبدالتواب ، ص١١٥ ، مكتبـــة الخانجي القاهرة، ١٩٨٠م.

(٤) اللغة والنحو بين القديم والحديث ، عباس حسن ، ص١٨٤ ، دار المعارف بمصر ط٢ .

(٥) السابـــق : ص١٥٤ .

واصولها ... ويجيب الاستاذ عباس حسن عن هذا الوهم ، قائلا : ان هذه العلوم كلها متفرعة من اصل واحد لغاية واحدة ، هي : الفهم والافهام من اقرب غاية ، وبخير وسيلة للاداء . وان شئت فقل : انها روافد تنبع من اصل واحد ، وتتلاقى عند مصب واحد ، ولقصد معين . فلا يصح ان تتعارض او يعوق بعضها بعضا ، لكن النحو في كثير من مسائله لا يخضع لهذا القانون الطبيعي السليم بل تراه يخرج عليه — بسبب التعليل الزائف ولواحقه — في كثير من قواعده خروجا عنيفا لا سوغ ولا خير فيه(١) .

والمتتبع لتنوع الدلالة في الاساليب العربية ، يرى انها حلقة من حلقات الاتصال بين الدرس النحوي وعلم البلاغة ، ويرى ان تلك الاساليب تتفاوت في التعبير عما يجول بالخاطر ويتردد في الذهن ، فتارة يسلك المتكلم طريق المعاني الوضعية فيعرف بأنه من المتخذين طريق الحقيقة ، للتعبير عن افكارهم .

والحقيقة : هي التعبير عن المعاني ، بالالفاظ الموضوعة لها ، واغلب الاساليب من هذا الطراز .

وآنا يعبر عن المعنى بألفاظ غير موضوعة له ، فينقلها اليه لمناسبة وعلاقة ، ويعرف ذلك بالنقل ، وله طريقان : المجاز ، والكناية(٢) .

وهذا يفسر وجود المشتقات ، ومما تأكد لدى الباحثين ان اللغة ضرورة اجتماعية ، وانها وجدت للوفاء بحاجة الانسان في شتى المجتمعات ، وهذا يوضح لنا ان جميع المشتقات لم توجد في عصر واحد ، لان التطورات في الحياة قد تعاقبت في أزمنة متفاوتة واجيال متعاقبة ، وليس من اليسير ان تدرك اسبقيتها في الوجود . ولا ان تعين الوقت الذي استعملت فيه مادتها الاصلية ، والوقت الذي اريد فيه منها معناها الخاص .

---

(١) نفسه : ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) فقه اللغة العربية . د. ابراهيم محمد نجا ، ص٦٤ مطبعة زهران ، القاهرة ، ١٩٧١م .

الا ان الواقع يرشدنا الى ان المحسوسات اسبق من المعنويات ، لانها اول ما يقع عليه حس الانسان في حياته(١) .

ولذلك فان شأن علم النحو في ضوء الصلة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة هو البحث عن أحوال ألفاظ من حيث دخولها في التركيب ، مث ل: تقديم اللفظ او تأخيره ، واتصاله او انفصاله ، وحذفه او اثباته ، وزيادته او افادته لمعنى ، واعرابه او بناؤه ، وعمله في غيره او اهماله عن العمل .

فاذا درس النحاة حروف النفي في ابواب متفرقة فذلك ما يناسب موضوع علمهم، اذ يذكرون الالفاظ في مقام البحث عن حال يعرض للفظ عند وقوعه في تركيب(٢) .

ولهذا يذكر الكاتبون في طرق استعمال الالفاظ المجاز والنقل ، وقد يختلف علماء العربية او يترددون في لفظ اخذ من معنى الى اخر : اطريق أخذه المجاز ام النقل ؟ فالنقل اذا طريق من طرق استعمال اللفظ يقع في مقابلة المجاز(٣) .

والتركيب او المفرد بين النقل والمنقول ، هو صورة للصلة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة في شمولية وترتيب وانتظام .

وبما تقدم نفهم عدم القصور في الدرس النحوي او علم البلاغة ، اذا لم نقف على هذه الصلة بينهما ، ومهما يكن من امر فيجب ان نعترف بأنه اذا كان في العربية قصور فهو قصورنا ، فقد استطاع اجدادنا ان يؤدوا بلغتهم ثقافة استرعت الانظار ، وكانت موضع تقدير واعجاب(٤) .

---

(١) فقه اللغة العربية ، د. ابراهيم محمد نجا ، ص٧٠ مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

(٢) دراسات في العربية وتاريخها ، محمد الخضر حسين ، ص١٨٩ ، المكتب الاسلامي ومكتبة دار الفتح ، دمشق ، ١٩٦٠م .

(٣) دراسات في اللغة ، محمد الخضر حسين ، ص١٠ ، جمعة علي الرضا التونسي، المطبعة التعاونية ، دمشق، ١٩٧٥م .

(٤) في اللغة والادب ، د. ابراهيم بيومي مدكور ، ص٥٦ ، دار المعارف ، مصر، ١٩٧١م .

واذا كان النحو هو نظام العلاقات في السياق فمجال النظر في الزمن النحوي هو السياق وليس الصيغة المنعزلة وحيث يكون الصرف هو نظـــام المباني والصيغ يكون الزمن الصرفي قاصرا على معنى الصيغة يبدأ بها وينتهي بها ، ولا يكـــون لها عندما تدخل في علاقات السياق . فلا مفر اذا من النظر الى الزمن في الســـياق نظرة تختلف عما يكون للزمن في الصيغة لان معنى الزمن النحوي يختلف عن معنى الزمن الصرفي من حيث ان الزمن الصرفي وظيفة ، وان الزمن النحوي وظيفة السياق تحددها الضمائم والقرائـــن(١) .

حتى يتم الانسجام بين النحو والصرف ، وبين الدلالة البيانية وعلم النحـــو بما فيه الصرف ، لا بد من نظرة شمولية متوحدة بين الدرس النحوي وعلم البلاغـــة . وهذا يظهر قيمة الدراسات النحوية عند العرب ، والتي تلتها الدراسات البلاغية، على الرغم مما شاب النحو العربي من شوائب ، وما وجه اليه من نقد ، فلا أحـــد يستطيع ان ينكر قيمة النحو العربي ، ومقدرة النحاة الفائقة التي تصل احيانا الى حد الاعجاز(٢) .

ووحدة الدرس النحوي مع علم البيان ، تؤكد لنا على اننا لو اقتصرنا على مراجعة المعجمات العربية وحدها ، لاتضح لنا هذا الناموس بأجلى بيان .. اذ نرى للمادة الواحدة او اللفظ الواحد عدة معان متفرعة من معنى واحد ، ثم يتنوع المعنى على مقتضيات الاحوال(٣) .

وبهذا نفهم معنى تطور العربية في رأي الاستاذ امين الخولي ، اذ يجمل رايه قائلا : ان التقدم سنة طبيعية ، خضعت لها العربية في كل شيء ، اصواتها ، وحروفها ، وكلمها ، وجملها ، واسلوبها ، وبيانها ... الخ ، وقد تولى بالبـــيان تطورها اللغوي ، واشار الى تطورها البياني(٤) .

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها . د. تمام حسان ، ص٢٤٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٧٣م .

(٢) البحـــث اللغوي عند العرب ، د. احمد مختار عمر ، ص١٣٣ ، دار المعارف ، مصر، ١٩٧١م.

(٣) اللغة العربية كائن حي ، جورجي زيدان ، ص٥٦ ، دار الهلال ، مصر ، (؟) .

(٤) مشكلات حياتنا اللغوية ، امين الخولي ، ص٩٩ ، دار المعرفة ، القاهرة ١٩٦٥م.

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال مع مصلحته ، هيكل البلاغة واصول النحو ، لهذا توحدت القبائل في لغة ادبية ممتازة مختارة الالفاظ ، يعمد اليها الشاعر والخطيب كلما عن له القول ، وتلك كانت اللغة النموذجية ، لغة الخاصة من الناس ، اللغة التي استحقت ان تروى آثارها ، ويعتز بها طويلا(١) .

ودارس علم اللغة التاريخي بحاجة الى دراسة في علم النحو وعلم البيان ، وهذا أمر ضروري من الناحية النظرية ومن الناحية التطبيقية(٢) . وذلك لان سنة الطبيعة تقتضي ان يختلف كل جيل عن الجيل السابق له في جميع هذه الامور ، فلا بد ان تختلف هذه اللغة في كلماتها واصواتها ودلالتها وقواعدها ... باختلاف العصور واختلاف الشعوب الناطقة بها(٣) .

هل نستطيع ان نحقق هذا التدرج التاريخي واثره الاجتماعي في حياة اللغة العربية من غير توحد النظرة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة في اطار المفردات والتراكيب والسياق والنسق والبنية ؟ .

ولذلك عرفنا قيمة الدرس النحوي وعلم البلاغة في الائتلاف في فهم اللغة والمجتمع في مناشط متنوعة ، منها اللغة والحياة السياسية ، ان استعمال اللغة في جوانب النشاط السياسي المختلفة — والسياسة وجه من وجوه الحياة الاجتماعية — محوج الى فضل دراسة في كلتا الناحيتين الوصفية والتاريخية ، ودراسة هذه الوظيفة من وظائف الكلام التي من شأنها ان توقفنا على حقائق عن اللغة لا تظهرها سواها من الوظائف ، او هي لا تظهرها بنفس القوة والوضوح(٤) .

ولهذا تنوع المستوى الدلالي في التركيب النحوي البلاغي ، والدرس اللغوي على المستوى الدلالي هو غاية الدراسات السابقة عليه من صوتية وصرفية ونحوية، وليس من شك في انه اكثر هذه الدراسات صعوبة ، ذلك ان تحديد المعنى ليس امرا سهلا ، وانا لنلاحظ ذلك في استعمالاتنا اليومية للكلام ، بل ان كثيرا مما يصيبنا في

---

(١) نحو وعي لغوي ، د. مازن المبارك ، ص١٣٤ ، مكتبة الفارابي ، دمشق ، ١٩٧٠م.

(٢) في علم اللغة التاريخي ، دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى ، د. البدراوي زهران، ص٦ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٩م .

(٣) اللغة والمجتمع . د. علي عبدالواحد وافي ، ص١٥٧ ، ١٥٨ ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧١م

(٤) اللغة والمجتمع رأي ومنهج ، د. محمود السعران ، ص٧٤ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣م.

حياتنا من خلافات ومشقات وآلام مرجعه اننا لا نعرف بصورة واحدة معنى ما نقوله ، أو ما يقال لنا ، أو ما نسمعه ، أو ما نقرؤه(١) .

ومن هنا اوصى الدارسون ان يقوم العالم اللغوي بمهمة متصلة بالنحوى والبلاغي ، وهي بعد تتبع المفردات اللغوية وجمعها تاريخيا ، ان يبحث فيها من الناحية الاجتماعية وتبيين العام منها ، والخاص بطبقة من الناس ، وما اصطلحوا عليه فيما بينهم ، ثم تمييز الاستعمالات المختلفة للالفاظ . في النثر ، وفي الشعر ، في الاستعمال العادي او الفني او العلمي ، وفي الاستعمال الراقي والمبتذل(٢) .

وهذا يبرز مفهوم السلم البلاغي في أساليب الكلام ، فالكلام في مراتب الفصيح والعالي ، وما دونه في كلام العاديين ، وما دون ذلك في المرتبة الدنيا من الكلام المبتذل ، الذي لا يربي ذوقا ، ولا يدعو الى بناء مجتمع ، ومعرفته في ضوء الصورة التاريخية ، لا على انه لون من ألوان الدراسة الفنية ، والانتفاع به وتربية النفوس والعقول والوجدان .

وضعف الذوق البلاغي ترجمان عن ضعف الحس النحوي ، ولما ان ضعف ملكة البيان بضعف العرب ، وهوان شأنها ، واستبداد الاعاجم بالامر فيها ، نزلت اللغة الادبية عن مكانتها ، وبدت في غير ردائها عند كثير ، وجعل المتأدبون يوارون من ضعفهم ، ويحاولون الظهور على خلاف حقيقتهم بوسائل شتى ، ولكن امرهم لم يخف عن العارفين من اصحاب المزية فيهم ، ومما لحظ ذلك وساهم في علاجه عبد الرحمن الهمذاني الكاتب صاحب الالفاظ الكتابية(٣) . وأفاد البحث اللغوي الحديث في القرن التاسع عشر في ايضاح جوانب كثيرة حول المفردات العربية(٤) .

---

(١) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، د. عبدالراجحي ، ص٤٣ .

(٢) دلالة الالفاظ العربية وتطورها ، د. مراد كامل ، ص٣٣ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

(٣) من قضايا اللغة والنحو . د. علي النجدي ناصف ، ص٦٢ ، مكتبة نهضة مصر ، مصر ، ١٩٥٧م.

(٤) علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة ، د. محمود فهمي حجازي ، ص٨٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

ولهذا كان من ركائز الحديث في هذا المقام ، انه يجب ان تتخذ في البحث اللغوي اقدم مدون مقياسا للبحث فيما دون بعده ، ليتمكن الباحث من ان يهتدي الى حقيقة العلاقة التي تربط المدون حديثا بالمدون قديما ، ولكن بعد ان يتميز الاقدم من القديم، يجب البدء في البحث عن منشأ اللغة بالاقدم ثم يتبع بالقديم(١) .

هل كانت التراكيب في فن القول العربي في الجاهلية ، او العصر الاسلامي او الاموي ، او ما تلاها من عصور للعربية وادابها ، تعرف ان الجمال او الجلال او المقياس النحوي او البناء الصرفي ، في واحد دون الآخر ، أو في هذه النظرات وتلك المقاييس في الدرس النحوي وعلم البلاغة بوصفهما وحدة واحدة ؟

ان المتفنن في كلام العرب لا يدور في خلده الفصل بين القاعدة النحوية ، والغاية البلاغية ، عندما يقوم بعمله الادبي ، وهذا مما لا جدال فيه ، وقد اثبتت الدراسات النفسية الاجتماعية حقيقة هذا القول وصدقه(٢) .

ولو دققنا في وظائف علم اللغة لوجدناها تضم المفهوم النحوي البلاغي ، ولذلك كان الحديث حول علم اللغة وما يتناوله في مجال النحو تعاقب الكلم في الجملة . الكلمات تتعاقب في كل لغة في اماكن محددة لها ، فاذا تغيرت مواقع الكلم بشكل لا يتفق مع انماط الجمل في اللغة تصبح الجملة مجرد كلام بلا معنى . يثير فينا الضحك(٣) .

ولهذا فان الراجح بين الباحثين ان العرب لم يعرفوا الدرس اللغوي الا بعد نزول القرآن الكريم ، عندما بدأ علماء المسلمين يدرسون الاسلوب القرآني ولغته الفصيحة(٤) .

---

(١) تاريخ اللغات السامية ، تأليف ــ أ. ولفنستون ، ص.١٧ ، دار العلم ، بيروت ، ١٩٨٠م.

(٢) انظر : الاسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة ، د. مصطفى سويف ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩م .

(٣) دراسات في علم اللغة ، د. فاطمة محجوب ، ص٢١ ، دار النهضة العربية القاهرة ، ١٩٧٦م.

(٤) دراسات في علم اللغة المقارن . د. محمد عبدالصمد زعيمة ، ص٥٤ ، دار الثقافة ، القاهرة،١٩٨١م

والذي يعين قيمة الكلمة .... انما هو السياق ، اذ ان الكلمـــة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديدا مؤقتا . والسياق : هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها ان تدل عليها ، والسياق : أيضا هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها ، وهو الذي يخلق لها قيمة «حضورية»(١) .

وقد تؤدي شدة التأثر بالباعث الصوتي على توليد الكلمات او الاصوات الى ما يكاد يكون اعتقادا غامضا في وجود مطابقة خفية بين الصوت والمعنى(٢) .

وفي خاتمة المطاف ، نلاحظ ان المهتمين بالدرس النحوي من القدماء ، والمشتغلين بالدراسات اللغوية من المحدثين وأصحاب الدراسات البلاغية قديما وحديثا ، جميعهم يؤيدون الصلة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة في اطار الائتلاف والانسجام والافادة والوظيفة والغاية والاداء .

والحديث حول ما تقدم في نماء مستمر ، ومتصـــل بالنشاط الانساني ، ولا تقال فيه الكلمـــة الاخيرة .

---

(١) اللغة : ج. فندريس ، ص٢٣١ ، تعريب ــ عبدالحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص ، مكتبـة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

(٢) دور الكلمة في اللغة . تأليف ــ ستيفن اولمان ص٨١ ترجمة ــ د. كمال محمـد بشر ، مكتبـة الشباب ، القاهرة ، ١٩م .

## المصـــــــــــادر والمراجـــــــــــع


— أثر النحاة في البحث البلاغي .

د. عبدالقادر حسين ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

— اسرار البلاغـــة

عبدالقاهر الجرجاني (ـــ٤٧١هـ او ـــ٤٧٣هـ) ، تحقيق ـــ د. محمد عبدالمنعـــم خفاجي ، مكتبة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

— اسرار النحو

احمد بن سليمان بن كمال باشا (ـــ٩٤٠هـ) تحقيق ـــ د. احمد حسن حامد ، دار الفكر ، الاردن ، عمان ، ١٩٨٣م .

— الاسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة .

د. مصطفى سويف ، دار المعارف ، ومصر ، ١٩٦٩م.

— الاشباه والنظائر .

عبدالرحمن الهمذاني (ـــ٥٧٧هـ) ، تحقيق ـــ د. البدراوي زهران ، دار المعارف مصـــر ، ١٩٨٠م .

— أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث.

د. محمد عيد ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

— الالفاظ اللغوية «خصائصها وانواعها» .

عبدالحميد حسن ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧١م .

— البحث اللغوي عند العرب .

د. احمد مختار عمر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١م .

ـ بحوث في اللغة والادب .

عباس محمود العقاد ، مكتبـــة غريب ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

ـ البلاغة التطبيقية دعامة النقد الادبي السليم .

د. احمد موسى ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

ـ بناء الجملة بين منطق اللغة والنحو .

د. نجاة عبدالعظيم الكوفي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

ـ البـــيان والتبييـــن .

عمرو بن بحر الجاحظ (ـــ٢٥٥هـ) ، تحقيق ـــ عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٦٠م.

ـ تاريخ اللغات السامية .

تأليف ، أ. ولفنستون ، دار الحكمة ، بيروت ، ١٩٨٠م .

ـ تطور الدرس النحوي .

د. حسن عون ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٠م.

ـ التطور اللغوي التاريخي .

د. ابراهيم السامرائي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦م

ـ التعريف بعلم اللغة .

تأليف دافيد كريستل ، ترجمة ، د. حلمي خليل ، الهيئـــة المصرية العـــامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٩م .

ـ تفسير البحر المحيط .

محمد بن يوسف (أبو حيان الاندلسي) (ـــ٧٥٤هـ) دار الفكر ، بيروت ، (؟) .

— التلخيص في علوم البلاغة .

محمد بن عبدالرحمن القزويني (ـ٧٣٩هـ) تحقيق ـ عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (؟) ، مصورة عن النسخة المصرية ، ١٩٠٤م.

— تناوب حروف الجر في لغة القرآن .

د. محمد حسن عواد ، دار الفرقان ، الاردن ـ عمان ، ١٩٨٢م .

— تنمية اللغة العربية في العصر الحديث .

د. ابراهيم السامرائي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٣م.

— حركة الاحياء اللغوي في بلاد الشام .

د. نشأة ظبيان ، دمشق ، ١٩٧٦م .

— الحـــــروف .

أبو الحسين المزني (؟) ، تحقيق ـ د. محمود حسني محمود ، و د. محمد حسن عواد ، دار الفرقان ، الاردن ، عمان ، ١٩٨٣م .

— الخصـــائص .

عثمان بن جني (ـ٣٩٥هـ) ، تحقيق ـ محمد علي النجار ، دار الهدى بيروت ، (؟) .

— دراسات في علم اللغة .

د. فاطمة محجوب ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

— دراسات في علم اللغة .

د. كمال محمد بشر ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٩م .

— دراسات في علم اللغة المقارن .

د. محمد عبدالصمد زعيمه ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨١م .

— دراسات في العربية وتاريخها .

محمد الخضر حسين ، المكتب الاسلامي ، ومكتبة دار الفتح ، دمشق ، ١٩٦٠م.

— دراسات في فقه اللغة .

د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٠م.

— دراسات في اللغة

محمد الخضر حسين ، جمع ، علي الرضا، المطبعة التعاونية ، دمشق، ١٩٧٥

— دراســـات في اللغة والنحو العربي .

د. حسن عون ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

— الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني .

د. حسام سعيد النعيمي ، دار الرشيد ، وزارة الثقافة والاعلام العراقيـــة ، بغداد ، ١٩٨٠م .

— دلائل الاعجاز .

عبدالقاهر الجرجاني (ـ٤٧١هـ او ٤٧٣هـ) ، تحقيق ـ د. محمد عبدالمنعـــم خفاجي ، مكتبة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

— دلالـــة الالفاظ العربية وتطورهـــا .

د. مراد كامل ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

— دور الكلمة في اللغة .

ستيفن اولمان ، ترجمة ـ د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٥م

— شرح ابن عقيل

عبدالله بن عقيل (ـ٧٦٩هـ) ، تحقيق ـ محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ١٩٦١م .

— شروح التلخيص .

طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

— الصـــاحبي .

أحمد بن فارس (ـ٣٩٥هـ) ، تحقيق ـ د. مصطفى الشويمي ، مؤسسة بدران ، بيروت ، ١٩٦٤م .

— ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي .

د. ظاهر سليمان حمودة ، الدار الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٢م .

— علم الفصاحة العربية .

د. محمد علي رزق الخفاجي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٩م.

— علـم اللغـة .

د. علي عبدالواحد وافي ، دار نهضـة مصر للطبع والنشر القاهرة ، ١٩٦٧م.

— علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة .

د. محمود فهمي حجازي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٠م

— فصول في فقه العربية .

د. رمضان عبدالتواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

— الفعل زمانه وابنيته .

د. ابراهيم السامرائي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠م .

— فقه اللغة .

أبو منصور الثعالبي (ـ٤٣٠هـ) ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (؟).

— فقه اللغـــة .

د. محمد خضر ، بيروت ، ١٩٨١م .

— فقه اللغة العربية .

د. ابراهيم محمد نجا ، مطبعة زهران ، القاهرة ، ١٩٧١م.

— فقه اللغة العربية .

د. ابراهيم محمد نجا ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

— فقه اللغة في الكتب العربية .

د. عبده الراجحي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩م

— فقه اللغة وخصائص العربية .

محمد المبارك ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٢م .

— فقه اللغة المقارن .

د. ابراهيم السامرائي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨١م .

— في تاريخ العربية «أبحاث في الصورة التاريخيـــة للنحو العربي» .

د. نهاد الموسى ، الاردن ، عمان ، ١٩٧٦م .

— في علم النحو .

د. امين علي السيد ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٤م.

— في اللغة والادب .

د. ابراهيم بيومي مدكور ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١م .

— في علم اللغة التاريخي دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى .

د. البدراوي زهران ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٩م .

— في علم اللغة العام .

د. عبدالصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠ م.

— الكامـــــل .

المبرد (—٢٨٥هـ) ، تحقيق — محمد ابو الفضل ابراهيم والسيد شحاته ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، (؟)

— كتاب الواضح .

أبو بكر الزبيدي (—٣٧٩هـ) ، تحقيق — د. عبدالكريم خليفة ، الاردن — عمان ١٩٧٦م .

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل .

محمود بين عمر الزمخشري (—٥٣٨هـ) ، طبع، مصطفى البابي الحلبي واولاده مصر ، ١٩٦٦م .

— كلام العرب من قضايا اللغة العربية .

د. حسن ظاظا ، مطبعة المصري ، الاسكندرية ، ١٩٧١م .

— اللسان والانسان مدخل الى معرفة اللغة .

د. حسن ظاظا ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١م .

— اللغـــــة

ج. فندريس ، تعريب — عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، مكتبـــة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠م .

ـ اللغة بين العقل والمغامرة .

د. مصطفى مندور ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٤م .

ـ اللغة العربية كائن حي .

جرجي زيدان ، دار الهلال ، مصر ، (؟) .

ـ اللغة العربية معناها ومبناها .

د. تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

ـ اللغة والمجتمع .

د. علي عبدالواحد وافي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧١م .

ـ اللغة والمجتمع رأي ومنهج .

د. محمود السعران ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٣م.

ـ اللغة والنحويين القديم والحديث .

عباس حسن ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ .

ـ لهجات العرب .

احمد تيمور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

ـ اللهجات العربية والقراءات القرآنية .

د. عبده الراجحي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨م .

ـ مدخل الى علم اللغة .

د. محمود فهمي حجازي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨م.

ـ مشكلات حياتنا اللغوية .

امين الخولي ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

— مغني اللبيب .

ابن هشام (—٧٦١هـ)، تحقيق — محمد محيي الدين عبدالحميد المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، (؟) .

— من تاريخ النحو .

سعيد الافغاني ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨م .

— من قضايا اللغة والنحو .

د. علي النجدي ناصف ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٧م .

— مناهج البحث في اللغة .

د. تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ليبيا ، ١٩٧٤م .

— مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب .

امين الخولي ، مطبعة دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦١م .

— نحو وعي لغوي .

د. مازن المبارك . مكتبة الفارابي ، دمشق ، ١٩٧٠م .

— نظريـــة العلاقات او النظم بين عبدالقاهر والنقد الغربي الحديث .

د. محمد نايل احمد ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، (؟) .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

- ٧ -

# في الذوق الادبي

## في الاطار العام :

من القضايا البلاغية النقدية الادبية التي شغلت الدارسين ـــ قديما وحديثا ـــ قضية الذوق(١) ، وما يتصل بهذا الذوق من نقد او أدب أو فلسفة او منطق ، او اي لون من ألوان المعرفة ، فهناك الذوق النقدي(٢) ، والذوق الادبي ، والذوق البلاغي وغير ذلك من فروع الدراسات الانسانية والعلمية(٣) .

ويتمثل هذا الذوق في المتفنن صاحب النص ، وفي النص نفسه ، ولدى المتلقي ، ولهذا يحتاج الذوق في الحكم عليه الى تواصل بين مرسل ومستقبل والى مادة تصلح لان تكون وسيلة اتصال بينهما .

ولذا فان الاذواق تتنوع وتتفاوت من شخص الى آخر ، ولكنها لا تكون سائبة من غير قاسم مشترك بين الافراد في الحكم عليها ، او منظومة مشتركة في النتـــاج الادبي ، او التعليق النقدي .

يكون التفاوت في أمور طفيفة ، وبهذا فان الشكل العام في جماله او قبحه ، في حسنه او رداءته ، في قبوله او انكاره ، من القضايا التي لا يختلف عليها الجماعة ، انما يتفاوتون في تفسير الجلال في طياتها مع اتفاقهم على الجمال او نفيه .

ولا نريد للحديث في الذوق الادبي ، ان يخرج في صورة التفسير الفلسفـــي او اتجاهات المناطقة وآرائهم في تحديد أصول الذوق ، وأنماطه ، ووجوهه من خلال النظر الفلسفي او الاصول المنطقية ، انما ننظر اليه في اطار فهم الادباء والبلاغيين والنقاد اليه وذلك أنه ملكة يقتدر بها علي التمييز بين الجيد والردىء ، وتعين

---

(١) ينظر : القاضي الجرجاني «الاديب الناقد» د. محمود السمرة ، ١٤٩ـــ١٥٩، المكتب التجاري، بيروت ، ١٩٦٦م . وينظر : اسس النقد الادبي عند العرب . د. احمد احمد بدوي ، ص٨٧ـــ١٠٤. نهضـــة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٤م.

(٢) ينظر قضايا النقد الادبي والبلاغة ، د. محمد زكي العشماوي ، ص٤٢١ـــ٤٣١ ، دار الكاتـــب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

(٣) ينظر : تاريخ النقد الادبي عند العرب ، د. احسان عباس ، ص١٣٣ـــ١٤٦ ، دار الامانة ودار مؤسســـة الرسالة ، بيروت، ١٩٧١م .

صاحبها تلك الملكة على اخذ النافع واطراح غيره ، والحكم على الجيد واتباعه ، وابراز السيء واجتنابه ، او رسم الوسائل التي تؤدي الى صلاحه .

والذوق بهذا المفهوم يساعد صاحبه على اتخاذ موقف له في الحياة والادب والكون ، ويوضح له أيسر الطرق وانجعها في السلوك فيها ، او تجافيها .

والحديث في الذوق الادبي لا يقف عند التوجيه في مفهومه من حيث انه فطري طبعي او وراثي ، او مكتسب ، انما نفهمه في ثلاثة مستويات ، الاول : قابلية الانسان الى ان يكون صاحب ذوق ، الثاني : استعداده لتقبل المهارات التي تنمي الذوق ، الثالث : ان يهذب الانسان ذوقه بالدرس والمراس والتجربة والدربة .

وبهذا يكون الذوق جماع امرين هما : الطبع والاكتساب ، وهذا لا ينفي الاول دون الثاني أو يفصل أحدهما عن الآخر ، انما هما صنوان لا يفترقان .

ويتربى صاحب الذوق الادبي السليم ، على النماذج المختارة ، في الاداء والمضمون ، وعلى القضايا المؤدية الى معرفة هموم الفرد والجماعة ، والتي تعين على تشوف هواجس النفس ، وانماط الحضارة ، وتنوع سلاسل التفكير ، وطوابع الثقافة .

والذوق الادبي ، مهما تجلت أسسه وأساليبه بين الاتجاهات الادبية ، والنقدية والبلاغية يحتاج اليه الباحث من خلال الدراسات القرآنية ، واحكام الذوق في اطار القرآن الكريم .

في ضوء ما تقدم نستطيع ان نوجه الى ان الذوق الادبي ، وسيلة من وسائل كشف جماليات فن القول العربي ، ووجه من وجوه ابراز اعجاز القرآن الكريم .

هذا المفهوم يفسر قضايا الذوق التي حكم على قبولها او رفضها وعلى جمالها او قبحها ، المشتغلون بالبلاغة العربية او الادب القرآني ، مثل : «مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته» ، والمجاز المقبول والمذموم ، والخيال الذي فيه معنى من الكذب ، والاستحسان لهذه المعاني دون تلك ، ولهذه الاساليب دون غيرها . ثم الرفض لهذا المصطلح البلاغي دون ذاك .

الذوق الادبي من حيث هو حكم جمالي ، ومقياس واضح ، لا يختلف في نظرته للنص الادبي ، عنه في القرآن الكريم ، الا من حيث اختلاف معاني المضمون مع احكام القرآن ، وتوجيهاته التشريعية ، ولهذا لا يقبل الحديث من القائل :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

مهما كانت التوجيهات في انتفاع الشاعر من الممدوح ، فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

لا يقتصر الذوق الادبي ، على ابراز الجمال في كلام الناس وانما يتعداه الى البحث في جماليات القرآن الكريم ، وهذا معروف في مفهوم الذوق الادبي عند العرب والمسلمين ، لان كتاب المسلمين العظيم ، وهو القرآن الكريم ، هو الكتاب السماوي الوحيد من بين الكتب السماوية الاخرى ، الذي يتصل في فهمه واعجازه ، باللغة العربية وآدابها ، التي محورها الذوق الادبي .

ولهذا فان الحديث عن الذوق الادبي في لغة اي امة من الامم ، او في ادب اي قوم من الاقوام ، يختلف في استخدامه ووظيفته عنه في الذوق الادبي عند العرب ، في وجه ، ويتفق مع الاذواق الاخرى في الامم غير العربية ، من وجه آخر .

أما وجه الاتفاق ، فان الاذواق في أدب أي أمة من الامم بما في ذلك الادب العربي، يكشف عن جماليات فن القول في كلام الناس ، ووجه الاختلاف ان الذوق الادبي عند العرب والمسلمين ، يعدو هذه الوجهة الى أخرى وهي معرفة اعجاز القرآن الكريم .

حتى نفهم الحلقة الثانية لوظيفة الذوق الادبي عند العرب ، ينبغي ان نجد تفسيرا لذلك ، وهو أن الذوق الادبي العربي ، يكون في مصطلحه ومفهومه وطبيعته، وسيلة من وسائل الاعجاز القرآني ، ودليلا من دلائل جماله ، وسرا من أسرار بيانه وبلاغته .

ولو حاولنا ان نحلل مسائل الذوق الادبي ، لوجدناها تتطلب معرفة اللغة التي تصور المعاني ، النفسية والاجتماعية والواقعية والحضارية والدينية والمتخيلة حقيقة أو مجازا . بهذا يكون الذوق الادبي تشكيلا لغويا يحمل مضامين انسانية ،

تتنوع بتنوع اهتمامات الافراد وميولهم ونوازعهم وحاجاتهم ، وتتصل نموا او هبوطا بمهاراتهم واستعداداتهم وقدراتهم . وتتلون متأثرة بالزمان ، واخلاف المكان وتدرج الثقافة والحضارة والعادات والتقاليد وانماط الحياة — مع ذلك فان مجال الذوق الادبي ونشاطه هو التجارب الانسانية ، بجزئياتها وشمولها ، والحياة في تكيفها الاجتماعي وصلابتها ، في أمنها النفسي ، وطمأنينتها ولذا فان الذوق يتأثر بالسياق النفسي ، والنسق الاجتماعي ، والاتجاه الديني ، وهذا يعني ان التجربة في وحدتها، ومفرداتها ، وجه من وجوه الذوق ، ورافد من روافد الشرح السليم للعملية الادبية والاثر لصاحب النص من الناس ، ثم هذا يربي الذوق لدى الانسان ، ويصبح الانسان مع ذلك ، قادرا على تفهم القرآن العظيم واسرار آيات الله تعالى ، في اتباع اوامره واجتناب نواهيه ، عن علم ودراية .

فالذوق يعتمد النظرة العلمية في ترتيب مسائله ، وبناء النتائج على الاسباب ، ويرتبط بالنظرة الانسانية في تقبل اللحظات النفسية النامية في الحكم على الاثر الادبي في مواطن متفاوتة ، وذلك بما يثيره العمل الادبي من نوازع المتلقي في استجابته لذلك العمل او عدم استجابته ، ولهذا فان الذوق يرتبط في اصدار أحكامه في الصدق أو السرعة أو الخطأ أو التكاسل بقدر استجابه الشعور الانساني لعوامل المثير وهو العمل الادبي .

الذوق اذن صورة من صور تفاعل العملية الادبية مع النفس الانسانية ، شعورا وحسا ، فكرا وعاطفة .

نخلص من ذلك الى ان الذوق الادبي بين الدراسات القرآنية والبلاغية ، يحتاج الى تجلية المواطن الجيدة ، وغيرها ، التي حكم عليها النقاد والبلاغيون العرب ، ثم الوجوه التي انكرها اصحاب الدراسات القرآنية ، تلك التي تكون نابية غليظة في مفهوم البيان القرآني والذوق العربي .

هذا جميعه يفسر ، معنى الوضوح والغموض ، او الرمز والاشارة ، ومع ذلك يعرض الى ما رفضه بعض الدارسين القدامى والمحدثين في جعل المجاز مما يرد في القرآن او انه مرفوض ، ثم الى مفهوم التشكيل البلاغي في علم البديع هل هو حسن ذاتي او عرضي ، بمعنى هل نقبل ما قيل في النثر العربي ، من السجع ، وفي الشعر من القافية ، وفي القرآن من الفاصلة ، هل نقبله على عمومه ، او ان هناك

احترازا في القبول او الرفض . لا سيما انه ورد في القرآن الكريم ، وفي الفصيح من كلام العرب . وفي حديث الرسول الكريم بذلك نعرف قيمة التوحد في فهم اصول الذوق الادبي ، واستخدامه في اطار فن القول العربي ، والاعجاز القرآني .

لذلك كانت روائع البيان في لطائف التفسير في ثنايا الذوق الادبي ، والمفهوم البلاغي ، ومن ذلك : انه لا يذكر في القرآن الكريم لفظ (القتال) او (الجهاد) الا مقرونا بعبارة (سبيل الله) وذلك يدل على ان الغاية من القتال غاية مقدسة نبيلة هي (اعلاء كلمة الله) لا السيطرة . او المغنم ، او اظهار الشجاعة . او الاستعلاء في الارض ، وقد وضح هذه الغاية النبيلة قوله عليه السلام : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١) .

وهذا يوضح حقوق الناس ، ومنازلهم ، وغاياتهم ، واغراضهم في السلم والحرب في الشدة والرخاء ، في الاخذ والعطاء ، في الهدوء والشقاء ، وغير ذلك من اتجاهات الحياة المتنوعة .

**في فن القول العربي :**

ان الحديث عن الذوق الادبي بين الدراسات القرآنية والبلاغية يوجه الى مفهوم الاستحسان وعدمه في الاثر الادبي ، وقبل ذلك في النص القرآني ، وينبىء عن مفهوم الجودة والرداءة في العملية الادبية ، وابراز الاعجاز القرآني في كلام الله تعالى .

تنبه القدماء الى قيمة الذوق الادبي في معرفة الوجه البياني والنفسي والجمالي في فن القول العربي ، وما يؤول اليه هذا الفهم في معرفة مراد الله في كلامه .

وفطن بعض المحدثين الى ان الذوق الادبي يقوم على تفسير تاريخي او اجتماعي او نفسي او جمالي او لغوي ، وان كنت اميل الى استخدام المنهج المتكامل الذي يوضح الرؤية الشمولية من النص ، لاننا لا نستطيع ان نقرر اي منهج دون

---

(١) روائع البيان في تفسير آيات الاحكام من القرآن . محمد علي الصابوني : جـ١ : ٢٢٧ ، مكتبة الغزالي دمشق ، ومؤسسة مناهل العرفان ، بيروت ، جـ٣ ، ١٩٨٠م .

غيره يصلح لهذا النص دون غيره ، او لدراسة تلك الشخصية دون غيرها . بل ان الاثر الادبي نفسه هو الذي يوجه الى استخدام منهج دون غيره ، ولا يعني هذا الفصل الصارم بين هذه المناهج في تصوير الذوق الادبي ، ان الانسان صاحب العمل الادبي ابن بيئته التاريخية والاجتماعية والنفسية وهذه المضامين تحتاج الى اداء سليم ، وتشكيل صحيح حتى تشيع تجربة صاحب النص الى اوسع مدى من مفهومها في اطارها الاقليمي الضيق الى مجال انساني ارحب ولذلك فان الاداء الفصيح ينقل الهموم والتطلعات الى مجال أوسع .

من هنا رفضوا المضمون الاقليمي واللغة (اللهجة) الاقليمية ، ونظروا الى المعاني الانسانية ذات الاداء السليم ، ومع ذلك فقد ربطوا بين الادب والنقد والذوق ، وقديمة تلك المقولة التي تشير الى تلازم النقد والادب ، ولم يستطع احد جحدها او انكارها ، فحيثما وجد الادب وجد النقد الى جانبه ، والا فسنعدم التطور في النتاج الادبي ، لان فقدان النقد هو فقدان الهادي والمرشد الى الطريق السليم، والمحذر المنبه على الطريق المعوج السقيم ولا ادب بلا متذوق له(١) .

وهذا ما يقرب فهم الذوق الادبي في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية ، لان مجال الذوق في القرآن وفي الاثر الادبي ، هو النص العربي ، بشعره ونثره وفنونه المتنوعة ، فليس غريبا ان يأتي الشعر العربي بلغة شبيهة بلغة القرآن ، لان القرآن الكريم نزل بلهجة قريش التي كانت أفصح اللهجات ، وكان لقريش سيادة دينية وتجارية على العرب(٢) .

نخلص من هذا الى توحد مفهوم الذوق الادبي في معرفة جماليات فن القول العربي ، والكشف عن سر اعجاز القرآن الكريم .

ويفسر ذلك ما ذهب اليه الادباء والنقاد والبلاغيون من استجادة لون دون آخر ومن هذا حديث ابي العباس احمد بن يحيى ثعلب (ـ٢٩١هـ) ، في كتابه قواعد الشعر(٣) عن «حسن الخروج» في بكاء الطلل ، ووصف الابل ، وتحمل الاظعان ،

---

(١) البديعيات في الادب العربي ، نشأتها ـ تطورها ـ اثرها ـ علي أبو زيد ص٢١٧ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٣م .

(٢) ادب ما قبل الاسلام . محمد عثمان علي ، ص٨٣ ، المؤسسة العالمية ، بيروت ١٩٨٣م .

(٣) ص.٦ ، ٦١ ، تحقيق د. رمضان عبدالتواب . دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

وفراق الجيران ، بغير «دع ذا» و «عد عن ذا» و «اذكر كذا» «بل من صدر الى عجز لا يتعداه الى سواه ، ولا يقرنه بغيره : قال الاعشى يمدح الاسود بن منذر :

لا تشكي الي وانتجعي الاســـــ ود اهل الندى وأهل الفعـــــال

واستجادوا من أصول الذوق الادبي «اتساق النظم» وهو ما طاب فريضه ، وسلم من السناد ، والاقواء ، والاكفاء ، والاجازة ، والايطاء ، وغير ذلك من عيوب الشعر وما قد سهل العلماء اجازته من قصر ممدود ، ومد مقصور ، وضروب اخر كثيرة(١) .

ومن معالم الذوق الادبي ، استجادة صور من التشبيه دون غيرها ، من ذلك قول اوس بن حجر يشبه ارتفاع اصوات المقاتلين في الحرب تارة وهمودها وانقطاعها تارة بصوت التي تجاهد امر الولادة .

لها صرخـــة ثم اسكاتـــــة كما طرقـــت بنفاس بكـــــر(٢)

وهناك طريقة معروفة للعرب في تشبيهاتها ، وهذا يعني توحد ركائز الذوق الادبي ، والى هذا تنبه ابن طباطبا (ــ٣٢٢هـ) ، اذ يقول : واعلم ان العرب اودعت اشعارها من الاوصاف والتشبيهات والحكم ما احاطت به معرفتها ، وادركه عيانها ، ومرت به تجاربها(٣) .

ويحتاج هذا الذوق الى دربة وتهذيب وتثقيف ، ومن ذلك ما يحكى عن خالد بن عبدالله القسري ، فانه قال : «حفظني ابي خطبة ، ثم قال لي : تناسها ، فتناسيتها ، فلم ارد بعد ذلك شيئا من الكلام الا سهل علي ، فكان حفظه لتلك الخطب رياضـــة لفهمه ، وتهذيبا لطبعه ،وتلقيحالذهنه ، ومادة لفصاحته ، وسببا لبلاغته ، ولسنه وخطابته(٤) .

---

(١) السابـــق ص ٦٧ .

(٢) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر (ــ٣٣٧هـ) ، ص ١٢٥ ، تحقيق ــ د. محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

(٣) عيار الشعر ، ص.١ ، تحقيق ــ د. طه الحاجري ، و د. محمد زغلول سلام المكتبة التجاريـــة الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

(٤) السابـــق : ص.١ .

ولذلك كانت علة حسن الشعر من مواطن الذوق الادبي وعلة حسن الشعر وعيار الشعر ، ان يورد على الفهم الثاقب ، فما قبله واصطفاه فهو واف ، وما مجه ونفاه فهو ناقص . والعلة في قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه ، ونفيه للقبيح منه ، واهتزازه لما يقبله ، وتكرهه لما ينفيه ، ان كل حاسة من حواس البدن انما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له اذا كان وروده عليها لطيفا باعتدال لا جور فيه(١) .

واحتفل الذوق الادبي بوضع الالفاظ موضعها اللائق بها ، وذلك الا يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضا ، وهذا هو المعاظلة التي وصف بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، زهير بن ابي سلمى بتجنيها ، فقال : كان لا يعاظل بين الكلام ، لان المعاظلة : المداخلة(٢) .

ويؤدي هذا الى معرفة ما كان بقوله جعفر بن يحيى بن خالد ، لكتابه : ان استطعتم ان يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا ، فهذا امر لهم بالايجاز وتجنب الاطالة ، وقد كان جعفر كبيرا في هذه الصناعة(٣) .

ويتصل بالذوق الادبي الخط الجيد ، وما يلزم ذلك من فن الكتابة ، ولهذا جود العرب في خطوطهم ، كما تنوقوا في خطوط القرآن الكريم ، ومن ذلك ما اورده ابو هلال العسكري الحسن بن سهل (ـ٣٩٥هـ) ، اذ يقول : واحسن ما قيل في صفة الخط الجيد ما اخبرنا به ابو أحمد(٤) ، قال اخبرنا الصولي قد سئل بعض الكتاب عن الخط متى يستحق ان يوصف بالجودة ، فقال : اذا اعتدلت اقسامه وطالت الفه ولامه ، واستقامت سطوره ، وضاهى صعوده حدوده ، وتفتحت عيونه ولم تشتبه راؤه ونونه ، واشرق قرطاسه ، واظلمت انفاسه (اي المداد) ، ولم تختلف اجناسه ، واسرع في العيون تصوره والى العقول تثمره ، وقدرت فصوله ، واندمجت وصوله ، وتناسب دقيقه وجليله ، وخرج عن نمط الوراقين ، وبعد عن تصنع المحررين ، وقام لكاتبه مقام النسبة والحلية(٥) .

---

(١) نفسه : ص١٤ .

(٢) سر الفصاحة ، عبدالله بن سنان الخفاجي (ـ٤٦٦هـ) ، ص١٤٨ ، شرح وتصحيح : عبدالمتعال الصعيدي ، طبع ـ محمد علي صبيح واولاده ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

(٣) السابق : ص٢٠٠ .

(٤) وهو ابو احمد العسكري (ـ٣٨٢هـ) .

(٥) ديوان المعاني : ٢ : ٧٦ ، طبع ـ مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ .

ويدور في مفهوم الذوق الادبي ، الاسماء وما تحمل من معان ، من ذلك ما اورده ابو هلال العسكري (ـ٣٩٥هـ) ، في كتابه «الصناعتين» ، اذ يقول : دخل فيروز حصين على الحجاج ـ وعنده الغضبان القبعثري ـ فقال له الحجاج : يا فيروز ، زعم الغضبان ان قومه خير من قومك . فقال : اكذاك يا غضبان ؟ قال نعم. فقال فيروز : اصلح الله الامير اعتبر قومي وقومه باسمائهم ، هذا غضبان ، غضب الله عليه ، والقبعثري اسم قبيح ، من بني ثعلبة شر السباع ، ابن بكر شر الابل ، ابن وائل له الويل ، وأنا فيروز فيروزيه ، حصين حصن وحرز ، والعنبر ريح طيبة ، من بني عمرو وعمارة من تميم تم ونما ، فقومي خير من قومه ، وانا خير منه(١) .

ومن دقائق الذوق الادبي ، ما اورده ابن رشيق القيرواني (ـ٤٥٦هـ) ، اذ يقول : وسمع ابن عتيق قول ابن ابي ربيعة المخزومي :

بينما ينعتنني ابصرنني ... دون قيد الميل بعدوبي الاغر

قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ؟ ... قالت الوسطى : نعم ، هذا عمر

قالت الصغرى : وقد تيمتها ... قد عرفناه ، وهل يخفى القمر

فقال له : انت لم تنسب بهن ، وانما نسبت بنفسك ، وانما كان ينبغي لك ان تقول : قالت لي فقلت لها ، فوضعت خدي فوطئت عليه . وكذلك قال له كثير لما سمع قوله :

قالت لها اختها تعاتبها ... لا تفسدن الطواف في عمر

قومي تصدى له لابصره ... ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها : قد غمزته فأبى ... ثم اسبطرت تشتد في أثري

أهكذا يقال للمرأة ؟؟ انما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة قال بعضهم ـ وأظنه عبدالكريم(٢) ـ : العادة عند العرب ا نالشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم

---

(١) كتاب الصناعتين «الكتابة والشعر» ، ص٣٣٤ ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، طبع ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، (؟) .

(٢) وهو عبدالكريم النهشلي (ـ٤٠٣هـ) صاحب المتع في صنعة الشعر . وقد حقق مختارات منه د. منجي الكعبي ، الدار العربية ، ليبيا ، تونس ، ١٩٧٨م .

ان يجعلوا المرأة هي الطالبـــة والراغبـــة والمخاطبـــة ، وهنا دليل على كرم النحيزة في العرب وغيرتها على الحرم(١) .

واكثر ما تعتد العرب به في المدح الافعال التي تتجشم الانفس فيها الضرر لنفع غيرها ممن له ادنى استحقاق او حاجة الى ذلك . ولهذا قال أبو الطيب المتنبي :

لولا المشقة ساد الناس كلهم  الجود يفقر ، والاقدام قتـــال(٢)

**في الدراسات القرآنيـــة :**

تحدثنا عن مفهوم الذوق عند الادباء والنقاد والبلاغيين ، وذلك لان كلمة الذوق مقيدة «بالادب» فيما ندرسه في بحثنا هذا «الذوق الادبي» ، ثم عرضنا الى مجالـــه وخصائصه من خلال فن القول العربي .

هذا جميعه ينتهي بنا الى معرفة الطريق الموصل الى معرفة الذوق الادبي في القرآن الكريم ، ولا يعني هذا التقسيم الفصل بين مفهوم الذوق الادبي بين الدراسات القرآنية والبلاغية ، انما يعني هذا التدرج السليم ، بين الحديث عن الوسيلة ، ثم معرفة الصلة بين هذه الوسيلة وما تخدمه من تفسير وتوجيه لمعرفة مراد الله تعالى من كلامه ، في اطار بلاغي واضح .

ومع ذلك فان معرفة دقائق القرآن ، واسرار آياته ، ومعالم احكامه ، تنبني على فهم الوسيلة البلاغية من خلال طرائق فن القول العربي ، التي عرضنا اليها — فيما تقدم — اما الان ، فالحديث يوضح بعض صور من ألوان القرآن الكريم في خطابه ، وجدله ، وحديثه ، وايعاده ، ووعيده ، وسهولة ألفاظه ، وطول سوره، وقصرها ، وتصوير ما في النفوس وما يعتمل فيها ، وتوجيه الضالين وارشادهم ، وتقديم مفهوم للحياة في تفردها وتجمعها ، في همومها وسقمها ، وفي فرحها سخطها ، في ضيقها وفي سعتها ، في النظرة الحالية والمستقبلية ، في الاعتبار بالماضي ووقائعه،

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ٢ : ١٢٤ ، تحقيق — محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٢م .

(٢) منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجني (—٦٨٤هـ) ، ص١٦٤ ، تحقيق محمد الحبيب بـن الخوجة ، تونس ، ١٩٦٦م .

وذلك كله من خلال الحرف ، والكلمة ، والآية ، والسورة ، والسور ، وفي اطار المثل ، والحكاية ، والقصة ، والخبر . في تشكيل متنوع ، من استعارة ، وتشبيه ، وكناية ، وفاصلة قرآنية ، وتقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وتعريف وتنكير ، وايجاز واطناب ومساواة ، وما عدا ذلك مما شاع في الدراسات البلاغية من مصطلحات وفنـــون .

اننا نوجه الى معنى ـــ تقدم ـــ في أن الذوق الادبي في كلام الله تعالى لا يحتمل الا وجها واحدا وهو ارشاد الناس الى صلاحهم ، وتقديم ما ينفعهم في حياتهم ومماتهم . بخلاف ما يؤول اليه الذوق الادبي في بعض حالات النص الادبي من غاية لصاحب النص في منفعة خاصة له على حساب غيره .

ولذلك كان الذوق الادبي في الدراسات البلاغية يتفق مع مفهوم الذوق الادبي في الدراسات القرآنية ، اذا راعى صاحب النص الادبي تعاليم الشريعة الاسلاميـــة من صدق وعفة وخدمة للفرد والجماعة ، والحفاظ على الحقوق والواجبات ، بين الناس ، ومع رب الناس . وما خالف ذلك عد من الاختلاف في مفهوم الذوق الادبي بين النص الانساني ، والنص القرآني .

ولهذا فان الكلام اذا وقع منه تعالى فيجب ان يكون دلالة ، فان كان خيـــرا فيجب ان يعلم انه تعالى قصد به الاخبار ، ويعلم انه صدق ، من حيث لا يجوز عليه الكذب ، وان مراده تعالى ما يقتضيه ، لانه لا يجوز عليه اللبس(١) .

وعلم الفصاحة واصول البيان من الاسس التي يعتمدها صاحـــب الذوق الادبي في فهم فن القول العربي ، والاعجاز القرآني ، ولهذا وضح هذا الامر عبدالقاهر الجرجاني (ـــ٤٧١هـ او ٤٧٣هـ) ، اذ يقول : واعلم انك لا ترى في الدنيا علما قد جرى الامر فيه بديئا واخيرا على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبـــيان اما البدىء فهو انك لا ترى نوعا من أنواع العلوم الا اذا تأملت كلام الاولين الذين علموا الناس وجدت العبارة فيه اكثر من الاشارة ، والتصريح اغلب من التلويح ، والامر في علم الفصاحة بالضد من هذا ، فانك اذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله

---

(١) المغني في ابواب التوحيد . عبدالجبار الاسدآبادي (ـــ٤١٥هـ) ، ج١٦ ص٣٥٣ ، تحقيق ـــ امين الخولـــي ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

او كله رمزا ووحيا وكناية وتعريضا ، وايماء الى الغرض من وجه لا يفطن له الا من غلغل الفكر وادق النظر ، ومن يرجع من طبعه الى المعية يقوى معها على الغامض ، ويضل بها الى الخفي(١) .

واحتفل الذوق الادبي في ضوء الدراسات القرآنية بالمثل السائر ، كقوله تعالى : (ليس لها من دون الله كاشفة) الآية ٥٨ من سورة النجم ، وقوله سبحانه : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) ، والآية ١٨٨ من سورة النمل وقوله عز وجل : (صنع الله) ، وقوله : (صبغة الله ومن احسن من الله صبغة) الآية ١٣٨ من سورة البقرة وقوله تبارك وتعالى : «ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها» الآية ٧ من الاسراء ، الى كثير من الآي(٢) .

ومما جاء من ذلك في السنة قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «الحلال بين والحرام بين»(٣) .

ومن أسرار الذوق الادبي ، «باب ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام» وهو من مخترعات قدامة بن جعفر (ــ٣٣٧هـ) ، ومما جاء منه في هذا الباب ، وهو ما سماه بعده «باب التمكين» قوله تعالى : (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل في اموالنا ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد) الآية ٨٧ من سورة هود . فانه لما تقدم في الآية ذكر العبارة وتلاه ذكر التصرف في الاموال اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب ، لان الحلم العقل الذي يصح به تكليف العبادات ، ويخص عليها . والرشد : حسن التصرف في الاموال(٤) .

وهذا الوجه من الذوق الادبي ينميه ويرعاه ان نزداد من الاتصال بهذه الاساليب القرآنية ، ولذلك قالوا : من اراد ان يعرف جوامع الكلم ويتنبه على فضل الاعجاز

---

(١) دلائل الاعجاز . ص٣٤٩ ، ٣٥٠ ، تصحيح ــ السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت، ١٩٨٠م . نسخة مصورة عن المصرية .

(٢) تحرير التحبير ، ابن ابي الاصبع المصري (ــ٦٥٤هـ) ص٢١٧ ، تحقيق د. حفني محمد شرف ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ .

(٣) كشف الخفاء ومزيل الالباس ، اسماعيل بن محمد العجلوني (ــ١١٦٢هـ) ١ : ٣٦٥ دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٥١هـ.

(٤) بديع القرآن ، ابن ابي الاصبع المصري (ــ٦٥٤) ، ص٩٠ ، تحقيق د. حفني محمد شرف ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ط٢ .

والاختصار ويحيط ببلاغة الايماء ويفطن لكفاية الايجاز فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام ، فمن ذلك قوله عز ذكره : (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) : كلمة واحدة تفصح عن الطاعات كلها في الائتمار ، و الانزجار ، وذلك لو ان انسانا اطاع الله سبحانه مائة سنة ثم سرق حبة واحدة لخرج بسرقتها عن حد الاستقامة(١)

ومن ركائز الذوق الادبي ، في الدراسات القرآنية ، قوله عز وجل : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) الآية ٥ من سورة الجمعة وهذا تشبيه قد اخرج ما لا يعلمه بالبديهة الى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا في الجهل بما حملا ، وفي ذلك العيب لطريقة من ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية(٢) .

وحقيقة الامر في الذوق الادبي في ضوء الدراسات القرآنية والبلاغية ، ما اجمله يحيى ابن حمزة العلوي (ـ٧٤٩هـ) ، في خواص ثلاثة :

الخاصة الاولى : الفصاحة في الفاظه على معنى انها بريئة عن التعقيد ، والثقل خفيفة على الالسنة تجري عليها كأنها السلسال ، رقة وصفاء وعذوبة وحلاوة .

الخاصة الثانية : البلاغة في المعاني بالاضافة الى مضرب كل مثل ، ومساق كل قصة وخبر ، وفي الاوامر والنواهي ، وانواع الوعيد ، ومحاسن المواعظ ، وغير ذلك مما اشتملت عليه العلوم القرآنية ، فانها مسوقة على ابلغ سياق.

الخاصة الثالثة : جودة النظم وحسن السياق(٣) .

ونستطيع ان نقول ان الذوق الادبي يتنوع في الدرس البلاغي ، الى ما يسمى بالتشكيل او المصطلح او الصورة ، ويتماثل مع النص القرآني بما يرسم حياة الفرد والجماعة بطريقة هادية ، لا هوى فيها ولا ضلال . وانما حياة ملؤها الخير والسعادة والطمأنينة .

---

(١) الاعجاز والايجاز ، ابو منصور الثعالبي (ـ٤٢٩هـ) ، ص١٠ ، دار صعب ، بيروت ، (؟) .

(٢) النكت في اعجاز القرآن ، علي بن عيسى الرماني (ـ٣٨٦هـ) ، ص٨٤ ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ، تحقيق ـ محمد خلف الله ، و د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨م.

(٣) كتاب الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ، ج٣ : ٤٠٤ ، ٤٠٥ دار الكتب العلمية ، بيروت ، (؟) مصورة عن نسخة دار الكتب الخديوية ، مصر ، ١٩١٤م .

والذوق في اطار الدراسات القرآنية والبلاغية ، صورة من صور الحياة النامية التي تصل الفن بصاحبه وبالمجتمع ، بهذا نفهم معنى الاصالة والمعاصرة ، والاستمرار والوضوح ، والاستخدام لمفهوم الذوق الادبي ، ونعرف قيمته بوصفه وسيلة من وسائل معرفة الاعجاز القرآني ، واداة من ادوات البيان القرآني ، ودلالة من دلائل اسراره ، وطريقة من طرائق معرفة مراد الله تعالى في كلامه .

لا يدعي هذا البحث انه الكلمة الاخيرة في موضوع «الذوق الادبي» ولا يقطع بانه أحاط بالموضوع من جوانبه كلها ، انما هو جهد انساني يعتريه النقص مع ما يحوطه من جد واستقصاء ، واذا كان فيه من تتميم واستدراك ، فهذه سمة الدراسات الانسانية ، ومعلم على الجهد الانساني ، في انه ينضم الى غيره من جهود الاخرين ، ليبني التفكير الانساني ، ويؤسس على ضوء الدرس والبحث والموضوعية .

# المصـــــــادر والمراجـــــــــع


— القرآن الكريم .

— اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله .

عبدالكريم النهشلي (ـ٤٠٣هـ) ، تحقيق د. منجي الكعبي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، ١٩٧٨م .

— ادب ما قبل الاسلام .

محمد عثمان علي ، المؤسسة العالمية ، بيروت ، ١٩٨٣م .

— أسس النقد الادبي عند العرب .

د. احمد احمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

— الاعجاز والايجاز

أبو منصور الثعالبي (ـ٤٢٩هـ) دار صعب ، بيروت ، (؟) .

— بديـــع القرآن .

ابن ابي الاصبع المصري (ـ٦٥٤هـ) ، تحقيق ـ د. حفني محمد شرف ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ط٧ .

— البديعيات في الادب العربي ، نشأتها ، تطورها ، اثرها .

علي ابو زيد ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٣ .

— تاريخ النقد الادبي عند العرب ، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجـــري .

د. احسان عباس ، دار الامانة ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧١م .

— تحرير التحبير .

ابن ابي الاصبع المصري (—٦٥٤هـ) تحقيق — د. حفني محمد شرف ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ .

— دلائـــل الاعجـــاز .

عبدالقاهر الجرجاني (—٤٧١ او ٤٧٣هـ) تحقيق — السيد محمد رشيد رضـــا دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٠م .

— ديـــوان المعـــاني .

ابو هلال العسكري الحسن بن سهل (—٣٩٥هـ) طبع — مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٩٥٢م .

— روائع المعاني تفسير آيات الاحكام من القرآن .

محمد علي الصابوني ، مكتبة الغزالي ، دمشق ومؤسسة مناهل العرفـــان ، بيروت ، ١٩٨٠م .

— ســـر الفصـــاحة .

عبدالله بن سنان الخفاجي (—٤٦٦هـ) ، شرح وتصحيح — عبدالمتعال الصعيدي طبع ، محمد علي صبيح واولاده ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

— العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقـــده .

الحسن بن رشيق القيرواني (—٤٥٦هـ) ، تحقيق — محمد محيي‌الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٢م .

— عيار الشعر .

ابن طباطبا العلوي (—٣٢٢هـ) ، تحقيق — د. طه الحاجري ، و د. محمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

— القاضي الجرجاني «الاديب الناقد» .

د. محمود السمرة ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٦٦م .

— قضايا النقد الادبي والبلاغة .

د. محمد زكي العشماوي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

— قواعد الشعر .

احمد بن يحيى ثعلب (—٢٩١هـ) ، تحقيق — د. رمضان عبدالتواب ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

— كتاب الصناعتين ، «الكتابة والشعر» .

أبو هلال العسكري الحسن بن سهل (—٣٩٥هـ) ، تحقيق — علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، طبع ، عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ، (؟) .

— كتاب الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز .

يحيى بن حمزة العلوي (—٧٤٩هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (؟) .

— كشف الخفاء ومزيل الالباس .

اسماعيل بن محمد العجلوني (—١١٦٢هـ) ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٥١هـ .

— المغني في ابواب التوحيد ، الجزء السادس عشر .

عبدالجبار الاسد آبادي (—٤١٥هـ)
تحقيق — امين الخولي ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

— منهاج البلغاء وسراج الادباء .

حازم القرطاجني (ـ٦٨٤هـ) ، تحقيق ـ محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ، ١٩٦٦م .

— نقد الشعر .

قدامة بن جعفر (ـ٣٣٧هـ) ، تحقيق ـ د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، مكتبة اللكيات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

— النكت في اعاجز القرآن .

علي بن عيسى الرماني (ـ٣٨٦هـ) ، ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ، تحقيق ـ محمد خلف الله احمد ، و د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨م .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

— ٨ —

قـــراءة فـــي

# جمهرة اشعار العرب

تنازع الادباء ، والبلاغيون كتاب «جمهرة اشعار العرب» في تصنيفه ، هل هو كتاب في الادباء والشعراء ، او صورة لتدرج الشعر ، وحديث عن اصحاب المعلقات ، او هو صورة من صور التأليف في المجموعات الشعرية للعرب ، كما ينم عن ذلك عنوانه ، او هل هو لون من ألوان التفكير في الموروث العربي . لو وضعت هذا الكتاب في تلك الدوائر ، ووازنته بتلك المعايير ، فلن تجد خللا في تقييمه ورصده ازاء تلك الظواهر ، لانك تجد فيه حديثا قريبا او بعيدا في تفسير تلك المسائل . او التعرض لها ، ايجازا او تفصيـــلا .

مع ذلك فان المشتغلين بالبلاغة العربية ، يعرفون ان التأليف في البلاغـــة العربية ، لا يقف عند الحديث في مفردات علومها من معان وبيان وبديع ، وما في ذلك من حديث عن الفصاحة والبلاغة ، وما يتلو من اعلان من باب في السرقات الشعرية والاخذ وحسن الابتداء والتلخص والانتهاء . بل يتعداه الى الاثر الادبي في تحليلـــه او شرحه ، او اختياره ، او التوجيه الى مسألة من مسائل البلاغة ، او الى قضية من قضايا البيان العربي . ومن هذا ما نجده في المقدمة التي تتضمن في بداية كتاب «جمهرة اشعار العرب» للقرشي ، اذ فيها حديث عن «الالتفات» و «حذف الايجاز» ، ومراعاة المقام ، وغير ذلك من الاراء والاتجاهات في فهم البلاغة العربية ، مع ان الاختيار هو منهج ينبىء عن الذوق البلاغي ، والحس البياني ، في اخذ هذا دون ذاك ، وفي التوجيه الى ناحية دون اخرى .

ويلح بعض دارسي البيان العربي في العصر الحاضر على ان اهم الكتب التي تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث او ألفت فيها خاصة : هي كتاب جمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي ، ففي مقدمتها بحوث موجزة طريفة تتصل بالبلاغة وكتاب البيان والتبيين للجاحظ (ـــ٢٥٥هـ)(١) .

هذا الحديث لا ينفي عن كتاب «الجمهرة» للقرشي ، سمة الادب ، او التأريخ لبعض رجاله او اغراضه الشعرية ، انما يضيف اليه بابا من ابواب فن القـــول العربي ، الا وهو باب البيان ، وذلك اننا نجد في مقدمة كتاب «الجمهرة» للقرشي ، آراء متفرقة في البلاغة والبيان ، فهو يعرف الالتفات ويشير الى ان العرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب ، ويعرف مجاز الحذف ويفيض في شرحه(٢) .

(١) من مقدمة للدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي ، ص٩ ، كتاب «الايضاح في علوم البلاغة» دار الكتـــاب اللبناني ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٥م .
(٢) الســـــابق : ص٢٦ .

ولهذا يتمثل الرأي البياني في كتاب «جمهرة اشعار العرب» للقرشي ، في المقدمة وما فيها من مسائل البلاغة العربية ، ثم في منهجه في الاختيار ، وقيمة ذلك في توجيه البيان العربي ، ثم في استخدامه المنهج الادبي وسيلة لتعدية الفكر البياني .

**مقدمة الكتاب ومسائلها في البلاغة العربية : ــ**

صدر ابو زيد القرشي كتابه «الجمهرة» بمقدمة انتقاديـــة يمكن تقسيمها الى ثلاثة أقسام : قابل في القسم الاول منها بين لغة الشعر ولغة القرآن ، واظهر ان القرآن لم يأت العرب بلغة جديدة ، فكل ما فيه من مجاز وغريب استعمله العرب في شعرهم ، وقصدوا به الى المعني الذي قصد اليه القرآن .

وذكر في القسم الثاني اول من قال الشعر ، فروى اشعارا للملائكة وادم وابليس والعمالقة وعاد وثمود والجن ، ثم انتقل الى رأي النبي واصحابه في الشعر فذكر ان النبي كان يسمعه ويجيز عليه .

وخص القسم الثالث بتعيين طبقات الشعراء وذكر اسمائهم واورد طرفا من اخبارهم وأحوال اللعماء فيه(١) .

مع ذلك فقد عرض القرشي الى معنى اختلاس المعنى ، ومفهوم الاصل في المعاني ، وهذا يؤيد قيمة الحس البياني الذي جعل القرشي يتدرج في تفسيره لما يريد اذ يقدم الاخبار ثم يعرض بعد ذلك ما يتصـــل بما تقدم من اشعار ، وما يتفق من الاشعار مع ما جاء في القرآن الكريم ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ويدور الحديث في المقدمة حول ركائـــز من مفهوم البيان ، وهذا ما استخدمه فيما بعد في عرض البيان . مثل الجاحظ (ـــ٢٥٥هـ) ، وذلك ان هناك تعارضا بين اللغات ، ولا تعرف ان هذه الدقة هي الاصل والسابقة او تلك الفرع والتاليـــة ، ولهذا لا نستطيع ان نحكم على هذه اللفظة فيما اذا كانت مأخوذة من تلك اولها الاولوية ، هذا اذا ما حكمنا للالفاظ بالسبق اذ ربما تكون على غير ذلك .

---

(١) من مقدمة ناشر الكتاب ص٥ ، ٦ ، دار صادر ، بيروت ، دار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٣م .

ثم من حيث البيان ، ما سماه القرشي باسم «الكف» وهو ما تعارف عليه البلاغيون فيما بعد باسم «الحذف» او ايجاز الحذف .

وعرض القرشي الى معنى هذا الحذف ، في كلام العرب ، ثم ما يتفق مع هذا الحذف في كلام الله تعالى ، وكان القرشي واعيا لما يقول ، اذ جعل هذا الحذف في المعنى لا في اللفظ ، والاحتراس في هذا المفهوم حتى لا يقع في محذور وهو ان كلام الله تعالى فيه ألفاظ محذوفة ، والقرشي يعلم ان كلام الله لا نقص فيه ، ولذلك جعل الكف او الحذف في المعنى لا في الالفاظ خوفا من ان يساور المطلع على كتابته في انه يطعن في ألفاظ القرآن نقصا . ولذا تراه يقول ، ومجاز المعاني ، مثل قول امرىء القيس بن حجر الكندي :

قفا فاسألا الاطلال عن أم مالك وهل تخبر الاطلال غير التهالك

فقد علم ان الاطلال لا تجيب اذا سئلت ، وانما معناه : قفا فاسألا اهل الاطلال ، وقال الله تعالى : (واسأل القرية التي كنا فيها) يعني : اهل القرية . وقال الانصاري(١):

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

أراد : نحن بما عندنا راضون ، وأنت بما عندك راض ، فكف عن خبر الاول ، اذ كان في الاخر دليل على معناه(٢) .

وأخذ البلاغيون هذا الشاهد على حذف المسند(٣) ، والحذف هنا المعنى ، لا اللفظ ، لانه لو زيد اللفظ لاختل الوزن في كلام الانصاري ، ولا يجرؤ احد ان يقول ان كلام الله فيه نقص .

---

(١) وهو : عمرو بن امرىء القيس الانصاري ، ونسب الى قيس بن الخطيم : عروس الافراح ، ٢ — ٦ ، وينظر معاهد التنصيص ، ١ : ١٨٩ .

(٢) الجمهرة ، دار المسيرة ، ص٤ .

(٣) ينظر التلخيص ، الخطيب القزويني (—٧٣٩هـ) ص ١٠١ ، ١٠٢ ، تحقيق ، عبدالرحمن البرقوقي دار الكتاب العربي ، بيروت (؟) . مصورة عن النسخة المصرية ١٩٠٤م .

وزيادة الاحتراس البياني عند القرشي جعله ، يدخل قضية الزيادة في المعنى لا في الالفاظ ، لان الزيادة في القرآن الكريم تعني الاستغناء ، ونحن لا نستطيع أن نقول ذلك في كلام الله تعالى ، ولكن اسلوب الزيادة في القرآن ، هو طريقة من الطرائق التي اعتادها العرب في اساليبهم ، والقرآن معجز بأسلوبه وألفاظه ومعانيه، وبلاغته أنها من مفردات العرب وأساليبهم ، ولكنه يسمو على ما لديهم من بيـــان ولسن وفصاحـــة .

ويحترس القرشي في معنى الكف أو الحذف ، في أنه لا يتم الا ان وجدت القرينة الدالة على الحذف ، والقرينة التي أشار اليها القرشي هي لفظية ، ومعنوية في النسق ، وفي سياق الكلام ، ومعنى ذلك اذا تعذر تقدير المعنى المحذوف ، وعدم وجود دليل يعين على تقدير المعنى المحذوف ، فلا ينعقد الكف ، ولا يتقبـــل الحذف من الوجهة البيانية المعتمدة على المعنى في الايجاز والحذف ، وايجاز الحذف باب من أبواب البلاغة(١) .

وتحدث القرشي عن مذهب من مذاهب البيان عند العرب ، وهو ان العرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب ، قال خفاف بن نلبة السلمي :

فان تك خيلي قد اصيب صميمهـــا فعمدا على عيني تيممت مالكـــا

أقـــول له والرمـــح يأطـــر متنـــه تأمـــل خفاقـــا انني انـــا ذلكـــا

معناه تأملني فأنا هو ، وقال الله تعالى : (ألم ذلك الكتاب) ، يعني : هو هذا الكتاب(٢)

وتناول البلاغيون فيما بعد هذا الموضوع بعنوان «الالتفات» اذ جعله بعضهم من مفردات علم المعاني(٣) ، وبعضهم الاخر من مصطلحات علم البيان(٤) .

---

(١) ينظـــر : معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، عبدالرحيـــم العباسي (ـــ٩٦٣هـ) ، ١ : ١٩٠، وينظر التلخيص : ص١٠٢ .

(٢) الجمهرة ، دار المسيرة ، ص٥ .

(٣) ينظـــر المفتاح ، أبو يعقوب يوسف بن محمد الســـكاكي (ـــ٦٢٦هـ) ، ص ٩٥ ، طبع ـــ مصطفـــى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

(٤) ينظـــر : المثل السائر : ٢ : ١٧٠ .

ولا يقف القرشي عند هذه الالوان البلاغية في مقدمتـــه ، بل يعرض الى مفهوم المجاز ، وهو شعبة من شعب البلاغة ولكنه نحا فيه منحى ابي عبيدة (ـــ٢٠٩هـ) ، معمر بن المثنى في كتابه «مجاز القرآن»(١) .

ومن ذلك ايراده بيتا لامرىء القيس بن حجر في موافقة اللفـــظ :

وتبرجـــــت لتروعنـــــــا فوجـــدت نفسي لم تـــرع

وقال تعالى (غير متبرجات بزينة) ، والتبرج : هو ان تبدى المرأة زينتها(٢) . وهذا هو ما أشار اليه البلاغيون باسم «المجاز اللغوي» .

مع ذلك فقد أشار القرشي في استخدامه الى المجاز الاصطلاحي ، اذ يقول ، قال الاعشى :

تقـــول بنتي وقد قربت مرتحـــلا يا رب جنـــب ابي الاوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي نومـــا فان لجنـــب الحـــي مضطجعا

الصلاة ها هنا : الدعاء ، قال تعالى : (وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم)(٣) .

وتحدث القرشي عن علاقات المجاز ، ومن ذلك ، ما اورده للاعشى :

بكأس كعين الديـــك باكرت خدرها بفتيـــان صدق والنواقيس تضرب

الكأس : الخمر ، فأطلق الكأس ، وهل الظرف ، وأراد الخمر وهو المظروف ، من علاقة الحال بالمحل . لم يصرح القرشي بهذه المصطلحات البلاغية ، من ايجاز الحذف ، او الالتفات ، او علاقات المجاز ، انما شرحها ، واستقرت فيما بعد عند البلاغيين بتلك المصطلحات التي ذكرنا.

---

(١) تحقيق ـــ د. محمد فؤاد سزكين ، دار الفـكر ومكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

(٢) الجمهرة ـــ دار المسيرة ، ص٥ .

(٣) الســـــابق : ص٦ .

وهذا معنى ما اشار اليه في بداية الحديث ، ونقلناه عن استاذنا الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي ، في ان مقدمة الجمهرة من البدايات في الاشارات البلاغية ، والبذور البيانية .

ونجد مثل هذه الاشارات البلاغية بهذا المفهوم في معجم «أساس البلاغة»(١) لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ـ٥٣٨هـ) . وهي تقريبا في المعنى اللغوي والبياني مبنية على بدايات القرشي واشاراته .

## منهج الاختيار وقيمة ذلك في توجيه البيان العربي :

هناك روايات مختلفة حول سنة وفاة محمد بن ابي الخطاب القرشي ، منها أنه سنة ١٧٠هـ(٢) ، او احدى وسبعين ومئة(٣) او في القرن الهجري الثالث ، وهذه الاراء على تنوعها ووجاهتها فانها تجمع على أمرين ، هما : ان القرشي ما تجاوز القرن الثالث الهجري(٤) ، والثاني ان جمهرة اشعار العرب تنتسب الى القرشي ، من غير نزاع أو شك في ذلك(٥) .

وضح القرشي منهجه في الاختيار اذ قال : ونحن ذاكرون في كتابنا هذا ما جاءت به الاخبار المنقولة ، والاشعار المحفوظة عنهم ، وما وافق القرآن من ألفاظهم ، وما روى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في الشعر والشعراء ، وما جاء عن اصحابه والتابعين من بعدهم ، وما وصف به كل واحد منهم ، واول من قال الشعر ، وما حفظ عن الجن(٦) .

---

(١) أساس البلاغة ، محمود بن عمر الزمخشري (ـ٥٣٨هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٥م .

(٢) الياذة هوميروس ، سليمان البستاني ، ص١٧٢ـ١٧٣ ، مطبعة الهلال ، مصر : ١٩٠٤م.

(٣) من مقدمة جمهرة اشعار العرب ، ص٥ ، دار صادر .

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان ، ج٢ ، ص١٠٩ـ١١٠ ، مطبعة الهلال ، مصر ، ١٩٣٠م .

(٥) ينظر : ص٥ مقدمة جمهرة اشعار العرب ، دار صادر .

(٦) السابق : ص٩ . من اصل الجمهرة .

هذا التنوع في الاختيار من شعر الجاهليين والاسلاميين ، واخبارهم ، والبحث عن اولية الشعر ، واخبار في الادب والنقد والبلاغة ، هذه ركائز قام عليها كتاب «جمهرة اشعار العرب» ، ونحن نعرف ان أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ـ٢٥٥هـ)، قد ألف كتابه «البيان والتبيين» وهو من بدايات البيان العربي ، وفي أصول البلاغة العربية قد نثر في ثناياه الاحاديث عن الشعر والشعراء ، واحاديثهم ، وعن قضايا في الادب والنقد والبلاغة ، ونماذج من الشعر الراقي ، وغير ذلك من القضايا التي تتصل بالدفاع عن البيان العربي والاعجاز القرآني ، وما في ذلك من بروز شخصيته في الاختيار في تنوع العصور ، والشعراء والخطباء ، وتنوع مختاراتهم . هذا كله عد للجاحظ من الاثر البياني في تاريخ البلاغة العربية والبيان العربي ، واذا كان هذا المنهج في الاختيار لونا من ألوان البلاغة العربية ، وضربا من ضروب التأليف البلاغي، او بداية من البدايات ، فان هذا يندرج على «جمهرة أشعار العرب» للقرشي ، وقد أشار الى ذلك فيما تقدم استاذي الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي ، ولكنه ما وضح هذه القضية ، وهذا ليس نقصا فيما اشار اليه ، انما الحديث عن جمهرة اشعار العرب للقرشي ، كان ضمن تقديم الاستاذ خفاجي لكتاب الايضاح للقزويني (ـ٧٣٩هـ) وحديث مثل هذا لا يعين صاحبه على استقصاء القضية في البيان العربي ، ولا يستطيع اي باحث ان يقول اكثر مما قال الاستاذ الخفاجي ، ولذا فانه من الخير ، وخدمة لتاريخ البيان العربي ،بسط الحديث في «جمهرة اشعار العرب» من الوجهة البيانية ، ويكون ذلك في اظهار بعض المصطلحات ، التي عرض اليها القرشي باسم «الكف» وهو ما تعارف عليه البلاغيون فيما يعد باسم «الحذف» والالتفات وعلاقات المجاز . وان لم يسمها القرشي بهذه الاسماء ولكنها هي هي ما شاع بين دارسي البلاغة بعد عصر القرشي .

ثم بعد ذلك وجدنا تنوع منهج الاختيار عند القرشي ، يقارب منهج الجاحظ في كتابه البيان والتبيين والجاحظ علم من اعلام البيان العربي ، اضافة الى انه من المعروفين في الادب والنقد ، ولهذا فان القرشي في جمهرته ، يعرض ذوقه البلاغي ، وحسه البياني ، فيما اختار ، وشرح ووجه الى خبر او نموذج ، او اختيار لطبقة من الشعراء ، وتسمية تلك الطبقات باسم «المعلقات» او «المجمهرات» او «المنتقيات» او «المذهبات» او «المراثي» او «المشوبات» او «الملحمات» .

سواء كانت هذه التسميات من صنعه او من صنع غيره ، فانه ارتضاها عنوانات الى طبقاته ، وهناك من المؤلفين في طبقات الشعراء(١) ، وهو محمد بن سلام الجمحي (ـ٢٣٢هـ) ، وكتابه بين الدارسين معروف ، وبين اهل الادب والنقد والبلاغة غير منكور .

ولو نظرنا في المختارات الشعرية التي نقلها القرشي ، لوجدناها تمثل ، حلقه من حلقات التفكير النحوي واللغوي ، عند العرب ، ثم ان هذه المختارات درس من دروس فنون العربية بطريقة تطبيقية من خلال الكلمة الراقية العفة ، وهذه النماذج الشعرية فيها معنى الشخصية العربية ، من معاني الفخر والكرامة والدفاع عن الذمار ، واشاعة النخوة العربية ، وكأن هذا الاتجاه فتح الباب لجامعي المختارات الحماسية ، مثل : ابي تمام (ـ٢٣١هـ) ، في حماسته(١) . والبحتري (ـ٢٨٤هـ) في حماسته(٢) .

وكان أبو تمام يسعى الى تربية النشء العربي الاسلامي على معاني تماسك الشخصية ورد التيار الشعوبي الذي يعادي العرب ويتهمهم في بيانهم ، والعادات الاصيلة التي تربوا عليها ، ونشأوا في حياضها . ولذلك فاننا نرى في مثل هذه النماذج في جمهرة اشعار العرب للقرشي ، ما نراه في حماسة أبي تمام والبحتري ، من اشاعة معالم المجتمع العربي الاسلامي ، وبرز ذلك في مقابلة المعاني الواردة في كلام العرب ، بما يوافق ما جاء في القرآن من المعاني والالفاظ .

والقرشي ملتزم في اختياره من ناحيتين :

الاولى : ـ في اختيار العالي من فن القول العربي .

والثانية : ـ أدبه الجم في توجيه مفهوم الزيادة والحذف في تفسير الآيات القرآنية ، اذ ايجاز الحذف والزيادة في المعاني لا في الالفاظ .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، قرأه وشرحه ـ محمود احمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤م.

(١) ديوان الحماسة ، شرح المرزوقي ، تحقيق احمد امين وعبدالسلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

(٢) تعليق وشرح ـ الاب لويس شيخو اليسوعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧م.

هذا التنوع في اختياره لتسعة واربعين شاعرا ، في تسع واربعين قصيدة ، ينبىء عن الالمام بفن الشعر ، ودراية التوثيق ، ونرى في هذه النماذج محاكاة الاطلال واستنطاقها ، وهذا في بعض وجوهه تفسير الى ان هذه النؤى والاثافي والاحجار ، معان لامور عينية اخرى ، وفي بعض وجوهها محاكاة لمشاعر الشاعر ، لان هذه الجمادات لا قيمة لها في ذاتها ، الا عندما يطفي عليها الشاعر من مشاعره ، وآهاته واحزانه ، وهمومه ما يجعلها ناطقة ، مشاركة للانسان في حاجاته وميوله ، وما ألبس الجماد بمشاعر الشاعر الانسانية .

وكثرة الاسماء التي وردت في الشعر الجاهلي ، مثل : ليلى وسعدى ، وسعاد ، وأم عمرو ، وغيرهن من الرموز التي تفسر معتقد الجاهلي — انذاك — وهو تفسير يصدق في ناحية من هذه القصائد التي اختارها القرشي ، ويتخلف في ناحية اخرى ، على أية حال ، ان النماذج التي اختارها القرشي في جمهرته ، يستطيع الدارس ان يرى فيها اللون الجمالي من خلال التفسير الرمزي ، والحضاري ، الانساني بالاضافة الى تصوير وقائع حقيقية ومن ذلك قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم واستعطافه ، وتصوير الحالة النفسية التي ساورته ، وانتظار قرار الرسول الكريم في العفو او غير ذلك :

وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك ، اني عنك مشغول

فقلت : خلوا سبيلي ، لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن انثى ، وان طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول

أنبئت أن رسول الله اوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا اهداك الله الذي اعطاك نافله الـ ... قرآن فيها مواعيظ ، وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة ، ولم ... أذنب ، وان كثرت في الاقاويل

لقد أقوم مقاما لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل(١)

---

(١) الجمهرة ، دار صادر ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

الى أن يقـــول : ـــ

ان الرســـول لنـــور يستضاء بـــه ... وصـــارم من سيـــوف الله مســـلول

في عصبة من قريش قال قائلـــــهم ... ببطن مكة ، لما أسلموا : زولـــوا

زالوا ، فما زال انكـــاس ولا كشف ... عند اللقاء ، ولا ميـــل معازيـــل

شم العرانيـــن ، أبطـــال لبوسهم ... من نسج داود ، في الهيجاء ، سرابيل

بيض سوابغ قد شكت لهـــا حلـــق ... كأنهـــا حلـــق القفعـــاء مجـــدول

لا يفرحون اذا نالـــت رماحـــــهم ... قوما وليسوا مجازيعـــا اذا نيلـــوا

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب ، اذا عرد الســـود التنابيـــل

لا يقع الطعـــن الا في نحورهـــم ... وما لهم عن حياض المـــوت تهليـــل

الوضوح في نقل الفكرة ، لون من ألوان البيان العربي ، وعندما يختار القرشي هذا النص لكعب ، فانه يحقق معنى تعليم الناس فن القول العربي ، بما فيه فن معان لاصول الهجرة ، وسياسة الحرب في الانتصار والانهزام ، ومدح الناس بما يستحقون من غير تزيد او انتقاص ، وتصوير النفس بما هي عليه من شدة او انقباض ، او انشراح ، وهذا كله تأكيد للتأثير ، واشراك المتلقي فيما يريد المتفنن ، واختيار المرء جزء من عقله ، وبهذا يحقق القرشي ما يريد في اختيار النص دون غيره.

## المنهج الادبي ووسيلة تعدية الفكر البياني من خلاله :

ان الدارس «لجمهرة اشعار العرب» للقرشي ، يلاحظ انه عرض الى بعض المصطلحات البلاغية ، ثم في اثناء حديثه عن الشعر والشعراء ، نثر بعض القضايا التي لا تستطيع معها ان تضعها في العلوم البلاغية او النقدية ، بل تجد نفسك مضطرا ، الى ان تجعلها حلقة من حلقات صلة البلاغة بالنقد ، والقرشي لم يكن فردا في هذا المنهج ، بل هناك دراسات كثيرة في تاريخ فن القول العربي ، تمثل صلة البلاغة بالنقد ، من ذلك ما ذكرناه للجاحظ (ـــ٢٥٥هـ) ، في كتابـــه «البـــيان

والتبيين» ، ولا ننسى «الموازنة»(١) للحسن بن بشر الآمدي (ـ٣٧٠هـ) ، و «الوساطة»(٢) للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني (ـ٣٦٦هـ) ، ودراسات ابن الاثير (ـ٦٣٧هـ) ، في مثله السائر(٣) ، وغير ذلك مثل : «الصناعتين»(٤) لابي هلال العسكري (ـ٣٩٥هـ) ، و «العمدة»(٥) للحسن بن رشيق القيرواني (ـ٤٦٣هـ) ، ودراسات الاعجاز القرآني . للباقلاني (ـ٤٠٣هـ) ، وثلاث رسائل ، للرماني(٦) (ـ٣٨٦هـ)، والخطابي (ـ٣٨٨هـ) ، ولعبدالقاهر الجرجاني(٧) (ـ٤٧١هـ او ٤٧٣هـ) .

هذا اللون من الحديث شاع في جمهرة القرشي ، ومن ذلك ، ما جاء في قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم «ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا»(٨) .

وهذا يعني تأثير الكلمة الرائعة ، والبيان الراقي في النفوس ، واهتزازها ، كما يفعل السحر في تحريك النفوس ، ودفعها دفعا الى الوجهة التي يراد لها ذلك الانسان .

---

(١) الموازنة بين الطائيين ، تحقيق ـ محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٤م .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق ـ محمد ابو الفضل ابراهيم ، وعلي محمد البجاوي، طبع ـ عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥١م .

(٣) المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، تحقيق ـ د. احمد محمد الحوفي ، و د. بدوي طبانة مكتبة نهضة مصر ، القاهرة .

(٤) كتاب الصناعيين ، الكتابة والشعر ، تحقيق ـ علي محمد البجاوي ، ومحمد ابو الفضل طبع ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ط٢ .

(٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق ـ محمد محيي الدين عبدالحميد ، طبع دار الجيل بيروت ، ١٩٧٢م .

(٦) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ، تحقيق ـ محمد خلف‌الله و د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف مصر ، ١٩٦٨م.

(٧) الجمهرة ، دار صادر ، ص.٣ ، وينظر : كشف الخفاء ج١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
وأسرار البلاغة ، تحقيق ـ هـ. ريتر ، مطبعة وزارة المعارف ، استانبول ، ١٩٥٤م .

(٨) الجمهرة ، دار صادر ، ص.٣ ، وينظر : كشف الخفاء ج١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

والشعر الرائع يحمل في ثناياه الحكمة ، وتصل الحكمة الى القلوب ، وتهذب النفوس عن طريق البيان السليم ، والنظم المستقيم . وهل يعود النظم المؤثر في صورة الشعر الى قضية بلاغية ، او نقدية ، أو الى الحس البياني ، والحسن النقدي ، ان التأثير يعود الى تلك المصطلحات والمفردات مجتمعة من بيان ونقد .

وهناك فوائد للشعر ذى البيان الواضح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الشعر كلام من كلام العرب جزل ، تتكلم به في نواديها ، وتسل به الضغائن بينها ، ثم أنشد :

قلدتك الشعر يا سلامة ذا الـ افضال ، والشيء حيثما جعلا

والشعر يستنزل الكريم ، كما ينزل رعد السحابة السيلا(١)

وعرض القرشي الى أسس الشعر ومقوماته ، ومن ذلك استئذان حسان بن ثابت الرسول الكريم ، في هجاء ابي سفيان بن الحارث ، بعد هجائه للرسول ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اهجهم وروح القدس معك ، واستعن بأبي بكر ، فانه علامة قريش بأنساب العرب(٢) .

ومعرفة الانساب والاخبار ، سبب من أسباب جودة الشعر ، ولا يكفي ان يكون الشعر مؤثرا بما يحمل من نظم وتفاعيل وعروض وقواف ، بل لا بد من المضمون الذي يمتلىء به القالب الشعري .

والشعر الرائع بنظمه ومضمونه يرتفع بصاحبه الى ما يريد ، ويقضي له حوائجه، وقد مر خبر كعب ابن زهير(٣) في استعطاف الرسول واستئذانه ، ومن ذلك ، ما انشده نابغة بني جعدة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو :

بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

---

(١) الجمهرة ، دار صادر ، ص٣٠ .

(٢) السابق : ص٣٠ .

(٣) نفسه : ص٣٢ .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : الى الجنة يا رسول الله !قال : نعـــم انشاء الله ، فلما أنشده :

ولا خيـــر في حلم اذا لم تكـــن له بوادر تحمي صفـــوه ان يكـــــدرا

ولا خير في جهـــل ، اذا لم يكـــن له حليم ، اذا ما أورد الامر أصدر(١)

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا فض الله فاك هذا التقديـــر من الرسول الكريم ، سمة لشدة أثر البيان فيه ، وتقدير لقيمة البيان المؤثر .

ومما ورد في «الجمهرة» عن قواعد الشعر ، قول عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : اروا من الشعر أعفه ، ومن الحديث أحسنه ، ومن النسب ما تواصـــلون عليه ، وتعرفون به ، فرب رحم مجهولة قد عرفت فوصلت ، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الاخلاق وتنهي عن مساويها(٢) .

وجاء في الجمهرة ، تصنيف للعلم ، وهو علمان : علم يدعوك الى آخرتك فآثره على ما سواه ، وعلم لتزكية القلوب وجلائها وهو علم الادب ، فخذ بحظك منه(٣) .

وهناك فضل للشعر وتعلمه ، وفي هذا نشر للبيان الرائع ، ومن ذلك ما قاله أبو عبيدة معمر بن المثنى (ـ٢٠٩هـ) لرجل كان ينشد شعرا فطول في ذلك ، فقال له : ألم تعلم أن الشعر : هو جوهر لا ينفذ معدنه فمنه الموجود المبذول ، ومنه المعوز ، الحصون ، فعليك بالبحث عن مصون يكثر ادبك ، ودع الاسراع الى مبذوله كيلا يشغل قلبـــك(٤) .

وروى الصحابة ، العف الشريف من الشعر ، والعالي المصون من القصيد . ومن ذلك لابي بكر الصديق رضي الله عنه يرثي النبي صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الســـابق : ص٣٣ .

(٢) نفســـه : ص٣٦ .

(٣) نفســـــه : ص٣٦ .

(٤) نفســـــه : ص ٣٧ .

أجدك ما لعينيك لا تنـــام  كأن جفونها فيهـا كـلام

ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولعلي كرم الله وجهـه ، ولعثمان بن عفان رضي الله عنه .

وورد في الجمهرة حديث عن الشعراء وطبقاتهم(١) ، ومنازلـهم ، واقدارهم ، ومثل هذا كان في «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي (ـ٢٣٢هـ) .

وهناك احكام بلاغية نقدية ، تنم عن ذوق القرشي وحسه البياني ، من ذلك :

١ـ ما جاء في باب صفة الذين قدموا زهيرا ، اذ قالوا : «هو اشعر العرب»(٢) .

٢ـ ما جاء في باب خبر الذين قدموا النابغة الذبياني ، اذ قالوا : «هو اوضحهم معنى ، وابعدهم غاية ، واكثرهم فائدة(٣) .

ثم قول عمر بن الخطاب : لبني غطفان «هو أشعر شعرائـكم»(٤).

٣ـ ما جاء في باب خبر اعشى بكر بن وائل ، اذ قال الذين قدموه : «هو امدحهم للملوك ، واوصفهم للخمر ، واغزرهم شعرا ، واحسنهم قريضا(٥) .

٤ـ ما جاء في باب خبر لبيد بن ربيعة ، اذ قال الذين قدموه : «هو افضلهم في الجاهليـة والاسلام واقلهم لغوا في شعره .

وقد قيل عن عائشة ، رضي الله عنها ، انها قالت : رحم الله لبيدا ما اشعره في قوله :

ذهـب الذين يعاش في اكنافـهم  وبقيـت في خلف كجلـد الاجـرب

لا ينفعون ، وليـ ـريرجى خيرهـم  ويعاب قائلـهم ، وان لم يشغب(٦)

(١) السـابق : ص٣٨ ، ٣٩ .
(٢) نفسـه : ص٥٦.
(٣) نفسـه : ص٥٩ .
(٤) نفسـه : ص٦١ .
(٥) الجمهرة : ص٦٧ .
(٦) السـابق : ص٦٩ .

٥ــ ما جاء في باب صفة عمرو بن كلثوم ، اذ قال الذين قدموه : «هو من قدمـــاء الشعراء ، واعزهم نفسا ، واكثرهم امتناعا ، واجودهم واحدة»(١) .

٦ــ ما جاء في باب صفة طرفة بن العبد ، اذ قال الذين قدموه : «هو اشعرهم اذ بلغ بحداثة سنه ما بلغ القوم في طول اعمارهم» .

٧ــ ما جاء في باب ذكر طبقات من سمينا منهم ، اذ قال أبو عبيدة : «اشعر الناس أهل الوبر خاصة»(٢) .

ولو حاولنا ان نتتبع تفسير تلك الاحكام البلاغية النقدية التي وردت ، لوجدناها تدور حول مفهوم جودة البيان ، وحسن النقد ، وقدرة التأثير ، وقيمة المضمون ، وقواعد الشعر ، وأسس الادب ، وربط ذلك كله بالسلوك ، والبيئة والتجارب ، في ضوء فن القول العربي الفصيح ، وذلك في اجابة اعرابي عبدالملك بن مروان ، عندما سأله من أنت ، فأجاب : أنا رجل جانبتني صأصأة اليمن ، وعنعنة تميـــم وأسد ، وكشكشة ربيعة ، وتأنيث كنانة»(٣) .

وما تقدم رأى في «جمهرة اشعار العرب» للقرشي ، لعله يفتح الباب للدارسين فيما بعد بضمه الى تاريخ الدراسات البيانية ، والاشارة الى ما ورد فيه من بدايات في البلاغة العربية ، وان تنبه الى ذلك استاذنا محمد عبدالمنعم خفاجي ــ كما تقدم ــ

---

(١) نفســـــــه : ص٧٢ .

(٢) نفســـــــه : ص٧٤ ، ص٨٠ .

(٣) نفســـه : ص٨٦ ، صأصأة اليمن : اي كلامهم الشبيه بصأصأة الطير ، وتأنيث كنانة : ما كانـــت تؤنثـــة قبيلة كنانة في كل شيء .

الصأصأة والعنعنة والكشكشـــة من اللغات المذمومة في العربية (واللغة هنا بمعنى اللهجـــة) ، وقد اورد احمد بن فارس (ــ٣٩٥هـ) في كتابـــه «الصاحبي» ، أن العنعنـــة ، هي التي تذكر عن تميم ــ فقبلهم الهمزة في بعض كلامهم عينا ، يقولون : «سمعت عن فلانا قال كذا» يريدون : (ان) . وأما الكشكشة التي في أسد ، فقال قوم : انهم يبدلون الكاف شينا ، فيقولون «عليش» بمعنـــى «عليـــك» وقال آخرون : بل يصلون بالكاف شينا ، فيقولون «عليكش» . وكذلك الكسكسة التي في ربيعة ، انما هي ان يصلوا بالكاف سينا ، فيقولون «عليكس» . ينظر الصاحبي ، ص ٣٥،٣٦.

وكان ذلك في ثلاثة اسطر ، وما نبغيه ونلح عليه ، هو ان يكون الحديث اطول ، والتعريف اشهر ، وان يشيع هذا الرأي بين دارسي البيان العربي ، والمشتغلين بالبلاغة العربية في العصر الماثل .

وابراز أن أصحاب المختارات والمجموعات الشعرية ، كانوا يؤكدون في اختيارهم مفهوم البيان العربي ، ويراعون أصول البلاغة العربية وان لم يصرحوا بذلك ، او يجعلوا عنوانات كتبهم باسم البلاغة او البيان ، وعلى الدارسين ان يستنطقوا النصوص وألا يكتفوا باسم الكتاب ليدل على فنه ، وتصنيفه في علم دون آخر .

# المصـــــــادر والمراجـــــــــــع


— أساس البلاغة .

محمود بن عمر الزمخشري (ـ٥٣٨هـ) ، دار صادر ، ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٥م .

— أسرار البلاغـــة .

عبدالقاهر الجرجاني (ـ٤٧١هـ أو ٤٧٣هـ) ، تحقيق ـ د. ريتر، مطبعة وزارة المعارف ، استانبول ، ١٩٥٤م .

— الياذة هوميوس .

سليمان البستاني ، مطبعة الهلال ، مصر ، ١٩٠٤م .

— الايضـــــاح .

محمد بن عبدالرحمن القزويني (ـ٧٣٩هـ) ، تحقيق ـ محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتاب اللبـــناني ، بيروت ، ١٩٧٥م .

— تاريخ آداب اللغة العربية .

جورجي زيدان ، مطبعة الهلال ، مصر ، ١٩٣٠م .

— التلخيـــص .

محمد بن عبدالرحمن القزويني (ـ٧٣٩هـ) ، تحقيق، عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (؟) ، مصورة عن النسخة المصرية ، ١٩٠٤م.

— ثلاث رسائل في اعجاز القرآن .

عيسى بن علي الرماني (ـ٣٨٦هـ) ، وحمد الخطابي (ـ٣٨٨هـ) ، وعبدالقاهر الجرجاني (ـ٤٧١ او ٤٧٣هـ) ، تحقيق ـ محمد خلف‌الله احمد ، و د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨م .

— جمهرة اشعار العرب .

محمد بن ابي الخطاب القرشي (؟) ، دار صادر ، ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٣م . طبعة أخرى عن دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٨م ، مصورة عن النسخة المصرية عام ١٣٠٨هـ .

— الحماسة .

الوليد بن عبيد البحتري (—٢٨٤هـ) ، تعليق وشرح — الاب لويس شيخو ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧م .

— دلائل الاعجاز .

عبدالقاهر الجرجاني (—٤٧١هـ او ٤٧٣هـ) ، تصحيح ، محمد عبده ومحمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٦١م.

— ديوان الحماسة بشرح المرزوقي .

حبيب بن اوس الطائي «أبو تمام» (—٢٣١هـ) ، تحقيق احمد امين وعبدالسلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

— الصاحبي .

أحمد بن فارس (—٣٩٥هـ) ، تحقيق السيد أحمد صقر، طبع، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

— طبقات فحول الشعراء .

محمد بن سلام الجمحي (—٢٣٢هـ) ، قرأه وشرحه — محمود احمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

— عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح .

أحمد بن علي السبكي (—٧٧٣هـ) ، ضمن شروح التلخيص ، طبع ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

— العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .

الحسن بن رشيق القيرواني (—٤٦٣هـ) ، تحقيق — محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبع — دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٢م .

— كتاب الصناعتين «الكتابة والشعر» .

الحسن بن سهل العسكري (—٣٩٥هـ) ، تحقيق — علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، طبع ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة، ط٢.

— كشف الخفاء ومزيل الالباس .

اسماعيل بن محمد العجلوني (—١١٦٢هـ) ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٥١هـ .

— المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .

نصر الله بن محمد بن الاثير (—٦٣٧هـ) ، تحقيق — د. أحمد محمد الحوفي و د. بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

— مجاز القرآن .

معمر بن المثنى أبو عبيدة (—٢٠٩هـ) ، تحقيق د. محمد فؤاد سزكين ، دار الفكر ومكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

— معاهد التنصيص على شواهد التلخيص .

عبدالرحيم العباسي (—٩٦٣هـ) ، تحقيق — محمد محيي الدين عبدالحميد ، عالم الكتب ، بيروت (؟) ، مصورة عن النسخة المصرية ، ١٩٤٧م .

— المفتاح .

يوسف بن محمد السكاكي (—٦٢٦هـ) ، طبع — مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

— الموازنة بين الطائيين .

الحسن بن بشر الآمدي (ـــ٣٧٠هـ) ، تحقيق ـــ محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٤م . وهناك طبعة اخرى بتحقيق ـــ السيد احمد صقر ، دار المعارف مصر ١٩٦٥م ، ١٩٧٢م .

— الوساطة بين المتنبي وخصومه .

علي بن عبدالعزيز الجرجاني (ـــ٣٦٦هـ) ، تحقيق ـــ محمد ابو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي ، طبع ـــ عيسى البابي الحلبي القاهرة ، ١٩٥١م .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

# خاتمـــــــة

يربط الدراسات الانسانية رابط عقلي ، ويحوطها اطار فكري ، يؤدي الى عملية التواصل في تسجيل الفكرة ونقلها ، والتأثر بها والتأثير في غيرها .

وهذا ما يثري الثقافة من جيل الى آخر ، ويدفع الحضارات في الاستمرار من زمان الى زمان ، ومن مكان الى غيره .

والحديث عن لغة من اللغات او عن نماذج لهذه اللغات في اطار الصورة الادبية، يزيد في تفسير الحياة ، وينمي مفهوم الاسرار النفسية ، والوجدانات ، والعواطف والافـــكار .

ولذلك تنوعت وسائل التفكير ، وسلاسل المنطق من فرد الى آخر ، ومن أمة الى أخرى ، سعيا وراء الحقيقة والعدل والخير ، وهذا جميعه يؤدي الى معرفة القدرة الالهية العظيمة ، ومعرفة موقع الانسان بين الحياة الدنيا وما يؤول اليه امره في الآخرة .

والفصول المتقدمة ، في صورتها المتتابعة ، وجزئياتها المتلاحقة ، تفرز معنى التفاعل الفكري ، وتهتم بتسجيل الحدث وتفسر التلقي والانفعال به ، في مواطن الادب والنقد والبلاغة في تشكيل لغوي راق ، من اقوال القدماء ، ونظرات المحدثين فيما ينبغي ان تكون عليه الحياة النامية للادب بلغته وبلاغته ونحوه ونقده ، واصوله، واتجاهاته ، وآرائه ، وقضاياه .

ولذلك فان استمرار هذه المعارف الادبية ، مظهر من مظاهر الاصالة ، ومعلم من معالم الحضارة المتلقية والمرسلة والمتأثرة والمؤثرة .

في ضوء ما تقدم تتعاون الحضارات ، وتتكاتف الجهود ، وتتآزر الامم في اشاعة الفـــكر الانساني ، وتعديته من منطقته الى غيرها في اطراف المعمورة لينتفع بها الانسان باعتباره انسانا احتراما لعقله ، وايمانا بحقه في تراسل المنافع الحضـــارية الانسانية في العالم . واللغة بأدبها ونقدها وبلاغتها وجه من وجوه هذا الفهم الانساني الحضاري الذي يعتمد على النافع من القديم مع الاخذ من المفيد من وجهات النظـــر الحديثـــــــــة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

# الفهرس


| الرقم المتسلسل | الموضوع | الصفحة |
|---|---|---|
| | المقدمة | ٣ — ٤ |
| ١ — | سر البيان في كتاب ابن سنان | ٥ — ٢٢ |
| ٢ — | الفكرة البيانية بين المصطلح والقيمة | ٢٣ — ٦١ |
| ٣ — | من خطوات البيان | ٦٣ — ٨٠ |
| ٤ — | الفكرة البلاغية بين التأثير والتأثر | ٨١ — ٩٩ |
| ٥ — | من اسلوب الاستعارة | ١٠١ — ١٢٢ |
| ٦ — | حول الصلة بين الدرس النحوي وعلم البلاغة | ١٢٣ — ١٥٧ |
| ٧ — | في الذوق الادبي | ١٥٩ — ١٧٨ |
| ٨ — | قراءة في جمهرة أشعار العرب | ١٧٩ — ٢٠٠ |
| | الخاتمة | ٢٠١ |
| | الفهرس العام | ٢٠٢ |

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية ١٩٨٣/١١/٥٦٢

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دار الفكر للنشر والتوزيع
عمان - ص.ب : ١٨٣٥٢٠

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الناشر
دار الفكر للنشر والتوزيع
عمان - ص.ب : ١٨٣٥٢٠

شركة الشرق الأوسط للطباعة
عمان ـ ماركا الشمالية
تلفون ٩٤٩٤٠ ـ ٩٤٩٤١